

النفسير الموضوعي الميسر
للفاتحة وقصار المفصل

إعداد

د. محمد بن عبد العزيز العواجي
استاذ تفسير وطول القرآن بكية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

دار العقيدة
للنشر والتوزيع

النفسير الموضوعي الميسر
للفاتحة
وقصار
المفصل

د. محمد بن عبد العزيز العواجي
إعداد

دار العقيدة

التفسير الموضوعي المبسّر للفاتحة وقصار المفصّل

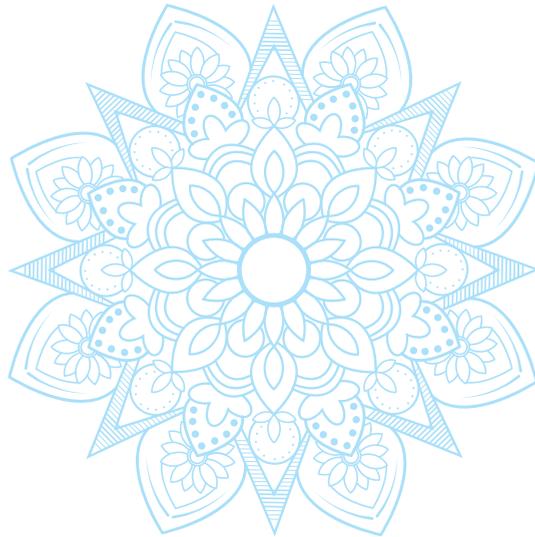
إعداد

أ.د. محمد بن عبد العزيز آل عول جري

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

aboayob@hotmail.com

المدينة المنورة ص.ب. (٧١١٩) الرمز (٤١٤٦٢)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، المتفرد بكمال الجمال والإنعام على الخلق أجمعين، الذي أرسل رسله لهداية العالمين، وختم رسله بسيد الخلق وإمام المرسلين نبينا محمد عليه وعلى آل بيته وصحابته أفضل الصلاة وأتم التسليم والحمد لله رب العالمين.

فإن كتاب الله خير ما تقضى فيه الأعمار، وتستغل الأوقات في حفظه وتدبره، ومن ثم العمل به وتطبيقه في واقع الحياة، وما زال العلماء قديماً وحديثاً يخدمونه بتأليف تفاسيره، إذ بلغت أعداداً كثيرة، مع اختلاف مشاربها، وتنوع مناهجها، وتباين طرقها، غير أنها تلتقي في نهاية الأمر على خدمة كتاب الله، وتوضيح مبهمته، وبيان غامضته.

و«إنَّ أَيَّْ عِلْمٍ إِنَّمَا يَنَالُ شَرَفَهُ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: مِنْ جِهَةٍ مَوْضُوعِهِ، أَوْ مِنْ جِهَةٍ غَرَضِهِ، أَوْ مِنْ جِهَةٍ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

﴿أَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوْضُوعِ فَإِنَّ مَوْضُوعَهُ: كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ يَنْبُوعُ كُلِّ حِكْمَةٍ وَمَعْدَنُ كُلِّ فَضِيلَةٍ، فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، لَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبِهِ.

﴿وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْغَرَضِ فَإِنَّ غَرَضَهُ: الْإِعْتِصَامُ بِالْعُرْوَةِ الْوَثْقَى، وَالْوَصُولُ إِلَى السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي لَا تَفْنَى.

﴿وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَاجَةِ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَمَالٍ دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ، عَاجِلٌ أَوْ آجِلٌ مَفْتَقَرٌ إِلَى الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الدِّينِيَّةِ، وَهِيَ مَتَوَقِّفَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى﴾^(١).

وثمة نوعٌ جديدٌ من التفسير ظهر على ساحة المعرفة في القرن الرابع عشر الهجري، وأصبح مدرسة بحدّ ذاته، له ضوابطه وطرقه يُسمّى بالتفسير الموضوعي، فيه تجمع الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد في مكان واحد، ويتمُّ تناولها بالدراسة والتحليل والترتيب؛ كيما تستخرج هدايات القرآن، وتستنبط فوائده.

ومن أنواعه المشتهرة: البحث عن موضوع من خلال سورة من القرآن بتحديد الهدف الأساسي للسورة أو غيره من الأهداف ودراسته من خلال تلك السورة، فيحدد هدفًا أو مجالًا من مجالات السورة، ثم يستنبط الهدايات والأحكام ويذكر المناسبة بينها، ويُبرز في هذه التقسيمات ما يدل على فقه الآيات، وسعة أسلوب القرآن الكريم وبراعته.

ومهما كانت أقسامه أو تسمياته فإننا لا ننكر أنه كان موجودًا عند الأئمة بقدر حاجة الناس إليه، فما رسالة العبودية، ورسالة تزكية النفس، ورسالة التحفة العراقية ثلاثتها لشيخ الإسلام ابن تيمية إلا برهان على وجود هذا اللون من التفسير، إذ بنى كل رسالة منها على آية ودار مع موضوعها في القرآن بيانًا وتفسيرًا جامعًا لكل ما يُعينه على تلك المعاني التي يُفسر بها من مآثور ولغة وغيرها.

وإن حاجة الناس اليوم إلى القرآن أشدّ لما يكتنفهم من التحديات، ويُحيط بهم من الشبهات والشهوات، لانتشار المعلومات، وكثرة التقنيات، ومن أعظم ما يحتاجون إليه الاعتزاز بقيمهم الربانية. ولما في قصار سور المفصل من سور القرآن من تأصيل وبيان؛ فقد أحببت أن أساهم بشيء من ذلك، فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد

(١) الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي ١/٤٣٧.

المعجز بلفظه ونظمه، وأشرف العلوم هي تلك التي تدور حوله؛ فتشرح غامضه، وتوضح مُبْهِمِهِ، وتبيّن جوانب العظمة في آياته، وشرف العلم من شرف المعلوم، ومن أجل إحياء شعيرة التدبُّر في النفوس، وهذا ما آمل أن يُظهر شيئاً منه هذا البحث.

فهذا المشروع عبارة عن تفسير موضوعي للفتحة وقصار المفصل من سورة الضحى إلى الناس.

وبيان ذلك في النقاط التالية:

أولاً: أسباب اختيار المشروع:

(أ) أهداف المشروع:

- ١) ربط المتلقي بكتاب الله، وتميئته لحفظه والعمل بمقتضاه. (توحيد مصدر التلقي).
- ٢) إبراز منهج النبي ﷺ والسلف الصالح في تلقي القرآن والعمل به. (إتباع الأثر).
- ٣) تربية المتلقي وتركيته بالقرآن الكريم. (إصلاح وتوجيه).
- ٤) بيان إعجاز وعظمة وشمولية القرآن الكريم وحاجتنا إليه في كافة الميادين. (إيمان وتقدير).
- ٥) إبراز عظمة القرآن الكريم، وأثره في سعادة البشرية وهدايتها. (عظم الأثر).
- ٦) تحصين المتلقي وحلّ مشكلاته من خلال المنهج القرآني. (وقاية وعلاج).
- ٧) نشر معاني القرآن السامية إلى العالم بلغاتهم عبر منهجية سهلة ميسرة. (دعوة وتعريف).
- ٨) إثراء الخطط والمناهج التعليمية والتربوية والدعوية بالأسس والمفاهيم القرآنية. (تأصيل وتعليم).

(ب) أسباب ومناسبات:

- (١) العناية بقصار المفصل بسبب كثرة قراءتها في الفرائض، وحفظ الكثير من الناس لها، مع الجهل الموجود ببعض مفرداتها ومعانيها.
- (٢) أن هذه السور يبتدئ بها العوام، وطالب العلم أول أمره، ولا يستغني عنها طالب العلم، فناسب دراستها بأسلوب تذكيري موضوعي ميسر، لتقرير المسلك إلى الله، وفتح باب التدبر في كلامه.
- (٣) كثرة تردد هذه السور على المسامع، مع عظم ما تضمنته من المعاني، والتي غالباً ما تغفل عنها، فأحببنا ربط المُعَلِّم، والمتعلم في بداية مشواره؛ بمعانيها العظيمة.
- (٤) أن هذه السور في غالبها مكِّيَّة، تعالج قضايا اعتقاديَّة كُليَّة، لا ينبغي التفريط فيها ولا إغفالها؛ لاسيما من الدعاة إلى الله.
- (٥) اشتمال هذه السور إجمالاً على جانب الوعظ وربط القلوب بالله تعالى والتذكير بالمنعم.
- (٦) العناية بتفسيرها من شأن طلاب العلم والدعاة إلى الله والمربين، فهي جديرة بالتدريس في البيت والعائلة والمسجد وحلقات تحفيظ القرآن... إلخ.
- (٧) تضمن المنهج التربوي لرعاية طلاب العلم^(١)، جزءاً كبيراً من تلك الموضوعات التي تضمنتها قصار المفصل، وعدم توفر مراجع كافية للتحضير منها، مع تراحم الأعمال على المشرف المربي.
- (٨) إعداد هذا المشروع معونةً على استفادة الطلاب بجمعه في محل واحد، وذلك لأنها قرئت من عدة تفاسير وكُتِبَتْ منها الفوائد والعبر المتناثرة، فجمعها في مكان واحد عملٌ يستفيدون منه مستقبلاً بإذن الله تعالى.

(١) وهو: برنامج تربوي لطلاب العلم، ويهدف إلى تغطية الحاجات التربوية للطلاب.

ثانياً: خطة البحث:

اشتمل البحث على: مقدمة وتمهيد، وقسمين، وخاتمة، وفهارس.
المقدمة: وتضمنت التعريف بالموضوع، وأهميته وأسباب اختياره، وخطة
ومنهج البحث.

تمهيد: في مقدمات عن المفصل:

أولاً: فضل قراءة وتعلم المفصل.

ثانياً: أوجه التناسب بين قصار سور المفصل.

القسم الأول: تفسير سورة الفاتحة؛ وتضمن عشرة مباحث:

المبحث الأول: مقدمات حول السورة:

المطلب الأول: تسميتها.

المطلب الثاني: نزولها وعدّها.

المطلب الثالث: فضلها.

المطلب الرابع: مواضع قراءتها.

المطلب الخامس: المعنى الإجمالي، وموضوع السورة.

المبحث الثاني: البسملة أحكام وفوائد تربوية:

المطلب الأول: مفهوم البسملة والتسمية.

المطلب الثاني: فضائل البسملة.

المطلب الثالث: أحكام البسملة.

المبحث الثالث: حمد الله هو لب العبادة:

المطلب الأول: مفهوم الحمد.

المطلب الثاني: فضل وأهمية الحمد.

المطلب الثالث: لماذا نحمد الله تعالى.

المطلب الرابع: مواضع الحمد وصيغته.

المبحث الرابع: أسماء الله وصفاته الله في سورة الفاتحة.

المبحث الخامس: ربوبية الله تعالى ودلالاتها ومقتضياتها.

المبحث السادس: رحمة الله تعالى:

المطلب الأول: أثر رحمة الله تعالى على عباده.

المطلب الثاني: مقتضيات العلم برحمة الله تعالى.

المبحث السابع: الإيمان بالبعث وأثره التربوي.

المبحث الثامن: العبودية والاستعانة لله تعالى وحده:

المطلب الأول: العبادة لله وحده.

المطلب الثاني: الاستعانة لله وحده.

المطلب الثالث: تقديم العبادة على الاستعانة.

المطلب الرابع: وقفات تربوية منهجية مع العبادة والاستعانة.

المبحث التاسع: طلب الهداية إلى الطريق المستقيم.

المبحث العاشر: بيان الهداية المطلوبة في السورة.

القسم الثاني: تفسير سور قصار المفصل: وتضمن ثلاثة وعشرين فصلاً:

الفصل الأول: تفسير سورة الضحى.

- الفصل الثاني: تفسير سورة الشرح.
- الفصل الثالث: تفسير سورة التين.
- الفصل الرابع: تفسير سورة العلق.
- الفصل الخامس: تفسير سورة القدر.
- الفصل السادس: تفسير سورة البينة.
- الفصل السابع: تفسير سورة الزلزلة.
- الفصل الثامن: تفسير سورة العاديات.
- الفصل التاسع: تفسير سورة القارعة.
- الفصل العاشر: تفسير سورة التكاثر.
- الفصل الحادي عشر: تفسير سورة العصر.
- الفصل الثاني عشر: تفسير سورة الهمزة.
- الفصل الثالث عشر: تفسير سورة الفيل.
- الفصل الرابع عشر: تفسير سورة قريش.
- الفصل الخامس عشر: تفسير سورة الماعون.
- الفصل السادس عشر: تفسير سورة الكوثر.
- الفصل السابع عشر: تفسير سورة الكافرون.
- الفصل الثامن عشر: تفسير سورة النصر.
- الفصل التاسع عشر: تفسير سورة المسد.
- الفصل العشرون: تفسير سورة الإخلاص.

الفصل الحادي والعشرون: مقدمات تفسير المعوذتين.

الفصل الثاني والعشرون: تفسير سورة الفلق.

الفصل الثالث والعشرون: تفسير سورة الناس.

الخاتمة.

ثبت المصادر.

فهرس الموضوعات.

ثالثاً: منهجية البحث:

اتبعت في تسطير وصياغة البحث -الذي أسأل الله تعالى أن ينفع به- المنهج

العلمي التالي:

● سلكت أسلوب ومنهجية التفسير الموضوعي بنوعه المشهور «تتبع المعنى المذكور في الآيات ودراستها وتفسيرها، مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع».

● فسرت الآيات بطريق الحديث عن ركائز السور وموضوعاتها الأساسية.

● اتبعت أسلوب المقالة في صياغة البحث «لأنه ذو طابع وعظي تذكيري»، مع المحافظة على نصوص الأئمة المنقولة، وذلك قدر جهدي.

● التزمت ما ذكره العلماء المشتهرون في الفن في معنى الآيات على الوجه الأرجح، معرضاً عن ذكر الخلاف في ذلك - ما أمكن - بناء على منهجية هذا النوع من التفسير.

● ما صغته في معاني الآيات والاستشهاد بها فهو ممّا فهمته من جرد كتب التفسير عامة، وعلى الأخص الكتب التالية:

١. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي رحمه الله ط. دار الكتاب العربي لبنان.
٢. تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير رحمه الله ط. دار طيبة، تحقيق سامي سلامه.
٣. تيسير الكريم الرحمن للإمام ابن سعدي رحمه الله ط. الرسالة، عناية د. اللويحق ١٤٢٠هـ.

- كل آية ذكرتها أو استشهدت بها فعلى المعنى الذي ذكره المشار إليهم، بإجمال مني وصياغة تقتضيها منهجية المقالة العلمية الموضوعية.
- قدمت بمقدمة عن متعلقات موضوع السورة، حاولت أن أبين فيها ملامح السورة الرئيسة، وربطها بحيث تكون موضوعاً واحداً، ونزولها وفضلها ومناسبتها لما قبلها وبعدها، دون ذكر الخلاف والروايات، قدر الجهد والاستطاعة.
- تناولت الموضوعات المذكورة في السورة، مع التقيد بالانطلاق مما ذكره أهل التفسير ورجعت إلى مراجع أخرى تخدم الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات.
- حاولت أن تكون خطوات وخطة البحث موافقة لما اتفق عليه أهل فن «التفسير الموضوعي للقرآن الكريم»، وفقاً لما قيده د. زاهر عواض الألمعي في (دراسات في التفسير الموضوعي) ود. مصطفى مسلم في (مباحث في التفسير الموضوعي)، واستلهاماً مما سلكه الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي في كتابه: (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) و(فتح الرحيم الملك العلام)، وإني لأرجو أن أكون وفققت لذلك.
- أدخلت سورة الفاتحة في هذا المشروع ووضعتها في بدايته لأهميتها من الناحية الإيمانية والسلوكية والأخلاقية والمنهجية.
- حاولت ربط الواقع الدعوي الأول بالواقع الدعوي الحاضر. مع التركيز في المعنى على الفوائد العملية، وحرصت على عدم إيراد معلومة لا يبني عليها فائدة عملية.

- ربطت جوانب السورة ببعضها لكي تخرج كموضوع واحد.
- حرصت على اعتماد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وفي أسباب النزول، قدر الإمكان.
- التزمت الاستشهاد في السنة بالأحاديث الصحيحة فقط، ولم أستشهد بالحديث الضعيف إلا في الضرورة وهذا نادر جداً. واعتمدت على حكم الشيخ الألباني رحمته الله، وعلماء الحديث، وما لم أصل إلى الحكم عليها- وهو قليل جداً - اكتفيت بذكر مصدرها فقط.
- أدرجت في عنوان النزول كل ما يتعلق به؛ من المكي والمدني، وسبب النزول إن وجد، وعدّ آياتها وكلماتها وحروفها. ثم أتبعته بمناسبة السورة لما قبلها على سبيل الإجمال والإيجاز، مع تسهيل الفكرة والعبارة.
- قدمت لهذا البحث بتمهيد ضمنته مسألتين: فضل قراءة وتعلّم المفصل، وأوجه التناسب بين قصار السور، تهيئة للدخول في الموضوع.
- والله الموفقُّ والهادي إلى سواء السبيل، وهو وحده القادرُ على أن يَهَبَنَا عزيمة الرُّشد، والثبات في الأمر، وأن يرزقنا الإخلاصَ لوجهه الكريم، والصواب في صالح القول والعمل، وأن يكتبَ له القبول، وأن يذخرَ به الأجر والثواب.
- أسأل الله سبحانه أن ينفع بهذا العمل. وأن يجعله حجة لنا لا علينا. وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح. وأن يجبر تقصيري في هذا البحث. وأن يغفر ما كان فيه من خطأ وزلل. وأن يبارك في الطيب منه.
- وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



تمهيد في مقدمات عن المفصل

أولاً: فضل قراءة وتعلُّم المفصل:

(١) تقسيم سور القرآن:

تنقسم سور القرآن إلى أقسام، فعن وائلة بن الأسقع الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصل»^(١) ويقصد بالسبع: السور السبع الطوال من البقرة حتى الأنفال والتوبة. والمئين: هي السور التي يكون عدد آياتها مائة آية فأكثر وهي من يونس إلى نهاية السجدة. والمثاني: وهي التي أقل من مائة آية وهي من الأحزاب حتى نهاية الحجرات. والمفصل: ما ولي المثاني من قصار السور، سُمِّيَ بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة وقصر سوره^(٢) وهي من ق إلى الناس. وقيل: لقلة المنسوخ منه. ولهذا يسمى بالمحكم أيضاً، روى البخاري عن سعيد بن جبیر قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المُحَكَّم^(٣).

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/١٠٧ (١٧٠٢٣)، والطيالسي ١/١٣٦ (١٠١٢)، والطبراني في الكبير ٨/٢٥٨ (٨٠٠٣) و٢٢/٧٦ (١٨٦)، وفي الشاميين ٤/٦٢ (٢٧٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/٤٦٥، والمنذري في الترغيب والترهيب وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٥٧) وصححه بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (١٤٨٠) وصحيح الجامع (١٠٥٩).

(٢) فتاوى نور على الدرب - ابن عثيمين - ١٩/١١٥.

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب صبيان القرآن رقم (٥٠٣٥).

وقال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة^(١).

وآخره سورة الناس بلا نزاع. «واختلف في أوله فقيل: ق، وقيل: الحجرات، وقيل: الضحى، ووجهه بأن القارئ يفصل بين السور بالتكبير. وقيل غير ذلك. وللمفصل طَوَالٌ وَأَوْسَاطٌ وَقِصَارٌ: فَطَوَّالُهُ إِلَى عَمٍّ، وَأَوْسَاطُهُ مِنْهَا إِلَى الضَّحَى، وَمِنْهَا إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ قِصَارَهُ، وَهَذَا أَقْرَبُ مَا قِيلَ فِيهِ»^(٢).

٢) البَدْءُ بِالْمَفْصَلِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِفْظِ:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يقرئون الناس^(٣))، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم قدم النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جعل الإمام يقلن: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما قدم حتى قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] في سُورَةِ الْمَفْصَلِ^(٤). وعن عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه أنه: كان يأمر بنيه بتعليم المفصل^(٥).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٥٠ (٢٣٧١)، والثعلبي في الكشف والبيان ١/ ٩١.

(٢) انظر: الإتيقان ١/ ١٧٩-١٨١. مختصراً.

(٣) وكانوا يقرئون الناس: هكذا وردت. ووجهها ابن حجر على أن أقل الجمع اثنان، وإما على أن من كان يقرأ بأنه كان يقرأ معهما أيضاً. وفي رواية الأصيلي وكريمة «فكانا يقرئان الناس» قال ابن حجر: وهو أوجه. انظر: فتح الباري ٧/ ٣٠٦.

(٤) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة (٣٧١٠) وانظر: (٤٦٥٧، ٤٧٠٩).

(٥) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب ١/ ١٤ (١٧).

قال ابن عباس رضي الله عنه: «توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم». وعنه: «جمعت المحكم في عهد النبي ﷺ، ف قيل له: ما المحكم؟ قال: المفصل»^(١)، قال ابن كثير: «فيه دلالة على جواز تعليم الصبيان القرآن لأن ابن عباس أخبر عن سنّه حيث موت النبي ﷺ، وقد كان جمع المفصل وهو من الحجرات، وعمره إذ ذاك عشر سنين»^(٢). فهذا ابن عباس رضي الله عنه يفاخر أنه قرأ المفصل على عهد رسول الله ﷺ، وهو طفل صغير. «لقد كان السلف الصالح لهذه الأمة من أشد الناس حرصًا على الاهتمام بكتاب الله تلاوة وتعليمًا بعد سماعهم الأحاديث الدالة على الترغيب في تعلمه واستظهاره من نحو قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٣)، فلا يُقَدِّمُون على تعلمه شيئًا من العلوم، فما أن يعقل الطفل حتى يبدأ في تعليمه حروف [أبي جاد]^(٤) ثم قصار السور من المفصل^(٥)، ويلقن ذلك تلقينًا

(١) فتح الباري ٨٣/٩.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ٢٢٥، وفتح الباري: ٨٣/٩.

(٣) أخرجه البخاري فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧).

(٤) الترتيب الأبجدي. تُرتَّب حروف الكلام العربي ترتيبًا أبجديًا، وبهذا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب، والمشتهر حاليًا للتعلم والتعليم الترتيب الألفبائي: وهو ترتيب مبني على المشابهة بين الحروف في الشكل، والرسم، والتقابل بين الإعجام والنقط، والصوتي بحسب مخارجها. وانظر: الموسوعة العربية العالمية ٢/١.

(٥) بين الإمام البقاعي وجه تسمية هذا الحزب من القرآن الكريم بالمفصل وما قبله بالمثاني بأن ذلك من وجهين:

«الأول: أن المفصل أول لقب جامع للسور باعتبار القراءة. وفوقه المثاني، ثم المئون، ثم الطول. فالمثاني: ثانية له حقيقة وما هي ثانية للمئين، إلا أننا ألفينا البداية بالطول من الطرف الآخر.

الثاني: أنها لما زادت على المفصل كانت قسمة السورة منها في ركعتين من الصلاة كقراءة سورتين من المفصل، فكانت مثاني، لتثبتها في مجموع الصلاة باعتبار قراءة بعضها في كل من الركعتين». نظم الدرر

خمس آيات أو عشر آيات حتى يتم حفظ كتاب الله أو ما تيسر منه بحسب همته وسعة حفظه وإدراكه. «أ.ه»^(١).

٣) كثرة قراءة النبي ﷺ لها في الصلاة الجهرية:

عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله ﷺ من فلان^(٢) قال سليمان: كان يطيل الركعتين من الظهر ويخفف الآخرين ويخفف العصر ويقرأ في المغرب بقصار المفصل ويقرأ في العشاء بوسط المفصل ويقرأ في الصبح بطوال المفصل^(٣).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: رَمَقْتُ رسول الله ﷺ عشرين مرة يقرأ بعد المغرب وفي الركعتين قبل الفجر ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٤).

(١) انظر ندوة: إجازات قراءة القرآن الكريم - الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه - بتاريخ ٢٢/١٠/١٤٢٤ هـ كلية أصول الدين - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(٢) كان عمر بن عبدالعزيز أشبه الناس في زمانه صلاة برسول الله ﷺ كما نص عليه في رواية الضياء في الأحاديث المختارة (٢١٤١) وحسن محققه إسنادها.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى باب طول القراءة وقصرها (٣٨١٨-٣٨١٩). وفي الصغرى كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب (٩٨٣) وصححه النووي في المجموع ٣/٣٨٣، وابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ١/٣٢٠ وقال: إسناده على شرط مسلم، وصححه ابن عبد الهادي في المحرر ١١٣، والألباني في صحيح النسائي ٩٨٣.

(٤) أخرجه النسائي كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب (٩٩٢)، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في تخفيف ركعتي الفجر (٤١٧) وقال حديث حسن، وأحمد ٢/٢٤ (٤٧٦٣) و٢/٥٨ (٥٢١٥)، وأبو داود الطيالسي (٢٠٠٥) ومن طريقه البيهقي ٣/٤٣، وابن أبي شيبه في المصنف ٢/٥٠، ومن طريقه مسلم في التمييز ٢٠٧، والطبراني في الكبير (١٣٥٢٨)، ومن طريقه ابن المنذر في الأوسط ٥/٢٢٦، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/٤١. والخلال في فضائل سورة الإخلاص (٢٠) وانظر: ابن حجر في نتائج الأفكار ١/٤٩٨ وقال: «هذا حديث حسن... ورجاله رجال الصحيح»، وإتحاف الخيرة المهرة للبوصيري (٢٣٠٠).

وأخرج مالك في الموطأ عن الصنابحي قال: قدمت المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب فقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة سورة من قصار المفصل...»^(١).

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يقرأ في صلاة المغرب بقصار المفصل^(٢).

قال الترمذي: «وعلى هذا العمل عند أهل العلم. وبه يقول: ابن المبارك وأحمد وإسحق.

﴿وذكر عن مالك أنه كره أن يقرأ في صلاة المغرب بالسور الطوال، نحو: الطور والمرسلات. قال الشافعي: لا أكره ذلك، بل أستحب أن يقرأ بهذه السور في صلاة المغرب﴾^(٣).

قال الطحاوي: «ثبت بما ذكرنا أن ما ينبغي أن يقرأ به في صلاة المغرب هو قصار المفصل، وهذا قول أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، رحمهم الله تعالى»^(٤).

قال الحافظ ابن رجب: «وهذا يُشعر بحكاية الإجماع عليه»^(٥).

﴿وكذا في صلاة العصر، قال الترمذي: «ورأى بعض أهل العلم أن القراءة في صلاة العصر كنحو القراءة في صلاة المغرب يقرأ بقصار المفصل، وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: تعدل صلاة العصر بصلاة المغرب في القراءة»^(٦).

(١) أخرجه مالك في الموطأ ١/٧٨.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢/١٠٤ (٢٦٧٢) وعبدالرزاق ٢/١٠٤ (٢٦٧٢)، والترمذي تعليقا،

كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب ١/٤٠١-٤٠٣.

(٣) أخرجه الترمذي ٢/١١٢ عند حديث (٣٠٨).

(٤) شرح معاني الآثار ١/٢١٤ بعد الأثر (١٢٨٠).

(٥) فتح الباري لابن رجب ٤/٤٣١.

(٦) أخرجه الترمذي ٢/١١٠ عند حديث (٣٠٧).

وكان ﷺ يقرأ بركعتي الوتر قبل الأخيرة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا
الْكَافِرُونَ﴾ وفي الركعة الأخيرة من الوتر بسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ
الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وبذلك عمل الشافعي ومالك وأحمد فاستحبا قراءة
قل هو الله أحد في الركعة الأخيرة من الوتر وحدها.

◉ ومعرفة المفصل مهمة حتى نقتدى في صلاتنا برسولنا الحبيب ﷺ -بأبي هو
وأمي وروحي- ولذلك ينبغي على الإنسان وخصوصاً الأئمة أن يعرفوا هذا الأمر
حتى يقرأوا في صلاتهم بما كان النبي ﷺ يقرأ في صلاته الجهرية والسرية.

ومهمة من جهة التدبر والتكرار والتجديد في قراءتها كما كان النبي ﷺ وسلفنا
الصالح يفعلون، فيخالفون ذلك أحياناً، قال ابن القيم: «المحافظة فيها على الآية
القصيرة والسورة من قصار المفصل خلاف السنة»^(١).

«وإنما اختير المفصل، ليكون ذلك أسهل في حفظه على المأمومين، لأنه إذا
تكرر عليهم المفصل حفظوه...الأفضل المحافظة على المفصل»^(٢). «ومن الحكمة
في الاستمرار بقراءة المفصل: أن المأمومين كلما تكررت عليهم السور حفظوها وسهل
عليهم قراءتها».. و«إذا قرأ - الإمام - من السور القصيرة عرف - المأموم - المبتدئ
والمُتَّهَى فاطمأن»^(٣) أي: في صلاته، وانصرف ذهنه للقرآن وتدبره.

٤) التقسيم للتسهيل والتنويع:

«قال بعض السلف: في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيح

(١) زاد المعاد ١/٢٠٣.

(٢) الشرح الممتع ١/١٨ وذكر في الحاشية عن الشيخ في الدرر التالي قوله: بأن ذلك «على سبيل
الاستحباب».

(٣) فتاوى نور على الدرب، ابن عثيمين ١٩/١١٥.

ورياض، فميادينه ما افتتح ب ﴿الرَّ﴾^(١)، وبساتينه ما افتتح ب ﴿الر﴾^(٢)، ومقاصيره الحامدات^(٣)، وعرائسه المسبحات^(٤)، وديابيجه آل حم^(٥)، ورياضه المفصل^(٦). فإذا دخل القارئ الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديابيج، وتنزه في الرياض؛ استغرقه ذلك، وشغله عما سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرق فكره^(٧).

٥) الحكمة من التدرج:

﴿وقد تضمن المفصل الحكمة من التدرج في التشريع قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «... إنما نزل أول ما نزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»^(٨).

﴿وقد بين ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث الحكمة من هذا التدرج فقال: «أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر

(١) وهي ثمان سور المفتحة ب(الر) أو (المص) أو (المر). وهي البقرة، وآل عمران، والأعراف، والرعد، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

(٢) وهي خمس سور: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

(٣) وهي أربع سور المفتحة بالحمد: الفاتحة، والكهف، وسبأ، وفاطر.

(٤) وهي سبع سور: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

(٥) وهي سبع سور: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

(٦) جمال القراء ١ / ٣٥.

(٧) وانظر: إحياء علوم الدين ١ / ٢٨٢، والبرهان في علوم القرآن ١ / ٤٥٤، وقوت القلوب ١ / ٨٦.

(٨) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (٤٧٠٧).

لقالوا لا ندعها» وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف^(١).

١) صفة قراءته للمفصل في الصلاة:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة. فقال: «هَذَا كَهَذَا الشَّعْرُ؟! إِنْ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ! وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفْعٌ»^(٢).

قال النووي: «لا بأس بالجمع بين سورتين في ركعة واحدة فقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة»^(٣).

عن أبي وائل قال: غدونا على عبد الله بن مسعود فقال رجل: قرأت المفصل البارحة. فقال: «هَذَا كَهَذَا الشَّعْرُ!! إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا الْقِرَاءَةَ وَإِنِّي لِأَحْفَظُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُ بِهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم»: ثماني عشرة سورة من المفصل وسورتين من آل حم»^(٤).

ثانياً: أوجه التناسب بين قصار السور عموماً

قال ابن تيمية رحمة الله عليه: «فصل: السور القصار في أواخر المصحف متناسبة». سورة ﴿أَقْرَأَ﴾ هي أول ما نزل من القرآن، ولهذا افتتحت بالأمر بالقراءة، وختمت بالأمر بالسجود، ووسطت بالصلاة التي أفضل أقوالها وأولها بعد التحريم

(١) فتح الباري ٤٨/١٠.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن... وإباحة سورتين فأكثر في كل ركعة (٨٢٢)، والبخاري كتاب صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة (٧٧٥).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن ٥٨.

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب وما يكره أن يهذى كهد الشعر (٤٧٥٦). ومسلم كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن... وإباحة سورتين فأكثر في ركعة (٧٢٢) من حديث طويل. والقرناء: السور التي كان يقرنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعضها في قراءته.

هو القراءة، وأفضل أفعالها وآخرها قبل التحليل هو السجود. ولهذا لما أمر بأن يقرأ. وأنزل عليه بعدها المدثر لأجل التبليغ ف قيل له ﴿فَرَقَّ أَنْذِرَ﴾ فبالأولى صار نبيا. وبالثانية صار رسولا. ولهذا خوطب بالمتدثر - وهو المتدفئ من برد الرعب، والفرع الحاصل بعظمة ما دهمه - لما رجع إلى خديجة ترجف بوادره، وقال: دثروني دثروني (١). فكأنه نُهي عن الإستدفاء، وأمر بالقيام للإندار. كما خوطب في المزمّل وهو المتلفف للنوم لما أمر بالقيام إلى الصلاة.

فلما أمر في هذه السورة بالقراءة ذكر في التي تليها نزول القرآن ليلة القدر، وذكر فيها تنزل الملائكة والروح، وفي المعارج: عروج الملائكة والروح، وفي النبأ قيام الملائكة والروح، فذكر الصعود والنزول والقيام.

ثم في التي تليها تلاوته على المنذرين حيث قال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ فيها كتب قيامة ﴿ فهذه السور الثلاث منتظمة للقرآن أمرا به وذكر النزوله وتلاوة الرسول له على المنذرين.

ثم سورة الزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر؛ متضمنة لذكر اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب، وكل واحد من القرآن واليوم الآخر قيل: هو ﴿النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾.

ثم سورة العصر والهمزة والفيل و﴿لَيْلِيف﴾ و﴿أَرْءَيْت﴾ والكوثر والكافرون والنصر و﴿تَبَّت﴾ متضمنة لذكر الأعمال، حسننها وسيئها، وإن كان لكل سورة خاصة.

وَأما سورة الإخلاص والمعوذتان؛ ففي الإخلاص: الثناء على الله، وفي

(١) يشير إلى حديث بدء الوحي وسيأتي في تفسير سورة العلق، أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

المعوذتين: دعاء العبد ربه ليعيذه. والثناء مقرون بالدعاء كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الرب والعبد نصفها ثناء للرب ونصفها دعاء للعبد^(١). والمناسبة في ذلك ظاهرة؛ فإن أول الإيمان بالرسول: الإيمان بما جاء به من الرسالة، وهو القرآن، ثم الإيمان بمقصود ذلك وغايته وهو ما ينتهي الأمر إليه من النعيم والعذاب، وهو الجزاء، ثم معرفة طريق المقصود وسببه، وهو الأعمال؛ خيرها ليفعل، وشرها ليترك.

❖ ثم ختم المصحف بحقيقة الإيمان، وهو ذكر الله ودعاؤه، كما بنيت عليه أم القرآن، فإن حقيقة الإنسان المعنوية: هو المنطق. والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجه ما كان خبراً عن الله كنصف الفاتحة وسورة الإخلاص، وأفضل الإنشاء -الذي هو الطلب- وأنفعه وأوجه ما كان طلباً من الله كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين» أ.هـ^(٢).

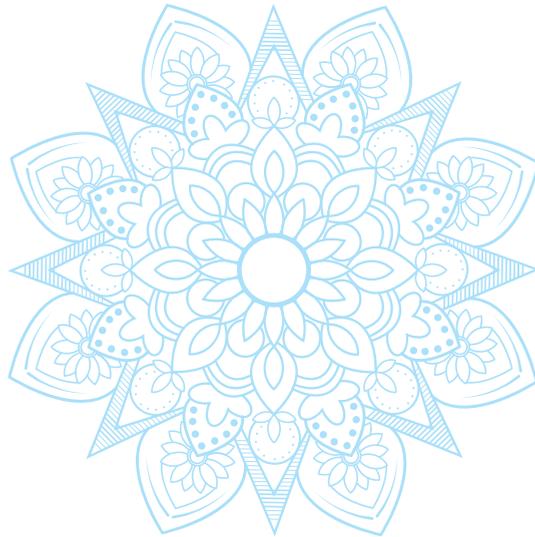


(١) يشير إلى حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سألت» أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى ١٦/٤٧٧.

القسم الأول

تفسير سورة الفاتحة



القسم الأول تفسير سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكٍ يَوْمَ
الْدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾.

المبحث الأول^(١)

مقدمة حول السورة

المطلب الأول: تسميتها:

سورة الفاتحة من السور ذوات الأسماء الكثيرة: حتى أوصلها السيوطي في الإتيان إلى خمسة وعشرين اسماً؛ «وذلك يدل على شرفها فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى»^(٢).

«والظاهر أن هذه الأسماء واقعة بين كونها: ألقاباً، وصفاتٍ، وأسماءاً جرت على ألسنة القراء من عهد السلف. ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا:

(١) ملاحظة: كتبت البحث عام ١٤٢٨ هـ قبل أن أطلع على رسالة جديرة بالقراءة بعنوان: (سورة الفاتحة، دراسة موضوعية) إعداد الطالب: بسام رضوان شحادة عليان، وإشراف د. عبدالسلام حمدان عودة اللوح، قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تفسير القرآن وعلومه، من كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة للعام الجامعي ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.

(٢) انظر: الإتيان ١/ ١٨٧.

فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو: أم الكتاب»^(١)، بل وسماها النبي ﷺ:
الصلاة... وهي كالتالي:

﴿أولاً: فاتحة الكتاب﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني»^(٢). «وسميت بذلك لأنه يفتح بها في المصاحف وفي التعليم وفي الصلاة، وقيل: لأن الحمد فاتحة كل كلام وفاتحة كل كتاب»^(٣).

﴿ثانياً: أم الكتاب﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»
[الفاتحة: ٢]، أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني»^(٤).

﴿ثالثاً: أم القرآن﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي: السبع المثاني، والقرآن العظيم»^(٥)، «وسميت بذلك لتقدمها وتأخر ما سواها تبعاً لها. وقيل: أم الشيء: أصله، وهي: أصل القرآن؛ لانطوائها على جميع أغراض القرآن وما فيه من العلوم والحكم»^(٦).

(١) التحرير والتنوير ٧٤ / ١ باختصار.

(٢) أخرجه البيهقي ٣٧٦ / ٢ (٣٧٧١). والطبراني في الأوسط ٢٠٨ / ٥ (٥١٠٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠٩ / ٢ رجاله ثقات. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨١).

(٣) انظر: الإقتان ١ / ١٨٨ مختصراً.

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الوتر باب فاتحة الكتاب (١٤٥٩) واللفظ له، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الحجر (٣١٢٤)، وأحمد في المسند ٤٤٨ / ٢ (٩٧٨٩) تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير إسماعيل بن عمر فمن رجال مسلم.

(٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٤٧٠٣).

(٦) انظر: الإقتان ١ / ١٨٨.

رابعاً: السبع المثاني:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر]. وردت تسميتها بذلك في الحديث المذكور وأحاديث كثيرة. «أما تسميتها سبعا فلأنها سبع آيات.

وأما المثاني: فيحتمل أن يكون مشتقا من الثناء لما فيها من الثناء على الله تعالى، ويحتمل أن يكون من الثنينا لأن الله استثنى هذه الأمة، ويحتمل أن يكون من التثنية؛ قيل: لأنها تثنى في كل ركعة، وقيل: لأنها تثنى بسورة أخرى، وقيل: لأنها نزلت مرتين، وقيل: لأنها على قسمين؛ ثناء ودعاء، وقيل: لأنها كلما قرأ العبد منها آية ثنأه الله بالإخبار عن فعله كما في الحديث، وقيل: لأنها اجتمع فيها فصاحة المباني وبلاغة المعاني، وقيل: غير ذلك»^(١).

خامساً: الصلاة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾. قال: مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل...»^(٢).

أما الأسماء الأخرى التي ذكرها السيوطي فهي: «فاتحة القرآن، والقرآن العظيم، والوافية، والكنز، والكافية، والأساس، والنور، وسورة الحمد، وسورة الشكر، وسورة الحمد الأولى، وسورة الحمد القصوى، والرقية، والشفاء، والشفافية، وسورة

(١) انظر: الإتيان ١/ ١٨٧ - ١٨٩ باختصار.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

الصلاة، وسورة الدعاء، وسورة السؤال، وسورة التعليم، وسورة المناجاة، وسورة التفويض»^(١). وهذه أوصافٌ على قول أكثر العلماء.

المطلب الثاني: نزولها وعدّها ومناسبتها:

أولاً: نزولها:

قال ابن كثير: «هي مكية، قاله: ابن عباس وقتادة وأبو العالية. وقيل: مدنية، قاله: أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر]»^(٢).

ورجح السيوطي كونها مكية فقال: «الأكثرون على أنها مكية لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، وقد فسرت بالفاتحة، وسورة الحجر: مكية باتفاق. وقد امتن على رسوله فيها بها، فدل على تقدم نزول الفاتحة عليها، إذ: يَبْعُدُ أن يمتن عليه بما لم ينزل بعد، وبأنه لا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، ولم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة»^(٣).

ولم يذكر العلماء في أسباب النزول سببا معينا في نزول الفاتحة.

ثانياً: آياتها وكلماتها وحروفها:

«وهي سبع آيات، وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة وعشرون حرفاً»^(٤).

(١) انظر: الإتيان ١/ ١٨٧-١٨٩ باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٠١.

(٣) انظر: الإتيان ١/ ٤٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٠١-١٠٢.

«الآية الأولى في الفاتحة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وابتداء الآية الأخيرة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ومن لم يعدد البسملة من الفاتحة قال ابتداءها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وابتداء الآية الأخيرة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١).

◉ ثالثاً: مناسبتها:

هذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن - كما علمت آنفاً - وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال. وهذه السورة مكية باتفاق الجمهور، نزلت بعد نزول: «اقرأ» وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقيل نزل قبلها «القلم» وسورة المزمل. وقد عدت في رواية عن جابر بن زيد السورة الخامسة في ترتيب نزول السور. وأياً ما كان فإنها قد سماها النبي ﷺ فاتحة الكتاب.

مناسبة سورة الفاتحة للبقرة: قال أبو جعفر إبراهيم بن الزبير: «لما قال العبد بتوفيق ربه ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) قيل له: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: آية ٢] هو مطلوبك وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) القائلين اهدنا الصراط المستقيم، والخائفين من حال الفريقين المغضوب عليهم ولا الضالين». وبهذا الذي ذكره تبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد^(٢).

مناسبة سورة الفاتحة لآخر المصحف: قال ابن تيمية ﷺ: «ختم المصحف بحقيقة الإيمان، وهو ذكر الله ودعاؤه، كما بُنيت عليه أم القرآن، فإن حقيقة الإنسان المعنوية: هو المنطق.

◉ **والمنطق قسمان:** خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبراً عن

(١) معالم التنزيل للبغوي ١/ ٥١.

(٢) البرهان في تفسير سور القرآن، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ص ١٩٠.

الله كنصف الفاتحة وسورة الإخلاص، وأفضل الإنشاء -الذي هو الطلب- وأنفعه وأوجه ما كان طلبا من الله كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين» أ.هـ (١).

المطلب الثالث: فضلها:

(١) امتنَّ اللهُ على نبيه ﷺ بنزولها عليه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وقد فسرت السبع المثاني وأم الكتاب على أنها أسماء وأوصاف لفاتحة الكتاب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]: أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني» (٢). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «السبع المثاني: هي فاتحة الكتاب. والقرآن العظيم: هو سائر القرآن» (٣).

(٢) سورة الفاتحة أعظم سور القرآن:

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه، قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي. قال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟». فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت: «ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن». قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» (٤).

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ٤٧٧.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٤/ ٥٥، وابن الضريس في فضائل القرآن (١٥٠) أوله، وزاد آخره التعليبي ٥/ ٣٤٨ عن الحسن عنه، والبعوي في معالم التنزيل ٤/ ٣٩٠، والسيوطي ونسبه لابن جرير وابن الصَّريِّس ولابن المنذر وابن مردويه. انظر: الدر المنثور: ٥/ ٩٤.

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب فاتحة الكتاب (٥٠٠٦).

٣) سورة الفاتحة لم ينزل مثلها:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنما سبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته»^(١).

فسورة الفاتحة نور أنزله الله على نبيه خاصة: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينا جبريل قاعد مع النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم. فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»^(٢).

٤) سورة الفاتحة أفضل سور القرآن:

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في مسير له فنزل، ونزل رجل إلى جانبه فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن؟» قال: فتلا عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

﴿سورة الفاتحة خير سور القرآن: عن عبدالله بن جابر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد علي، فانطلق رسول الله ﷺ يمشي وأنا خلفه حتى دخل على رحله، ودخلت أنا

(١) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل الفاتحة (٢٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ومسند أحمد ٤/١٤٨ (١٧٤٨٨) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة.. (٨٠٦).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٣/٥١ (٧٧٤) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، والحاكم ١/٧٤٧ (٢٠٥٦) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في شعب الإيمان ٢/٤٤٤ (٢٣٥٨).

المسجد كئيباً حزيناً، فخرج عليّ رسول الله ﷺ قد تطهّر فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، ثم قال: ألا أخبرك يا عبدالله بن جابر بخير سورة في القرآن الكريم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: اقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى تختتمها»^(١).

٥) سورة الفاتحة مقسومة بين الله وعباده:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج - ثلاثا - غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾. قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾. قال: مجدني عبدي. - وقال مرة: فوض إليّ عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل. فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾. قال: هذا لعبي ولعبي ما سأل»^(٢).

٦) شمولية السورة ونفعها العظيم:

قال الحافظ ابن حجر: «سميت أم القرآن؛ لاشتمالها على المعاني التي في القرآن، من الثناء على الله تعالى، والتعبد بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والأفعال واشتمالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش»^(٣).

(١) مسند أحمد ٤/١٧٧ (١٧٦٣٣) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن في المتابعات والشواهد.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٣) فتح الباري ١٢/٢٨٤.

قال الإمام ابن القيم: «إذا ثبت أن لبعض الكلام خواصَّ ومنافع فما الظن بكلام رب العالمين، ثم بالفاتحة التي لم ينزل في القرآن ولا في غيره من الكتب مثلها لتضمنها جميع معاني الكتاب، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله ومجامعها، وإثبات المعاد وذكر التوحيد والافتقار إلى الرب في طلب الإعانة به والهداية منه، وذكر أفضل الدعاء وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه والاستقامة عليه، ولتضمنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى: منعم عليه؛ لمعرفته بالحق والعمل به. ومغضوب عليه؛ لعدوله عن الحق بعد معرفته. وضال؛ لعدم معرفته له. مع ما تضمنته من إثبات: القدر، والشرع، والمعاد، والتوبة، وتركية النفس، وإصلاح القلب، والرد على جميع أهل البدع. وحقيقٌ بسورة - هذا بعض شأنها- أن يستشفى بها من كل داء. والله أعلم»^(١).

تضمنت هذه السورة أصول العقيدة الإسلامية، وكليات الشريعة الإسلامية، وتوجيه المشاعر والأخلاق، ولعل هذا يشير إلى طرفٍ من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها.

٧) لا تقوم صلاة بغير هذه السورة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج هي خداج غير تمام»^(٣).

قال النووي: «والذي عليه جمهور المسلمين القراءة خلف الإمام في السرية

(١) زاد المعاد ٤/ ١٦٢ باختصار.

(٢) أخرجه البخاري أبواب الصلاة باب وجوب القراءة (٧٥٦)، ومسلم في كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٣) تقدم تخريجه.

والجهرية، قال البيهقي: وهو أصح الأقوال على السنة وأحوطها^(١). وما كان النبي ﷺ يتركها في الصلاة السرية أو الجهرية، وقد قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢).

٨) التأمين بعد الفاتحة سبب لغفرة الذنوب:

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

المطلب الرابع: تعدد مواضع قراءتها:

أولاً: في الصلوات:

قراءة الفاتحة واجبة على الإمام لجماعة أو منفرداً، وعلى المأموم واجبة في حال الصلوات السرية، أما في حال الجهر تكون قراءة الفاتحة إذا سكت الإمام، فإذا لم يسكت الإمام وواصل القراءة:

أ - فإن المأموم ينصت لقراءة إمامه، وتسقط عنه الفاتحة حينئذ في مذهب طائفة من أهل العلم.

ب - وذهبت طائفة أخرى من أهل العلم إلى أن المأموم إذا لم يتمكن من قراءة الفاتحة أثناء سكتات إمامه، أو كان الإمام لا يسكت أصلاً، فإنه يقرأ بها في نفسه سرّاً أثناء قراءة الإمام للسورة، وأنها لا تسقط عنه بحال^(٤).

(١) المجموع ٣/ ٣٦٥.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم (٦٠٠٨).

(٣) أخرجه البخاري كتاب صفة الصلاة باب جهر الإمام بالتأمين (٧٨٠)، ومسلم في كتاب الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠).

(٤) اختلف العلماء في المسألة على أقوال ولهم في ذلك أدلة ومناقشات، وسبب الخلاف أن الأحاديث جاءت بالتأكيد على قراءتها، وجاءت الآية والأحاديث بالأمر بالإنصات لقراءة الإمام، فوقع الخلاف. وكتفني هنا بذكر القول الراجح، وانظر المسألة في: بداية المبتدي ١/ ١٥، بدائع الصنائع ٢/ ١٣٧، =

و«الصحيح من أقوال العلماء وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة على المنفرد والإمام والمأموم في الصلاة الجهرية والسرية لصحة الأدلة الدالة على ذلك وخصوصها. وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف] فعام، وكذلك قول النبي ﷺ: «وإذا قرأ فأنصتوا»^(١) عام في الفاتحة وغيرها. فيخصصان بحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٢) جمعا بين الأدلة الثابتة، وأما حديث: «من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة»^(٣) فضعيف ولا يصح ما يقال من أن تأمين المأمومين على قراءة الإمام الفاتحة يقوم مقام قراءتهم الفاتحة. وبالله التوفيق»^(٤).

◉ فالمسلم يردد هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع، سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن؛ وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلاً، غير الفرائض والسنن. وهذا يشير إلى أهميتها وأثرها في النفس ووجوب الالتزام بمدلولاتها وتوجيهاتها.

«فعلى الإنسان أن يكون صائب الفكر صادق النظر، فإذا اهتدى إلى الحق فعليه

= والمجموع ٣/٣٩٢، والأم ١/١٠٧، والحاوي في فقه الشافعي ٢/١٠٣، والمغني ١/١٣٣٣، والقول الراجح مع الدليل ٢/٤٠، والخلاصة الفقهية على مذهب السادة المالكية ١/٦٨، كفاية الطالب ١/٣٢٨.

(١) أخرجه النسائي الافتتاح باب تأويل قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ (٩٢١)، وابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٦)، وأحمد بن حنبل في المسند (٢/٣٧٦)..
(٢) أخرجه البخاري أبواب الصلاة باب وجوب القراءة (٧٥٦)، ومسلم الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٤)، وغيرهما.

(٣) أخرجه ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٥٠)، مسند أحمد بن حنبل (٣/٣٣٩)..

(٤) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء - الفتوى رقم (٥٢٣٢) ٦/٣٨٤.

أن يعمل به ويتواضع لربه، ويفرق بعباده.. وهذه السورة فرض الله قراءتها في جميع الصلوات، لتكون مناجاةً متجددةً مقبولةً بين الناس ورب الناس، فهي حقائق علمية، وهى في الوقت نفسه: ضراعة عبد ينشد رضا مولاه، ونحن نكرر الدعاء لأنفسنا، كما نكرر غسل أعضائنا لأن أسباب هذا التكرار قائمة، فالجسم الإنساني لا يكفي في تطهيره أن يغسل مرة أو مرتين، لا بد من تكرار الغسل مدئ الحياة!! والطبع البشري لا تصقله دعوة أو دعوتان؛ لا بد من تكرار الوقوف بين يدي الله، لأن رعونات النفس ووساوس الشيطان لا تنتهي، فلا بد من تكرار الدعاء، واستدامة التضرع^(١).

◉ ثانيًا: في الرقية على المسوس:

عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه أنه أتى رسول الله ﷺ فأسلم، ثم أقبل راجعًا من عنده فمر على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: إنا حدثنا أن صاحبكم هذا قد جاء بخير، فهل عندكم شيء تدأونونه؟ فرقيته بفاتحة الكتاب فبرأ، فأعطوني مائة شاة، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «هل قلت إلا هذا؟» قلت: لا. قال: «خذها فلعمري لمن أكل برقية باطل، لقد أكلت برقية حق»^(٢).

◉ ثالثًا: في الرقية الشرعية على المريض:

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم! فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء؛ فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله

(١) نحو تفسير موضوعي ١/٥-٦ باختصار.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢١٠ (٢١٨٨٤) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده محتمل للتحسين، وأبو داود كتاب الإجارة باب كسب الأطباء (٣٤٢٠) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

إني لأرقي، ولكن والله لقد استصفناكم فلم تضيفونا! فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقراً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكانما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبه. قال: فأوفوهم جُعَلَهُم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقسموا. فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له فقال: «وما يدريك أنها رقية؟» ثم قال: «قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً» فضحك رسول الله ﷺ (١).

رابعاً: الفاتحة علاج لأمهات الأخلاق الذميمة:

«فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد شكر الله واكتفى بالحاصل فزالت شهوته، ومن عرف أنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ زال حرصه فيما لم يجد، وبخله فيما وجد، ومن عرف أنه: ﴿مَلَأَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بعد أن عرف إنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ زال غضبه، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ زال كبره، وإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ زال عجبُه، وإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اندفع عنه شيطان الهوى، وإذا قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ زال عنه كفره، وإذا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ اندفعت بدعته» (٢).

المطلب الخامس: المعنى الإجمالي وموضوع السورة:

أولاً: المعنى الإجمالي:

يقول الله تعالى مفتتحاً كتابه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي: أبتدى قراءة القرآن باسم الله مستعينا به.

(١) أخرجه البخاري كتاب الطب باب النفث في الرقية (٥٧٤٧)، ومسلم في كتاب السلام باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن (٢٢٠١).

(٢) غرائب القرآن ورجائب الفرقان ١/ ١١٥.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشاء على الله بصفاته وبنعمه فهو سبحانه المربي لجميع خلقه بنعمه.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ «الرَّحْمَنُ» الذي وسعت رحمته جميع الخلق، «الرَّحِيمُ»، بالمؤمنين، وهما اسمان من أسماء الله تعالى.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو سبحانه وحده مالك يوم القيامة، وهو يوم الجزاء على الأعمال.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: إنا نخصك وحدك بالعبادة، ونستعين بك وحدك في جميع أمورنا.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دُلْنَا، وأرشدنا، ووقفنا إلى الطريق المستقيم، وثبتنا عليه حتى نلناك، وهو الإسلام.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾ طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا تجعلنا ممن سلك طريق المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به. وهم اليهود، ومن كان على شاكلتهم. والضالين، وهم الذين لم يهتدوا، فضلوا الطريق؛ وهم النصارى، ومن اتبع سنتهم»^(١).

﴿ثانياً: موضوع السورة:﴾

سورة الفاتحة تضمنت موضوعات عدّة على وجه الإجمال، وهي:

- أصول أسماء الله ومجامعها.
- إثبات المعاد.

(١) انظر: التفسير الميسر ص ١.

- غرس التوحيد بأنواعه الثلاثة.
- التنبيه على افتقار العبد لله في طلب الإعانة به والهداية منه.
- ذكر أفضل الدعاء وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم.
- ذكر أصناف الخلائق، وقسمتهم إلى: منعم عليه لمعرفته بالحق والعمل به، ومغضوب عليه لعدوله عن الحق بعد معرفته، وضال لعدم معرفته له.



المبحث الثاني

البسمة أحكام وفوائد تربوية

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

المطلب الأول: مفهوم البسمة والتسمية:

«البسمة: قول العبد: بسم الله الرحمن الرحيم.

الاسم: لفظ جُعل علامة على مُسمَّى يعرف به ويتميز عن غيره.

الله: اسم عَلِمَ على ذات الرب ﷻ يُعرف به.

الرَّحْمَنُ: اسم من أسماء الله تعالى مشتق من الرحمة دال على كثرتها فيه تعالى.

الرَّحِيمُ: اسم وصفة لله تعالى مشتق من الرحمة ومعناه: ذو الرحمة بعباده، المفيضة عليهم في الدنيا والآخرة.

معنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: ابتدئ قراءتي متبركاً باسم الله الرحمن الرحيم مستعيناً به ﷻ»^(١).

«التسمية هي مصدر بمعنى الذكر ووضع الاسم للمسمى»^(٢)، «قال الليث:

التسمية ذكر الله تعالى على كل شيء»^(٣).

وسياتي الحديث عن صفتي الرحمن والرحيم.

(١) أيسر التفاسير ١/١٢.

(٢) كتاب الكلبيات ١/٤٦٥.

(٣) تهذيب الأسماء ١/١١٦٨.

المطلب الثاني: فضائل البسمة:

للبسمة فضائل عظيمة منها:

(١) البسمة أدب مع الله تعالى:

إنَّ البدء باسم الله هو أدبٌ مع الله تعالى، وقد أوحى الله لنبيه ﷺ في أول ما نزل من القرآن بذلك باتفاق، وهو قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

وهذا تقريرٌ لتوحيد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد]، فهو سبحانه الإله الحق الذي خلق كلَّ موجودٍ، وهو الذي بدأه وإليه ينتهي ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّاعِلِينَ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء] فباسمه يكون كل ابتداءٍ.

(٢) البسمة سنة الأنبياء:

بين لنا سبحانه أن البسمة أدب رباني موجود في شرائع الأنبياء والمرسلين ففي قصة نوح ﷺ يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ أَكْبُؤْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود].

وهذا نبي الله سليمان ﷺ يفتح كتابه إلى ملكة سبأ بالبسمة قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الْخَمْرُ الرَّحِيمِ﴾ [النمل].

(٣) البسمة سنة نبوية:

فقد علم النبي ﷺ أمته التسمية فكان يأمرهم في بداية كل أمر أن يقولوا بسم الله، في الوضوء ودخول المسجد، ودخول البيت والخروج منه، وفي بداية الطعام، وفي إتيان الرجل زوجته، وفي كل أحوالهم، «وكذلك وقوع كُتُبِ رسول الله ﷺ إلى الملوك، وكتبه في القضايا مفتوحة بالتسمية، كما في حديث أبي سفيان في قصة هرقل، وفي حديث البراء في قصة سهيل بن عمرو في صلح الحديبية، وغير ذلك من الأحاديث..»^(١).

(١) فتح الباري ٨/١.

٤) البسملة حصن منبع يحفظ من شياطين الجن والإنس:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَتَوَلَّوْا عَلَىٰ آدْبُرِهِمُ نُفُورًا﴾ [الإسراء].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال أدركتم العشاء»^(١).

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول بسم الله»^(٢).

٥) البسملة من الرقى الشرعية:

فقد ثبت في السنة الصحيحة أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه اشتكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجعا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(٣).

٦) البسملة سنة السلف في بداية مؤلفاتهم:

وقد ابتدأ البخاري رضي الله عنه كتابه الصحيح بالبسملة فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كَيْفَ كَانَ بَدْءَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وعلق ابن حجر على هذه البداية بقوله: «ويؤيده أن أول شيء نزل من القرآن ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فطريق التأسي به الافتتاح بالبسملة»^(٤).

(١) أخرجه مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠١٨).

(٢) أخرجه ابن ماجة كتاب الطهارة وسننها باب ما يقول الرجل إذا دخل بيت الخلاء (٢٩٧). والترمذي في كتاب أبواب السفر باب ما ذكر في التسمية عند دخول الخلاء (٦٠٦) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة.

(٣) أخرجه مسلم كتاب السلام باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء (٢٢٠٢).

(٤) انظر: فتح الباري ١/١ مختصرًا.

ومن فضائل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كذلك:

- ١- القيام بها امتثالاً لأمر الله تعالى وإتباعاً لسنة رسول الله ﷺ.
- ٢- أن الله ﷻ قد افتتح بها أفضل كتاب؛ ألا وهو القرآن الكريم.
- ٣- البسملة تربي على تفويض الأمر إلى الله تعالى على كل حال، وهي من كمال الإيمان بالله.
- ٤- البسملة مخالفه للمشركين الذين يستعينون بالهتهم ومعبوداتهم.
- ٥- البسملة من ذكر الله تعالى، ولا يخفي فضل الذكر وما أعده الله للذاكرين.

المطلب الثالث: أحكام البسملة:

المسألة الأولى: أحكام البسملة في الصلاة:

جمهور أهل العلم على وجوب قراءة البسملة في الصلاة في أول الفاتحة وهناك خلاف بين العلماء في الجهر أو الإسرار بها.

أما البسملة في بداية القراءة التي تلي الفاتحة في الصلاة فقالت اللجنة الدائمة للإفتاء: «إذا كان سيقراً سورة بعد الفاتحة: فيقرأ قبلها البسملة سراً، وإذا كان سيقراً ما تيسر من وسط السورة أو آخرها: فلا تشرع له قراءتها»^(١). وهذا طبعاً باستثناء سورة براءة فلا تشرع لها البسملة في أولها.

المسألة الثانية: أحكام البسملة في قراءة القرآن وكيفيتها^(٢):

أجمع القراء السبعة على الإتيان بالبسملة عند ابتداء القراءة بأول أي سورة من سور القرآن سوى سورة براءة؛ وذلك لكتابتها في المصحف، ولما ثبت من الأحاديث

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ٦/ ٣٨٠.

(٢) انظر: غاية المرید في علم التجويد ٤٥-٥٠ مختصراً.

الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يعلم انقضاء السورة حتى تنزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

وأما في أجزاء السور فالقارئ مُخَيَّر بين الإتيان بالبسملة أو عدمه، وأما بالنسبة لسورة براءة، فهي متروكة في أولها اتفاقاً.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «سألت علياً رضي الله عنه: لِمَ لَمْ تَكْتُبِ البِسْمِلَةَ أول براءة، فقال: لأن «بسم الله» أمان، وبراءة ليس فيها أمان؛ لأنها نزلت بالسيف ولا تناسب بين الأمان والسيف»^(٢).

◉ أما إذا ابتدأ القارئ قراءته بأول أي سورة من سور القرآن سوى براءة، فله أن يجمع بين الإستعاذة والبسملة وأول السورة، ويجوز له حينئذ أربعة أوجه:

١- قطع الجميع: أي فصل الإستعاذة عن البسملة عن أول السورة، بالوقف على كل منها، وهذا الوجه أفضلها.

٢- قطع الأول ووصل الثاني بالثالث: أي الوقف على الإستعاذة ووصل البسملة بأول السورة، وهو يلي الوجه الأول في الأفضلية.

٣- وصل الأول بالثاني وقطع الثالث: أي وصل الإستعاذة بالبسملة والوقف عليها، وهو أفضل من الأخير.

٤- وصل الجميع: أي وصل الإستعاذة بالبسملة بأول السورة.

◉ المسألة الثالثة: حكم البسملة في جميع أعمال المسلم:

البسملة تُشرع في بعض المواضع على وجه الوجوب، وتشرع في بعضها على وجه الاستحباب.

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب من جهر بها (٧٨٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي دود.

(٢) مستدرک الحاكم ٢/ ٣٦٠ (٣٢٧٣).

● فذكر اسم الله ﷻ واجب في موضعين: عند الوضوء وعند الذبح.

● أمّا عند الوضوء، فقد قال النبي ﷺ: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»^(١).

● وأما البسملة عند الذبح فهي شرط في حلّ الذبيحة على الراجح؛ لأنّ الله أمر بالأكل مما ذكّر اسم الله عليه، ونهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فقال ﷻ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام] وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَىٰ أُولِيَاءِهِمْ لِجَدَلِهِمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام].

● أمّا الجاهل والنّاسي عند الوضوء، وعند الذبح فمعفو عنه لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]^(٢).

● ومما تستحب عنده البسملة استحباباً مؤكداً ما يأتي:

● الأكل والشرب: فإنّ النبي ﷺ قال: «إنّ الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه»^(٣). وقال ﷺ: «إذا نسي أحدكم أن يقول عند أكله: بسم الله، فليقل عند فراغه: بسم الله في أوله وآخره»^(٤).

(١) أخرجه ابن ماجة كتاب الطهارة باب التسمية على الوضوء (١٠٢) قال الألباني صحيح مقطوع.
(٢) وهذه المسائل محل خلاف بين الفقهاء وشرح الحديث، انظر: الفقه الاسلامي وأدلته ١/٣٤٣ و٤/٣٣٩، ومجلة البحوث الاسلامية ١٧٥/٥٦-٢٠٣ ومجلة مجمع الفقه الاسلامي ٢/١٩٦٤٠-١٩٦٦٧ وغيرها.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠١٧).

(٤) أخرجه ابن ماجة كتاب الأطعمة باب التسمية عند الطعام (٣٢٦٤)، والترمذي كتاب الأطعمة باب ما جاء في التسمية على الطعام (١٨٥٨) وصححه الألباني.

• التسمية عند الجِماع لقوله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطانَ وجنبَّ الشيطانَ ما رزقتنا، فإنه إن قُدرَ بينهما ولدٌ، لم يكن للشيطانِ منه نصيبٌ»^(١).

• عند الخروج من البيت: كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال -يعني إذا خرج من بيته-: بسم الله، توكلتُ على الله، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. يُقال له: هُديت وكُفيت ووقيت، وتَنَحَّى عنه الشيطانُ يومه ذاك»^(٢).

فهذه بعضُ المواضع التي تُستحبُّ فيها البسملة، وينبغي للمسلم أن يبتدئ كل عمل بالبسملة^(٣).



(١) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب التسمية على كل حال وعند الوقاع (١٤١)، ومسلم في النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجِماع (١٤٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته (٥٠٧٩) وصححه الألباني.

(٣) ينظر: مجلة البحوث الإسلامية ع (٣٩) ١٤١٤هـ، بحث: تفصيل المقال على حديث كل أمر ذي بال.

المبحث الثالث

حمد الله هو لب العبادة

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة].

المطلب الأول: مفهوم الحمد:

أولاً: تعريف الحمد:

الحمد هو: «الثناء باللسان، على الجميل الاختياري، على جهة التعظيم والتبجيل»^(١).

وقيل: «الثناء باللسان، على الجميل الصادر عن اختيار، من نعمة أو غيرها»^(٢).

قال ابن جرير: «معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغدّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرًا»^(٣).

﴿ف﴾ «الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءً أثنى الله به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾»^(٤).

(١) البحر المديد ١/ ٢٤.

(٢) الوسيط للطنطاوي ١/ ٢.

(٣) جامع البيان ١/ ١٣٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٢٨.

«وقيل: الحمد هو الرضا؛ فإن أُريدَ به: أنَّ الحمدَ باللسان ليسَ بحمدٍ فباطلٌ، وإن أُريدَ: أنَّ الرِّضا شطرُه فصحيحٌ، وإن أُريدَ: أنَّ الرِّضا بالقلب يكونُ حمدًا ففيه نظرٌ»^(١).

٦ ثانيًا: الفرق بين الحمد والشكر:

بين الحمد والشكر فرقٌ من وجوه:

- ١- «أنَّ الحمدَ يكون على النَّعم وغيرِها، بخلاف الشُّكر فإنَّه لا يكون إلاَّ على النَّعم.
- ٢- أنَّ الحمدَ يكون باللسان والقلب، والشُّكر يكون باللسان والقلب والعمل»^(٢).
- ٣- «والحمد أعم من الشكر لأنَّ الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد»^(٣).

٦ ثالثًا: الفرق بين الحمد والمدح:

أما الفرق بين الحمد والمدح فمن وجوه:

- ١- «الحمد للحي فقط، أما المدح للحي ولغير الحي كاللؤلؤ واليواقيت الثمينة.
- ٢- الحمد إنما يكون بعد الإحسان، أما المدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده.
- ٣- الحمد مأمور به مطلقا، قال ﷺ: «من لم يشكر النَّاسَ لم يشكر الله ﷻ»^(٤).

(١) تفسير سور الفاتحة لابن رجب ١/٣٠. بتصرف.

(٢) تفسير سور الفاتحة لابن رجب ١/٣٠.

(٣) بحر العلوم ١/٤٠.

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب في شكر المعروف (٤٨١١)، والترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (١٩٥٤) ٤/٣٣٩، وقال: حسن صحيح، وأحمد في =

﴿ أما المدح قد يكون منهيًا عنه، قال ﷺ: «إذا رأيتُم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»^(١).

٤- الحمد قولٌ دالٌّ على أنه مختص بفضيلة من الفضائل معينة وهي فضيلة الإنعام إليك، وإلى غيرك، ولا بد أن يكون على جهة التفضيل لا على التهكم والاستهزاء. أما المدح فعبارَةٌ عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره، وبغير اختياره.

٥- أن الحمد نقيضه الذم، والمدح نقيضه الهجاء.

٦- الحمد لا يكون إلا على إحسانٍ، والله حامدٌ لنفسه على إحسانه إلى خلقه، فالحمد مضمن بالفعل، أما المدح فيكون بالفعل والصفة، وذلك مثل: أن يمدح الرجل بإحسانه إلى نفسه وإلى غيره، وأن يمدحه بحسن وجهه وطول قامته، ويمدحه بصفات التعظيم؛ من نحو: قادرٍ وعالمٍ وحكيم، ولا يجوز أن يحمده على ذلك، وإنما يحمده على إحسان يقع منه فقط^(٢).

﴿ رابعاً: فائدة قوله: «الحمد لله» بدلاً من: أحمد الله:

١- «أنه لو قال: أحمد الله دلَّ ذلك على حمده، أمّا إذا قال: «الحمد لله» أفاد ذلك أنه كان محمّوداً قبل حمد الحامدين.

= «المسند» ٤٧٢/١٢ و(٧٥٠٤) و(٧٩٣٩) و(٨٠١٩) و(٩٠٣٤) و(٩٩٤٤) و(١٠٣٧٧)، والطيالسي (٢٤٩١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وابن حبان (٣٤٠٧)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (١١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» ٧/١٦٥ و٨/٣٨٩، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٢٩)، والبيهقي في «السنن» ٦/١٨٢، وفي «الشعب» (٩١١٧)، والبغوي (٣٦١٠). قال الألباني: صحيح لغيره. وقال محقق المسند: إسناده صحيح.

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفائق باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح (٣٠٠٢).

(٢) الفروق اللغوية ١/٢٠٢-٢٠٣.

- ٢- أن «الحمد لله» يقتضي أن الحمد والثناء حقُّ لله وملكه، فاللفظ الدالُّ على كونه مستحقاً للحمد أولى من اللفظ الدالُّ على أن شخصاً واحداً حمده.
- ٣- أنه لو قال: أحمدُ الله، لكان قد حمد، لكن لا حمداً يليق به، أمّا إذا قال: «الحمد لله»، فكأنه قال: مَنْ أنا حتى أحمده؟ لكنّه محمّودٌ بجميع حمد الحامدين، مثاله: لو سُئلت: هل لفلان عليك نعمة؟ فإن قلت: نعم، فقد حمدته، لكن حمداً ضعيفاً، وإن قلت: بل نعمة على كلِّ الخلائق، فقد حمدته بأكمل المحامد^(١).

المطلب الثاني: فضل وأهمية الحمد:

الحمد لله هو الشعور الذي يجود به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله؛ فإن هداية العبد ليست إلا نعمةً من نعم الله التي تستوجب الحمد والثناء. وإنَّ وجوده بل وحياته نعمةٌ تستوجب ذلك، وفي كل لمححةٍ وكل لحظةٍ وكل خطوةٍ تتوالى آلاء الله عليه وتتواكب وتجتمع، وتغمر الخلائق كلها، وبخاصة هذا العبد المكلف.. ومن ثمَّ كان الحمد لله ابتداءً، وكان الحمد لله ختاماً، وصار قاعدة من قواعد الإسلام، قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص].

ويمكن إبراز أهمية الحمد وفضله من خلال النقاط التالية:

أولاً: افتتح بالحمد خمسٌ من سور القرآن:

- ١- الفاتحة: في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ٢- الأنعام: في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.
- ٣- الكهف: في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾.

٤ - سبأ: في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١﴾.

٥ - فاطر: في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعٍ يَرْيَدُ فِي الْحَقِّ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾.

٦ ثانياً: الحمد سنة الأنبياء ﷺ:

كان الحمد ديدن الأنبياء ﷺ لهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه. فقال له ربه: رحمك الله يا آدم»^(١).

وقال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٢٦﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [النمل].

٦ وقد أمر الله تعالى أنبيائه بالحمد في كل الأحوال وخصوصاً عند النعمة فقال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّتَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ [المؤمنون].

٦ ثالثاً: من صفات أهل الجنة أنهم يحمدون الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

[الأعراف: ٤٣].

(١) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب (٩٤) برقم (٣٣٦٨) وقال: حسن غريب. والحاكم في المستدرک ١٣٢/١ (٢١٤) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في الشعب ١٠/١٤٧ (٢٠٣٠٧). وقال الألباني: حسن صحيح. في صحيح الترمذي، وصحيح الجامع (٥٢٠٩).

وقال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠) [يونس].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٤) [الزمر].

٦ رابعاً: شمولية الحمد لله في سورة الفاتحة:

الألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى^(١).
 «لم يذكر لحمده هنا طرفا مكانيا ولا زمانياً. وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية: السماوات والأرض في قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم]، وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية: الدنيا والآخرة في قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠] والألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد. وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه به»^(٢).

٦ المطلب الثالث: لماذا نحمد الله تعالى:

٦ الله ﷻ وحده هو المستحق للحمد لأنه سبحانه هو المتفضل علينا بكل النعم وما البشر إلا وسائل لإيصال تلك النعم قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٦ فالله تعالى صاحب كل النعم فهو المنعم علينا بنعم الإسلام والقرآن والرسول محمد ﷺ وكذلك نعمة الهداية إلى الاستمسك بالإسلام ونعمة العقل التي

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٣١.

(٢) أضواء البيان ١/ ٥.

فضلنا بها على الخلق، ونعمة تسخير هذا الكون كله لنا، وإذا أردنا التفصيل في تلك النعم سنتقضي الأعمار ولن نستطيع حصرها، فنعم الله سبحانه لا تعد ولا تحصى قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل].

❖ والله تعالى لا يأخذ منا على هذه النعم أجراً، فهو سبحانه غني عن شكر الشاكرين، وغني عن عبادة العابدين، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: 7]. أما البشر فهم يحاولون استغلال البشر، لأنهم يطمعون بما في أيديهم من ثروات وأموال. أما الله ﷻ فهو دائم العطاء لخلقه، والخلق يأخذون دائماً من نعم الله. بل هو سبحانه يعطي الشاكرين له زيادة إذا استغلوا نعمة الله تعالى فيما يحب الله قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم]، فالعبودية لله تعطيكم ولا تأخذ منكم.

❖ والله ﷻ في نعمه يحب أن تطلب منه، وهذا يتوجب الحمد لأنه بذلك يقينا الذل للبشر، ويمنحنا العزة في المنزلة بين الناس.

وهو سبحانه بإعطائنا النعم -أو إمساكه لها عنا- يستوجب الحمد؛ لأن الله تعالى أعلم بنا من أنفسنا فيعطينا ما ينفعنا ويصرف عنا ما يضرنا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى].

❖ المطلب الرابع: مواضع الحمد وصيغته:

❖ الأصل في المؤمن أن يحمد الله تعالى على كل حال وفي كل وقت؛ وهنا ستعرض لبعض المواضع التي يتأكد الحمد فيها ليس على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل.

وهذه الأحاديث تذكير ببعض نعم الله تعالى على العبد، ومن ثم أمر بحمد الله عليها، وهي كالتالي:

(١) بعد الفراغ من الأكل والشرب:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(١).

وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قال إذا فرغ من طعامه: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه، من غير حولٍ مني ولا قوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

(٢) عند استحداث ثوب جديد:

عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «... من لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

(٣) عند النوم والاستيقاظ منه:

فمن أذكار النوم ما ثبت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحي، وبلغها أنه جاءه رقيق، فلم تصادفه فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فلما جاء أخبرته عائشة. قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «علي مكانكما»، فجاء فقع بيني وبينها حتى وجدت برد قدميه علي بطني، فقال: «ألا أدلكما علي خير مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما - أو أويتما إلي فراشكما - فسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وكبرا أربعا وثلاثين فهو خير لكما من خادم»^(٤).

◉ أما الاستيقاظ من النوم فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أوى

(١) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤).
(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب الأطعمة باب ما يقال إذا فرغ من الطعام (٣٢٨٥)، والترمذي كتاب الدعوات باب ما يقول إذا فرغ من الطعام (٣٤٥٨) وحسنه الألباني.
(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الأطعمة باب ما يقال إذا فرغ من الطعام (٣٢٨٥)، والترمذي كتاب الدعوات باب ما يقول إذا فرغ من الطعام (٣٤٥٨) وحسنه الألباني.
(٤) أخرجه البخاري كتاب النفقات باب عمل المرأة في بيت زوجها (٥٣٦١).

إلى فراشه قال: «باسمك أموت وأحيا، وإذا قام قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم فليقل الحمد لله الذي ردّ عليّ رُوحِي وعافاني في جسدي وأذنّ لي بذكره»^(٢).

٤) عند ركوب الدابة:

فعن علي بن ربيعة قال شهدت عليا رضي الله عنه وأتى بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله فلما استوى علي ظهرها قال: الحمد لله ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف]، ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر ثلاث مرات، ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم ضحك فقيل يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك فقلت يا رسول الله من أي شيء ضحكت قال: «إن ربك يعجب من عبده إذا قال اغفر لي ذنوبي يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري»^(٣).

٥) عند رؤية مبتلى:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من فجأه صاحب بلاء، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا. عوفي من ذلك البلاء كائنا ما كان»^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب ما يقول إذا نام (٦٣١٢).

(٢) أخرجه ابن السني (ص ١٤، رقم ٩). قال الإمام النووي في الأذكار (ص ٢١): إسناده صحيح. وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (٦/٢١٧، رقم ١٠٧٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الجهاد باب ما يقول الرجل إذا ركب (٢٦٠٤)، والترمذي في كتاب الدعوات باب ٤٧ ما يقول إذا ركب الناقة (٣٤٤٦) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه ابن ماجه كتاب الدعاء باب ما يدعو به الرجال إذا نظر إلى أهل البلاء (٣٨٩٢)، والترمذي في كتاب الدعوات باب ما يقول إذا رأى مبتلى (٣٤٣١).

(١) عند العطاس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له يرحمك الله؛ فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»^(١).

(٧) عند رؤية ما يحب أو يكره:

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات». وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال»^(٢).

(٨) عند التعرّي من الليل:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استُجيب له، فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته»^(٣).

(٩) في افتتاح الصلاة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما نحن نصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من القائل كلمة كذا وكذا؟». قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: «عجبت لها فتحت لها أبواب السماء». قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب إذا عطس كيف يشمت (٦٢٢٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل الحامدين (٣٨٠٣)، والحاكم في المستدرک ١/٦٧٧ (١٨٤٠) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري أبواب التهجد باب فضل من تعار من الليل فصلي (١١٥٤).

(٤) أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبينان صفة (٥٩٥).

(١٠) من أذكار ختام الصلاة:

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجند منك الجند»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياها، وإن كانت مثل زبد البحر»^(٢).

(١١) بعد الرفع من الركوع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

(١٢) عند التهجد:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: «اللهم ربنا لك الحمد؛ أنت قيم السموات والأرض، ولك الحمد؛ أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، وأنت نور السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك

(١) أخرجه البخاري كتاب صفة الصلاة باب الذكر بعد الصلاة (٨٤٤)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٣).

(٢) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٧).

(٣) أخرجه البخاري كتاب صفة الصلاة باب فضل اللهم ربنا لك الحمد (٧٩٦). ومسلم في كتاب الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين (٤٠٩).

أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك خاصمت، وبك حاکمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، وما أنت أعلم به مني، لا إله إلا أنت»^(١).

(١٣) حمد الله المطلق:

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»^(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»^(٣).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن أو تملأ ما بين السموات والأرض»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٥).

- (١) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٧٠٠٤).
- (٢) أخرجه ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل الحامدين (٣٨٠٠)، والترمذي كتاب الدعوات ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣) وحسنه الألباني.
- (٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل الحامدين (٣٨٠٥) والبيهقي في شعب الإيمان ٩٨/٤ (٤٤٠٥) وحسنه الألباني.
- (٤) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣).
- (٥) أخرجه البخاري كتاب الإيمان والنذور باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلي أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته (٦٦٨٢). ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وأن: سبحان الله،
والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ هن الباقيات الصالحات»^(١).

* * *

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٧ (١٨٣٧٩)، قال شعيب الأرنؤوط صحيح لغيره، وقال الهيثمي ٥/ ٢٤٧: فيه
راو لم يسم، وبقيته رجاله رجال الصحيح.

المبحث الرابع

أسماء الله وصفاته الله في سورة الفاتحة

﴿ وردت في سورة الفاتحة عدد من الأسماء والصفات التي تعتبر أسس وقواعد الأسماء والصفات وهي: الله - الرب - الرحمن - الرحيم - المالك .

وكانت أول تلك الأسماء هو لفظ الجلالة الله الوارد في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وما بعده من أسماء وصفات تعتبر تعريفاً بالله تعالى، فالله هو: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ وهو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهو كذلك ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وكل من هذه الأسماء والصفات لها معانٍ ومقاصد جعلتها تكون ضمن أول سورة في كتاب الله تعالى.

﴿ أولاً: معنى لفظ الجلالة (الله):

﴿ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أي هو: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ^(١).

﴿ وقال الجوهري: «الله: أصله إله على وزن فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه بمعنى معبود» ^(٢).

﴿ وهو الاسم الأعظم لله ﷻ - على قول طائفة من أهل العلم - الذي تُلْحَقُ به الأسماء الأخرى، ولا يشاركه فيه غيره.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان رقم ١٤١، وابن أبي حاتم كما في «الدر المشور» ٢٣/١ وفيه

بشر بن عمارة.

(٢) الصحاح ٦/٢٢٢٣.

ثانياً: معنى اسم الرب:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة].

«الرب في اللغة: صفة مشبهة للموصوف بالربوبية، فعله رَبُّ يَرْبُ ربوبية، أو ربى يربي تربية، والرب هو الذي يربي غيره وينشئه شيئاً فشيئاً ويُطَلِّقُ عَلَى الْمَالِكِ وَالسَّيِّدِ وَالْمَدَبَّرِ وَالْمُرَبِّيِّ وَالْقَيِّمِ وَالْمُنْعِمِ، وَلَا يُطَلِّقُ غَيْرَ مُضَافٍ إِلَّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا أُطْلِقَ عَلَى غَيْرِهِ أُضِيفَ؛ كَرَبِ الْإِبِلِ وَرَبِّ الدَّارِ، أَي مَالِكِهَا.

ويطلق على السيد المطاع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]، أي سيده المطاع.

ويطلق على المعبود، فوصف الرب من الناحية اللغوية يكون لمن أنشأ الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، أو قام على إصلاح شؤونه وتولي أمره بانتظام»^(١).

﴿فَاللَّهُ تَعَالَى:﴾ «هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال»^(٢).

ثالثاً: معنى اسم الله الرحمن:

﴿الرحمن في اللغة: صفة مشبهة، مستعملة كصيغة للمبالغة، فالرَّحْمَنُ: بُيِّتَ عَلَى فِعْلَانِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ الْكَثْرَةُ، فَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

﴿والرحمة في حقنا: رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتكون بالمسامحة واللطف أو المعاونة والعطف، والرحمة تستدعي مرحوماً، فهي من صفات الأفعال»^(٣).

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٣٦، والنهاية في غريب الحديث ١٧٩/٢، بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩.

(٣) انظر: تفصيل المعنى في لسان العرب ١٢/٢٣١، وكتاب العين ٣/٢٢٤، وانظر: المزيد حول هذا المعنى في المقصد الأسنى لأبي حامد الغزالي ص ٦٢، والأسماء والصفات لليهقي ص ٦٩، وفتح الباري ١٣/٣٥٨.

﴿ والرحمن اسم يختص بالله ﷻ ولا يجوز إطلاقه في حق غيره ^(١)، وورد اسم الله الرحمن في خمسة وأربعين موضعاً من القرآن، اقترن في ستة منها فقط باسمه الرحيم، ولم يقترن بغيره.

وفي هذه السورة ورد اسم الله الرحمن في موضعين الأول في البسملة والثاني في الآية الثالثة من السورة، وتفتتح كل سورة من سور القرآن بالبسملة التي فيها هذه الصفة.

﴿ رابعاً: معنى اسم الله الرحيم:

﴿ الرحيم في اللغة: من صيغ المبالغة، فعيل بمعنى فاعل كَسَمِيعٌ بمعنى سامع وقديرٌ بمعنى قادر، ودلَّ الرحيم على صفة الرحمة الخاصة، والرحمة هنا بمعنى: المغفرة وهي خاصة بالمؤمنين، وذكر الرَّحِيمُ بعد الرَّحْمَنِ لأنَّ الرَّحْمَنَ مقصور على الله ﷻ، والرحيم قد يكون لغيره، فالمجيء بالرحيم بعد استغراق الرَّحْمَنِ معنى الرَّحْمَةِ فيه إنما هي لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب].

والرحمة الخاصة التي دل عليها اسمه الرحيم شملت عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة فقد هداهم إلى توحيدهِ وعبوديته، وهو الذي أكرمهم في الآخرة بجنته، ومنَّ عليهم في النعيم برؤيته ^(٢)، ورحمة الله لا تقتصر على المؤمنين فقط؛ بل تمتد لتشمل ذريتهم من بعدهم تكريماً لهم كما قال تعالى في نبأ الخضر والجدار: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، فالإيمان بالله والعمل في طاعته وتقواه من أهم أسباب الرحمة الخاصة، قال تعالى:

(١) انظر: فتح الباري ٣٥٨/١٣.

(٢) انظر في هذا المعنى: جامع البيان للطبري ٥٧/١، وفتح الباري ٣٥٨/١٣.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام] (١).

خامساً: معنى اسم الله الملك:

﴿الملك في اللغة: اسم يدل على العلو المطلق للملك في ملكه ومملكته، فله علو الشأن والقهر في وصف الملكية، وله علو الشأن والفوقية في وصف الملك والاستواء على العرش (٢).﴾

«فالمالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويشيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات» (٣).

﴿والملك أعم من المالك لأنه غالب قاهر فوق كل مالك، فالمملك مهيمن على الملك (٤).﴾

«لما كان اسم الله المليك يدل على الكمال المطلق في وصف الملك والملكية معا، كان أثر ذلك الاسم متمثلاً في كمال التوحيد والعبودية وخضوع العبد لمليكه بالكلية، فقلبه يطمئن بحبه ولسانه رطب بذكره، وبدنه يسعى لقربه، وقد كان النبي ﷺ يكثر من تسييح الله باسمه الملك القدوس ويرفع صوته بذلك، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا سلم في الوتر قال: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» (٥) (٦).

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٤/ ٥٣٨، وجامع البيان للطبري ١٦/ ٧، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود ٦/ ٥٥، وجامع العلوم والحكم ص ١٨٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٢٤٨، وروح المعاني ٩/ ١١٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٣٩.

(٤) انظر: شرح أسماء الله الحسنی للرازي ص ١٨٨.

(٥) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة، باب في الدعاء بعد الوتر (١٤٣٠) وصححه الألباني.

(٦) أسماء الله الحسنی في الكتاب والسنة ٢/ ٢٣٥ - ٢٣٧ باختصار.

المبحث الخامس

ربوبية الله تعالى ودلالاتها ومقتضياتها

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾:

«الرب: هو المربي لجميع العالمين - وهم من سوى الله - بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى».

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

﴿ **فالعامة:** هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

﴿ **والخاصة:** تربيته لأوليائه، فيريهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله ﴿ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمايم فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار»^(١).

فبين الله تعالى في هذه الآية أنه الرب المتكفل بخلق الموجودات وإنشائها والقائم على هدايتها وإصلاحها، وهو الذي نظم معيشتها ودبر أمرها، ودليل هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ**

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩.

أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ يَظَلُّهُ وَحْشِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ
 أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ [الأعراف]؛ فالرب سبحانه هو المتكفل
 بالخلائق أجمعين إيجادا وإمدادا ورعاية وقيامًا على كل نفس بما كسبت (١).

إنَّ الربوبية أحد أسس العقيدة في الإسلام، فإنَّ الله تعالى لم يخلق الكون ثم
 يتركه هملًا، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٣٦﴾ [المؤمنون]، إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه
 ويربِّيه. وكل العوالم والخلائق تحفظ وتتعهد برعاية الله رب العالمين ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ
 فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴿١٦١﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ
 يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ [الحجر].

وكثيرًا ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون،
 والاعتقاد بتعدد الأرباب، ولقد يبدو هذا غريبًا.. ولكنه كان وما يزال.

﴿فالقُرآن الكريم يشير إلى الشرك الواقع في الربوبية عند الأمم السابقة
 في العديد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾
 [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾
 [آل عمران: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ
 وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿يَصْحَبِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ
 خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف].

﴿ومشركوا العرب اعتقدوا بأن لآلهتهم قدرة ذاتية على النفع والضرر وهذا يعني
 ربوبيتها!! وهذا شرك في توحيد الربوبية، وذلك باعتقادهم بقدرة غير الله على الضرر
 والنفع والإعزاز والإذلال والنصر مستقلا عن الله، في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن

(١) انظر: أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة ٣/ ١٣٢.

دُونَ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ [مريم]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا آغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّا يُصْحَبُونَ﴾ [٤٣] [الأنبياء].

﴿والكفار يخوفون الرسل من بطش آلهتهم وهذا يعني اعتقادهم أنها تنفع وتضر استقلالاً وهذا واضح لمن تدبره في مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر]، قال البغوي في تفسير الآية: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ «وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ معرفة معاداة الأوثان، وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنا منهم خبل أو جنون» أهـ^(١)، والخلاصة أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الآلهة التي عبدوها وآمنوا بها تضر وتنفع وتنتصر وتنتقم وتنصر، ولهذا اتخذوها أرباباً من دون الله لعلهم ينصرون.

﴿واعتقد المشركون بوجود الشريك الذي له تأثير مستقل في الخلق وتدبير مملكة الله، ولهذا أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ إخبار المشركين بالبراءة من الشريك كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء]، وهذا يعني أن شرك المشركين لا يقتصر على شرك العبادة، ولكن معه شرك الربوبية الذي يشمل اعتقاد الشريك في الملك والتدبير.

﴿واعتقد المشركون بوجود الند لله! والند: الضد والشبيه والمثيل الذي له مشاركة في الملك والخلق والتدبير^(٢)، والمشركون كانوا يعتقدون في أصنامهم ومعبوداتهم أنها أنداد لله، والأدلة من القرآن الكريم على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ

(١) معالم التنزيل البغوي ٤/ ٦٩.

(٢) انظر: تهذيب اللغة ١٤/ ٥١، والمفردات ص ٤٨٦.

أَنذَادًا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٥﴾ [ابراهيم]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩١﴾﴾ [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت].

◈ وكان المشركون يساؤون بين الله تعالى وبين معبوداتهم في الإلهية والربوبية:

قال تعالى واصفاً معتقد المشركين الذي أوداهم إلى النار: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٧﴾ إِذْ نَسُوا كُرْبَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء] فهذه الآيات التي تحكي عقيدة المشركين: وهي أنهم جعلوا لله سبحانه تعالى أندادا، وأنهم كانوا يسوون آلهتهم برّب العالمين في صفات ربوبيته وتدبيره وتصريفه للكون وما فيه.

◈ فنستفيد مما سبق أنّ المشركين لم يكونوا على توحيد الربوبية، وأنّ من ظنّ أنهم كانوا على توحيدها لم يكن على صواب في ذلك، وذلك لأنّ أنواع الشرك في الربوبية كثيرة منها: من اعتقد أن غير الله شريك مع الله في شيء من الخلق والرزق، ومن اعتقد أن غير الله شريك مع الله في شيء من تدبير الكون والتصريف، ومن اعتقد أن غير الله شريك مع الله في شيء من النصر والتأييد والإعزاز والإذلال والنفع والضرر والهداية والإضلال، ومن اعتقد أن غير الله شريك مع الله في شيء من الحكم والأمر والتشريع والتحليل والتحريم، ومن اعتقد أن أحدا يستطيع الشفاعة عند الله على سبيل الاستقلال أو الحق الجبري على الله..

وأنّ المشركين كانوا على الشرك في أكثر مفردات الربوبية، وأنّ توحيد الربوبية مصطلح عظيم لا يكون عليه إلا الموحدون الذين تبرؤا من كل شرك في الربوبية وتمثلوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَيْ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فلفظ الربوبية في هذه السورة مطلقٌ، ويشمل الربوبية للعالمين جميعاً، لتتجه كلها إلى رب واحد، وتنفر عن الأرباب المتفرقة، وتبتعد عن الحيرة بين شتى الأرباب، بل لتطمئن هذه العوالم إلى ربوبية الله الدائمة والقائمة، وأن هذه الربوبية لا تنقطع أبداً ولا تفتّر ولا تغيب.

إن عناية الإسلام الأولى موجهةٌ إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد التوجه الذي يستقر عليه القلب في أمر الله وصفاته، وعلاقته بالخلائق، وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين.

❖ والذي يراجع الجهد الذي بذله أئمة الإسلام لتقرير العقيدة لله وعلاقته بمخلوقاته، والذي تمثله النصوص الشرعية يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكرر.



المبحث السادس

رحمة الله تعالى

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

هذان «اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها»^(١).

المطلب الأول: أثر رحمة الله تعالى على عباده:

بعد ما بين الله تعالى ربوبيته لخلقة بين أن هذه الربوبية رحمة للخلق أجمعين، وفي موضع آخر خصَّ اسمه الرحمن عند ذكر استوائه على عرشه فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، لأنه فوق الكل مؤمنهم وكافرهم، وحياتهم قائمة بإذنه، وأرزاقهم مكنونة في غيبه، وبقائهم رهن مشيئته وأمره، فلا حول ولا قوة لهم إلا بقوته وحوله، فهو الملك والكل في مملكته: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ حَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

◉ والرحمن سبحانه هو المتصف بالرحمة العامة الشاملة حيث خلق عباده ورزقهم، وهداهم سبلهم، وأمهلهم فيما استخلفهم وخولهم، واسترعاهم في أرضه واستأمنهم في ملكه ليلوهم أيهم أحسن عملا، ومن ثم فإن رحمة الله ﷻ في الدنيا وسعتهم جميعا فشملت المؤمنين والكافرين، والرحمة تفتح أبواب الرجاء والأمل، وتثير مكنون الفطرة وتبعث على صالح العمل، وتدفع أبواب الخوف واليأس، وتشعر الشخص بالأمن والأمان^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/٣٥٨.

﴿ والله ﷻ غلبت رحمته غضبه، ولم يجعل الله لنا في هذه الدنيا إلا جزءا يسير من واسع رحمته، به يتراحم الناس ويتعاطفون وكذلك سائر الأحياء في الأرض أجمعون، فعن أبي هريرة ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه»^(١).

المطلب الثاني: مقتضيات العلم برحمة الله تعالى:

﴿ أولاً: الإيمان بالله ﷻ والعمل على طاعته:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّهُ وَكَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون].
﴿ فهاتان الصفتان دعوة للتوحيد والعمل الصالح، وهما كذلك دعوة للكافرين إلى الاستسلام لله تعالى كما أنهما دعوة للعصاة إلى ترك العصيان.

فرحمة الله تعالى دعوة للتقرب إلى الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له والتوبة والاستغفار قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة].
وقال تعالى: ﴿نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ وَأَرْبُكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود].

﴿ وعند اقتران اسم الله الرحيم باسمه العزيز كما في قوله، ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة] «بيان أن العزيز غالب على الخلق أجمعين حتى لو أعرضوا عن رب العالمين، وأنه سينصر عباده الموحدين ولو بعد حين، فالنصر

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء (٥٦٥٤).

والعزة للإسلام والمسلمين، وهو في المقابل بالمؤمنين المستضعفين رحيم طالما أنهم وحدوه في اسمه العزيز، كما في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء] فقد ذكر الله هذه الآية بعد ذكر هلاك الأمم الماضية الذين بغوا في الأرض وعصوا الرسل في تسع مواضع في سورة الشعراء^(١).

٦ ثانياً: طلب رحمة الله تعالى:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك، قل يا معاذ: ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ نُورِيُّ الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾» [آل عمران]، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك^(٢).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٣).

وعن حنظلة بن علي أن محجن بن الأدرع رضي الله عنه حدثه قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا هو برجل - قد قضى صلاته وهو يتشهد - وهو يقول: اللهم إني أسألك يا الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم. قال: فقال: «قد غفر له، قد غفر له»^(٤).

(١) أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة ١/ ٣٣٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير ٢٠/ ١٥٤ (٣٢٣) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢١) وقال: رواه الطبراني في الصغير بإسناد جيد.

(٣) أخرجه البخاري كتاب صفة الصلاة باب الدعاء قبل السلام (٨٣٤) ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٥).

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب ما يقول بعد التشهد (٩٨٧)، وصححه الألباني.

ثالثاً: الاتصاف بصفة الرحمة مع الخلق:

ويتمثل ذلك في «امتلاء القلب بالرحمة والحب والحرص على ما ينفع الخلق سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فالمؤمنون يحب لهم ما يحب لنفسه، فيوقر كبيرهم ويرحم ضعيفهم ويجعل حبل الرحمة ممدوداً بينهم، ويسعد بسعادتهم ويحزن لحزنهم.

﴿ أما رحمته بالكافرين فيحرص على دعوتهم، ويسهم في إخماد النار التي تشتعل فيهم بسبب كفرهم ودون وعي منهم، فيجتهد في نصيحتهم والأخذ على أيديهم؛ حتى لو بجهادهم في بعض المواطن، فلو أن الكافر علم ما ينتظره من العذاب لشكر كل من دعاه إلى اتقائه ومحاولة منعه ولو بالقوة﴾^(١).

﴿ وأسوتنا في ذلك هو سيد الخلق أجمعين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢) [التوبة].

كان النبي ﷺ بأصحابه رحيماً رفيقاً حبيباً صديقاً، فعن مالك بن الحويرث رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي ﷺ في نفرٍ من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلةً، وكان رحيماً رفيقاً^(٢). وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «..وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»^(٣).



(١) أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة باختصار ١/ ٣٥٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب من قال ليؤذن في السفر مؤذن واحد (٦٢٨)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب من أحق بالإمامة (٦٧٤).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

المبحث السابع الإيعان بالبعث وأثره التربوي

قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾:

«يَوْمِ الدِّينِ»: هو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق -تمام الظهور- كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق. حتى إنه يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مدعون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام»^(١).

«وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدّم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَاوَنُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا]»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا»^(٣).

«ففي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحث له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات»^(٤)، فبعد

(١) تفسير الكريم الرحمن ٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣٤.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ١/ ١٤٩ (١٦٦)، وابن أبي حاتم في التفسير ١/ ٢٩ (٢٤).

(٤) التفسير الميسر ص ١.

أن بين سبحانه لعباده موجبات حمده، وأنه الجدير وحده بالحمد، لأنه المربي الرحيم، والمنعم الكريم نبههم إلى أن هناك يوم الجزاء والحساب على مدى التزامهم بعبودية الله تعالى.

والإيمان بيوم الدين من أركان الإيمان الستة، وهو من أدل الأركان على سلامة العقيدة وزيادة الإيمان، فلن تسلم العقيدة ويزيد الإيمان إلا إذا آمن الناس بأن هناك بالبعث والجزاء بعد الموت، فبذلك يحسنوا التوجه لله تعالى بالعبادة الخالصة رغبة في جزاءه ورهبة من عقابه.

﴿ ولذا نجد أن الله تعالى قرن بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر في تسعة عشر موضعاً في كتابه في ثمان سور، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَادُوا فَاجْتَدُوا كُلَّ وَحِيدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذُكُم بِهِمْ رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]. وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق].

﴿ وكذلك نجد هذا الاقتران في حديث رسول الله ﷺ، ومن ذلك: قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١). والأحاديث في ذلك كثيرة.

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨). ومسلم كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف (٤٧).

إنَّ الاعتقاد بالبعث والجزاء «الآخرة» له أثره العميق في الحياة البشرية كلها، ويوثر ذلك على تصرفات الإنسان ويسيطر على العدوان والظلم؛ لعلمه بالجزاء والحساب.

﴿ وكثيرًا ما اعتقد بعض الناس بربوبية الله؛ ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء.. والقرآن يحدثنا عن بعض هؤلاء: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ [لقمان]، ثم يحكي عنهم في موضع آخر: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦﴾ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ [ق]، فمن اعتقد بعالم آخر يحاسب فيه الإنسان بعد عالم الأرض؛ فلن تستبد به شهوات الأرض. وعندئذ يملك الاستعلاء على هذه الشهوات. ولا يستبد به القلق على تحقيق جزاء سعيه في عمره القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور، بل ينتظر أجره من الله العزيز العليم.

وعندئذ يملك وجدانه العمل لوجه الله، وانتظار الجزاء حيث يقدره الله؛ في الأرض أو في الدار الآخرة سواء، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق، وفي سعةٍ وسماحةٍ ويقينٍ.

﴿ ولذا فإن الإيمان «باليوم الآخر» يعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب، وبين العبودية لله رب العباد، وبين الصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال، وما تستقيم الحياة البشرية به من منهج الله الرفيع.

﴿ وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعورٍ ولا خلقٍ ولا سلوكٍ ولا عملٍ، فهما صنفان مختلفان من الخلق، وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عملٍ ولا تلتقيان في الآخرة في جزاءٍ.. وهذا هو مفرق الطريق.



المبحث التاسع

العبودية والاستعانة بالله تعالى وحده

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

«لَمَّا ذَكَرَ اللهُ ﷻ أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْمَحَامِدِ كُلِّهَا قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا؛ لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَوَالِمِ وَقِيَوْمِهَا، أَصْلُ الْأَصُولِ وَفُرْعُوعِهَا، أَنْعَمَ عَلَيْهَا أَوْلَىٰ بِالْإِيْجَادِ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ، فَهُوَ مَا لَكِهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ سِوَاهُ؛ إِذْ لَا مُنْعَمَ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللهُ، فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَأَوْلَىٰ أَنْ يَفْرُدَ بِالْوَجْهِةِ وَالْقَصْدِ»^(١).

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه. فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك»^(٢).

«فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة وتفويض إلى الله ﷻ»^(٣).

«وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا له»^(٤).

(١) البحر المديد ١/٣٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٣٩.

(٣) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ١/١٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/١٣٥.

وموضوع العبادة والاستعانة بالله موضوع طويل نختصره في المطالب التالية:

المطلب الأول: العبادة لله وحده:

المحور الأول: العبودية لله تعالى هي الغاية من الخلق:

بين الله تعالى أنه خلق الخلق لعبادته فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات،] «أي: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم»^(١).

«فهذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفةً لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقتهم لحاجة منه إليهم»^(٢).

وأمر الله بعبادته في كثير من المواضع في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِن تَهْتَدُوا لَكُمْ آتَمَّةٌ وَمِنْ آتَمَّةٍ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء،] وقال تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّي أَرْضِي بِسَعَةِ فَيَأْتِيَنِي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت].

ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب فما من نبي إلا وابتدأ دعوته بالأمر بالعبودية الخالصة لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

فأخبر الله أن هنالك غايةً معينةً لخلق الخلق؛ تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده؛ وأصبح بلا

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٢٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٨١٣.

وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى، فقد انفلتت من الغاية التي خرج لأجلها إلى الحياة، وانتهى إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من غاية وجوده، تلك الغاية التي تربطه وتحفظه وتكفل له السعادة والحياة الحقيقية.

﴿ هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بغاية الخلق: هي العبودية لله، أن يكون هناك عبدٌ وربٌّ؛ عبدٌ يعبد، وربٌّ يُعبد، وبهذا تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار. ﴾

﴿ المحور الثاني: معنى العبادة: ﴾

العبادة لغة هي: الذل، والخضوع. قال الأزهري: «معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، يقال: طريق معبد، إذا كان مذلاً بكثرة الوطء، وبغير معبد: إذا كان مطلباً بالقطران»^(١). وقال الجوهري: «أصل العبودية: الخضوع والذلة، والتعبيد: التذليل، والعبادة: الطاعة، والتعبد: النسك»^(٢).

وأما العبادة شرعاً فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»^(٣).

وقال ابن كثير: «العبادة في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»^(٤).

﴿ المحور الثالث: أركان العبادة: ﴾

ذكر العلماء أن العبادة تكون بثلاثة أركان، لا بد من اجتماعها جميعاً دون

(١) تهذيب اللغة ٢/ ٢٣٤.

(٢) الصحاح ٢/ ٥٠٣.

(٣) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣٤.

استثناء، وهي: المحبة، والخوف، والرجاء، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء].

فإن لم تجتمع هذه الأركان الثلاثة وَقَعَ الضلال، قال بعض أهل العلم: «من عبدَ الله بالحبِّ وحده فهو زنديق، ومن عبدَهُ بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبدَهُ بالرجاء وحده فهو مرجعي، ومن عبدَهُ بالحب والخوف والرجاء فهو موحد مؤمن»^(١).

وتوضيح هذه الأركان في النقاط التالية:

الركن الأول: المحبة لله:

فهي أصل دين الإسلام، وهي التي تحدد صلة العبد بربه ﷻ، وهي نعمة لا يدركها إلا من ذاقها، وقد تواردت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة بهذه المعاني، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءَوَالَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»^(٢).

(١) ذكره ابن رجب في التخويف من النار ص ١٧، وشيخ الإسلام ابن تيمية في العبودية ص ١١٢، ومجموع الفتاوى ١٠/٨١ و ٢٠٧ و ١١/٣٩٠ و ٢١/١٥٥، ونسبه للسلف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان: ١/٦٠، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان: ١/٦٦.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران).

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، بأنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) ولهذا قال: «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ. وقال الحسن البصري: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاههم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٢).

وأما قول العلماء: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق» لأنه يتشبه بمقالة اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨] فالزنادقة يقولون: أنا أحبه، وإذا أحببته وأحبنى، فإن الحبيب يعفو عن حبيبه، ومهما أخطأ الحبيب على حبيبه فإنه لا يؤاخذه.

فهم لا يخافون عذابه ولا يرجون رحمته، ويقولون: نحن لا نعبد من أجل الجنة أو من أجل النار، ويقولون: أنتم تجار، تعبدونه من أجل الجنة والنار، أما نحن فنعبده لذاته - محبة فقط - فهو لاء زنادقة، لأن الأنبياء والرسل عبدوا الله بالثلاثة.

الركن الثاني: الخوف:

ويوازن الإسلام بين الخوف والرجاء، فلا يطغى جانب منهما على الآخر، فكما

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع، ومسلم كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) / ٣ / ١٣٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٢ / ٣٢.

أن المسلم يعبد ربه ﷻ؛ حبا له ورجاء لثوابه وطمعا في جنته، فإنه كذلك يعبد خوفا من عقابه وحذرا من ناره، دون أن يدفعه هذا الخوف إلى شيء من اليأس والقنوط: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [يوسف].

والمسلم لا يخاف من غير الله تعالى أن يصيبه بما يشاء من مصيبة أو مرض أو فقر أو قتل أو نحو ذلك، بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أن ذلك كرامة لمن يخاف منه بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه أصلا بغير الله تعالى؛ لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله ندا يخافه فهو مشرك. قال الله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨١﴾ [الأنعام].

ثم تتوارد الآيات الكريمة تنزع عوامل الخوف من الخلق على الرزق، أو الخوف من الأذى أو النتائج المجهولة^(١) قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ فَمَسِيئُونَ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٣١]. وقوله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [التوبة].

وكذلك يخاف المؤمن وعيد الله الذي توعد به العصاة، فيكون ذلك الخوف طريقا إلى الجنة ونعيمها: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ﴿١٤﴾ [إبراهيم].

وإذا كان النعيم معنويا وماديا، فإن العقاب - كذلك - وما نخاف منه أو ما يخوفنا الله تعالى به من العذاب يشمل النوعين كذلك: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿١٤﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٥﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿١٦﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٢٢﴾ [الحج].

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية ١ / ١٢٩-١٣٢.

وأما قول العلماء: «ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري» والحروري هو الخارجي، لأن الخوارج كانوا في مدينة اسمها حروراء فالذين عبدوا الله بالخوف هم الخوارج فكانوا يقومون الليل، ويصومون النهار، ويقرءون القرآن، وكانت عبادتهم كما ذكر النبي ﷺ للصحابة: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم» فعندهم خوف فقط، ولا يوجد رجاء، أو محبة، فلم ينفعهم ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(١)، إذا رميت الرمية واطرقت السهم وخرج منها، فهم خرجوا من الدين ومرقوا منه، نسأل الله العافية.

الركن الثالث: الرجاء:

محبة العبد لله تعالى تحمله على أن يرجو ما عند الله تعالى في الدار الآخرة من الأجر والثواب والرحمة، والاستبشار بوجود الرب ﷻ، وفضله، والثقة به، فهو عندئذ يبذل الجهد ويقوم بالطاعة على نور من الله، يرجو ثوابه، أو يتوب إليه من ذنب؛ فهو يرجو مغفرته وعفوه، ويطمع في مزيد إحسانه، دون أن يوقعه ذلك في شيء من الأمن من مكر الله وعقوبته: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف].

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء، فكل محب راج خائف بالضرورة؛ فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. ويترقى في هذا الرجاء صعدا، فيرتقي من رجاء يبعث على الاجتهاد بالعبادة لما يؤمله من ثواب، إلى رجاء يبلغ فيه موقفا تصفو فيه الهمة بترك ما تستلذه النفس وتميل إليه، بلزوم الأحكام الدينية، ثم يتطلع إلى رجاء لقاء الخالق سبحانه^(٢). قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا﴾ [الإسراء].

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٥٠٥٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين ٢ / ٣٥ وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٥-٣٢٦.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤُلِّيَٰكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاث، يقول: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي»^(٢).

وهذا الرجاء له أثره في نفس المؤمن، حيث يتطلع لما عند الله تعالى من ثواب، وما ادخره الله لعباده المؤمنين من ألوان النعيم الحسي والمعنوي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾^(٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج].

﴿آيات النعيم في القرآن الكريم كثيرة، تجمع بين لوني النعيم، وتسمو بروح الإنسان وهمته؛ ليسعى إليها بالطاعة والالتزام.

وَأَمَّا قَوْلُ الْعُلَمَاءِ: «ومن عبَدَ الله بالرجاء وحده، فهو مرجئ» وهذا حال أكثر الناس، وإن كان لا يعرف معنى الإرجاء، لكن حاله يدل على ذلك، فتجده يقول: الله غفور رحيم، ونحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكلما نصحته يأتيك بالرجاء، أما والخوف -الله شديد العقاب- فهذا لا يريدونه، والنار لا تذكرها»^(٣).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٧٢٢٩) / ٤ / ٢٢٠٥.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله تعالى (٦٩٨١) / ٤ / ٢٠٦١.

(٣) التعليق على فتح المجيد ١ / ١١٧ - ١١٨ باختصار.

المحور الرابع: شروط العبادة:

يقول الشيخ السعدي: «وإنما تكون العبادة عبادة، إذا كانت مأخوذةً عن رسول الله ﷺ مقصوداً بها وجه الله. فبهذين الأمرين تكون عبادة»^(١).

«للعبادة ثلاثة شروط:

الأول: صدق العزيمة. الثاني: الإخلاص. الثالث: متابعة الرسول، فالأول شرط في صدور العبادة ووقوعها، والآخران شرطان في قبولها. وتفصيل ذلك في النقاط التالية:

الشرط الأول: صدق العزيمة:

وهو أن يبذل العبد جهده في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه والاستعداد للقاء الله وترك العجز وترك التكاسل عن طاعة الله وإمساك النفس بلجام التقوى عن محارم الله وطرد الشيطان عنه بالمداومة عن ذكر الله والاستقامة على ذلك كله ما استطاع، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

الشرط الثاني: الإخلاص:

وحقيقته: أن يكون قصد العبد وجه الله ﷻ والدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتِي ۗ الَّذِي يُوَفِّي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۗ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۖ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۗ وَسَوْفَ يُرْضَىٰ﴾ [الليل: ١١].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيهَا مَدْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [١٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣٩.

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَكَلْبًا مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

الشرط الثالث: المتابعة:

أي متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو شرط لازم لقبول العبادة من العبد، فيعبد الله تعالى وفق ما شرع وهو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢)، وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٣).

❖ فإخلاص النية بدون صدق العزيمة هوس وتطويل أمل وتمنٍ على الله وتسويق في العمل وتفريط فيه، وصدق العزيمة بدون إخلاص يكون شرگاً أكبر أو أصغر بحسب ما نقص من الإخلاص، وإخلاص النية إن لم يكن العمل وفق السنة كان بدعاً وحدثاً في الدين، وشرع ما لم يأذن به الله، فيكون ردّاً على صاحبه ووبالاً عليه -والعياذ بالله-

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)، ومسلم في كتاب الإمارة بقوله قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنية» (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً، باب النجش، ومن قال لا يجوز ذلك البيع، ومسلم كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

ولذا قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الملك]: «أخلصه وأصوبه، يعني خالصاً من شوائب الشرك موافقاً للسنة»^(١) (٢).

المحور الخامس: شمولية العبادة في الإسلام:

إن مدلول العبادة في الإسلام أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر؛ بل يكلفهم مع الشعائر ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم. نعرفها من القرآن من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فهي الخلافة في الأرض. وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكوناتها، وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام.

وهذا لن يكون إلا إذا كانت حياة الإنسان كلها لله تعالى، ولذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٢] لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

كيف لا تكون حياتنا كلها لله وهو الذي خلقنا ولم يتركنا هملاً بل أرسل إلينا رسولاً بشرع تام كامل قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[المائدة: ٣].

(١) معالم التنزيل للبخاري ١٧٦/٨.

(٢) مختصر معارج القبول ص ٦٦ - ٦٨ باختصار.

وهذا رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن العادات بالنية الصالحة تتحول إلى عبادات فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور! يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(١).

قال القرطبي: «وفيه دليل: على أن النيات الصادقات تصرف المباحات إلى الطاعات»^(٢).

وتمثل الصحابة رضوان الله عليهم هذا التوجيه فقد ثبت عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لأبي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال: قائماً، وقاعداً، وعلى راحلتي. فقال معاذ أما أنا فأنام وأقوم فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي^(٣).

قال النووي رحمه الله تعالى معلقاً على هذا الأثر: «معناه أي أنام بنية القوة واجتماع النفس للعبادة وتنشيطها للطاعة فأرجو في ذلك الأجر كما أرجو في قومتي أي صلواتي»^(٤).

وقال ابن حجر: «ومعناه أنه يطلب الثواب في الراحة كما يطلبه في التعب، لأن الراحة إذا قصد بها الإعانة على العبادة حصلت الثواب»^(٥).

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٢١ / ٩.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٤٣٤٥).

واللفظ له، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب في الأمر بالتيشير وترك التنفير (١٧٣٣).

(٤) شرح النووي على مسلم ٢٠٩ / ١٢.

(٥) المصدر السابق.

وعلى ذلك فكل عمل يعمله المسلم يحتسب فيه الأجر عند الله فهو عبادة يؤجر عليها، ولذلك كان السلف رضي الله عنهم يوصون بتعداد النية في العمل الواحد ليحصل على طاعات كثيرة من عمل واحد.

المطلب الثاني: الاستعانة لله وحده:

أولاً: معنى الاستعانة:

الاستعانة لغة: مصدر استعان وهو من العون بمعنى المعاونة والمظاهرة على الشيء، وهي طلب العون^(١).

والاستعانة شرعاً هي: الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك^(٢).

وقال ابن تيمية رضي الله عنه: «طلب العون من الله»^(٣).

ثانياً: فضل الاستعانة وأهميتها:

يقول ابن تيمية: «وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ولا ينفع، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم. فلذلك أمر العبد أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في كل ركعة»^(٤).

قال ابن القيم رضي الله عنه: «الاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه.

فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغناؤه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به.

(١) انظر: لسان العرب ٥/٣١٧٩-٣١٨٠، والصحاح للجوهري ٦/٢١٦٨-٢١٦٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩.

(٣) مجموع الفتاوى ١/١٠٣.

(٤) المصدر السابق.

والتوكل معنى يلتزم من أصليين من الثقة والاعتماد وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلان هما: التوكل والعبادة، وقد ذكرا في القرآن وقرن
بينهما في عدة مواضع وهي:

١- قال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود].

٣- قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا عَلَّمَكُنَا نِعْمَةَ الْإِسْلَامِ وَإِلَيْكَ آتَيْنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة].

٤- قوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [٨] رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى].

◉ فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

◉ ثالثاً: الاستعانة بالأعمال الصالحة:

أمر الله عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة].

قال ابن جرير: «استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتموني في كتابكم من طاعتي واتباع أمري، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى، واتباع رسولي محمد ﷺ - بالصبر عليه والصلاة»^(١).

رابعاً: حاجة الإنسان إلى إعانة الله تعالى:

قال شيخ الإسلام: «العبد مجبولٌ على أن يقصد شيئاً ويريده؛ ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده، هذا أمرٌ حتمٌ لازمٌ ضروريٌّ في حق كل إنسان يجده في نفسه.

لكن المراد والمستعان على قسمين:

القسم الأول: ما يُستعان به لنفسه فيكون هو الغاية الذي يعتمد عليه العبد ويتوكل عليه ويعتضد به، ليس عنده فوقه غاية في الاستعانة.

القسم الثاني: ما يكون تبعاً لغيره، بمنزلة الأعضاء مع القلب؛ والمال مع المالك؛ والآلات مع الصانع»^(٢).

وقال ابن رجب: «العبد محتاجٌ إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها، في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»^(٣).

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكلَّه الله إلى من استعان به فصار مخذولاً. كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه»^(٤).

(١) جامع البيان ١/ ٢٩٨.

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٣٥ - ٣٧ باختصار.

(٣) أخرجه مسلم كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله (٢٦٦٨).

(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٨٢.

وقال الشيخ ابن سعدي: «وذكر (الاستعانة) بعد (العبادة) مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر، واجتناب النواهي^(١)».

❖ خامساً: أوجه الاستعانة بالله تعالى:

طلب المعونة من الله تعالى على وجهين:

الأول: أن يسأل الله تعالى من أطفاه ما يقوي دواعيه ويسهل الفعل عليه.

الثاني: أن يسأل الله تعالى البقاء على كونه قادرًا على طاعته المستقبلية بأن يجدد له القدرة حالًا بعد حال^(٢).

قال ابن القيم: «الحنيئية المحضة: وهي القيام بالأمر ومطالعة التقصير فيه... فإنه إذا بذل الطاعة لله وبالله صانه ذلك عن الاتحاد والشرك، وإذا شهد تقصيره فيها صانه عن الإعجاب، فيكون قائما بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»^(٣).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «أي: نطلب العون: على عبادتك، أو على ما لا طاقة لنا به، أو على محاربة الشيطان المانع من عبادتك، أو في أمورنا بما يصلحنا في دنيانا وديننا. والجامع للأقاويل: نسألك أن تعيننا على أداء الحق وإقامة الفروض وتحمل المكاره وطلب المصالح»^(٤).

وقد أطلق الله سبحانه فعل الاستعانة ولم يحدد ما نستعينه عليه، لتشمل كل شيء يريده الداعي ربه بها لأن الاستعانة غير مقيدة بأمر محدد. قال السمين: «والمستعان عليه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩.

(٢) موسوعة فقه القلوب ١/ ١٧٧.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤١٨ باختصار.

(٤) روح البيان ١/ ١٠.

محذوفٌ؛ لِيُعَمَّ جميعَ الأحوالِ المستعانِ عليها^(١). وقال شيخه أبا حيان: «أطلق العبادة والاستعانة لتناول كل معبود به وكل مستعان عليه. وكرر «إياك» ليكون كل من العبادة والاستعانة سيقا في جملتين، وكل منهما مقصودة، وللتنصيص على طلب العون منه^(٢)».

سادساً: أحوال الناس في الاستعانة:

والناس بالنسبة للعبادة والاستعانة أربعة أصناف:

- ١- من يَعْبُد وَيَسْتَعِين، وهذا هو صاحب الصراط المستقيم.
- ٢- من لا يَعْبُد ولا يَسْتَعِين فأولئك كالأنعام.
- ٣- ومنهم من يَعْبُد ولا يَسْتَعِين مثل بعض الذين يتركون ممارسة الأسباب في الحياة مُدَّعِينَ التوكل على الله.
- ٤- ومنهم من يَسْتَعِين ولا يَعْبُد كحال بعض من يستعين بالله تعالى على طلب شهواته وملذاته، ولا يقوم بعبادته^(٣).

المطلب الثالث: تقديم العبادة على الاستعانة:

ذكر ابن القيم رحمة الله تعالى بعض الحكم في تقديم العبادة على الاستعانة

فقال ﷺ:

«وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة:

- ١- من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها والاستعانة وسيلة إليها.

(١) الدر المصون ١/ ٣٣٠.

(٢) البحر المحيط ١/ ٤٤.

(٣) انظر: مدارج السالكين ١/ ٩٠ - ٩٤ باختصار.

- ٢- ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته.
- ٣- مناسبة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم الله على الرب في أول السورة، حيث إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد فكان من الشطر الذي له وهو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.
- ٤- ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم ولهذا كانت قسم الرب.
- ٥- ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس.
- ٦- ولأن الاستعانة طلب منه والعبادة طلب له، فقدم ما هو له على ما هو منه.
- ٧- ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.
- ٨- ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك والاستعانة طلب العون على العبادة وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.
- ٩- ولأن العبادة شكر نعمته عليك والله يحب أن يشكر والإعانة فعله بك وتوفيقه لك فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقعها أعانك عليها فكان التزامها والدخول تحت رقعها سببا لنيل الإعانة وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.
- ١٠- والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها وإعانة بعدها على عبودية أخرى وهكذا أبدا حتى يقضي العبد نجه.

١١- ولأن إياك نعبد له وإياك نستعين به وماله مقدم على ما به^(١).

١٢- قال ابن كثير رحمه الله: «وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم. والله أعلم»^(٢).

المطلب الرابع: وقفات تربوية منهجية مع العبادة والاستعانة:

الوقفه الأولى: السعادة تأتي من العبادة والاستعانة:

يقول الشيخ السعدي: «والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما»^(٣).

الوقفه الثانية: العبادة والاستعانة وفاء بالعهد الذي يقطعه المسلم في كل ركعة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قال مجدي عبدي. - وقال مرة فوض إليَّ عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل. فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧. قال: هذا لعبي ولعبي ما سأل»^(٤). فقله: «هذا بيني وبين عبدي» إشارة إلى أن هذا عهد بين العبد وربه أن لا يعبد إلا الله وأن لا يستعين بأحد غير الله.

(١) مدارج السالكين ١/ ٨٧- ٨٨ بتصرف يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

قال الإقليشي: «أيُّ عبد توجَّه إليَّ بالعبادة وسألني العون عليها فعبادته متقبلة، والعون مني له عليها حاصل حتى يُوقعها على وجهها، فالعبادة وصف العبد، والعون من الله تعالى للعبد»^(١).

الوقفه الثالثة: أهمية العمل الجماعي في الطريق إلى الله:

فقد عبّر سبحانه عن الاستعانة والعبادة بلفظ ضمير الجمع «نعبد ونستعين» وليس بالتعبير المفرد: أعبد وأستعين، وفي هذا إشارة إلى أهمية الجماعة في الإسلام لذا تلزم قراءة هذه السورة في الصلاة، ويلزم منه أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين مرة، إضافة إلى أن المؤمنين أخوة فلو قال: إياك اعبد لأغفل عبادة إخوته المؤمنين؛ وعندما نقول: «إياك نعبد» فإننا نذكر كل المؤمنين ويدخل القائل في زمرة المؤمنين أيضا.

الوقفه الرابعة: إعلان كرامة الإنسان وخرره من كل ما يزله:

فهذه الآية وسط بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد! وهذه الآية تعلن ميلاد التحرر الكامل الشامل للمسلم من أي معبودٍ دون الله، وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد، والله وحده هو الذي يُستعان، فقد تخلص المسلم من استذلال الأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات.



المبحث التاسع

طلب العداية إلى الطريق المستقيم

قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

هاتان الآيتان تمثلان التطبيق العملي للعبودية الخالصة الْمُتَجَرَّةَ لله تعالى المتمثلة في الدعاء بالهداية إلى الطريق المستقيم. ويمكن دراسة هذا المعنى العظيم من سورة الفاتحة من خلال خمسة نقاط كالتالي:

المحور الأول: أنواع الهداية ومعانيها:

«الهداية أربعة أنواع:

النوع الأول: الهداية العامة المشتركة بين الخلق:

قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ وَتُرْهُدَى﴾ [طه: ٥٠]، أي: أعطى كل شيء صورته، التي لا يشبهه فيها غيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره وهداية الجمال المسخر لما خلق له فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها

وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدي الرجلين للمشي واليدين للبطش والعمل واللسان للكلام والأذن للاستماع والعين لكشف المرئيات وكل عضو لما خلق له وهدي الزوجين من كل حيوان إلى الإزدواج والتناسل وتربية الولد وهدي

الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه مراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين

﴿ وهدي النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذلة لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والإتتمام به أين توجه بها ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء ومن تأمل بعض هدايته المثبتة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.﴾

﴿ النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر:﴾

﴿ هذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَحْيَ عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَِعْقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت]، أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا.﴾

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان]، أي: «لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية، لننظر أيشكر أم يكفر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟ فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، ليسمع الآيات المنزلة، ويصير الدلائل الكونية، على وجود الخالق الحكيم، فأعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر.. وبين للإنسان وعرفه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعثة الرسل، وإنزال الكتب.. فبعد أن ركبها وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بين له سبيل الهدى والضلال، ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر، أو يكفر»^(١).

(١) صفوة التفاسير ٣/ ٤٦٧ باختصار وتصرف.

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام:

وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] فنفي عنه هذه الهداية. وفي قول النبي ﷺ: «من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له»^(١).

النوع الرابع: الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلها إليهما:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٦]، وقال أهل الجنة فيها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿أَحْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [من دون الله فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ] [الصافات: ٢٢]^(٢).

المحور الثاني: شروط تحقق هداية التوفيق:

«الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبا للرب تعالى مرضيا له فيؤثره، وكونه مغضوبا له مسخوطا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريداً لجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازما عليه، ومريداً لترك جميع ما نهى الله عازما على تركه بعد خطوره بالبال، مفصلاً وعازما على تركه من

(١) أخرجه أبو داود كتاب النكاح باب خطبة النكاح (٢١٢٠) وصححه الألباني.

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٥٤.

حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً فإن نَقَصَ من فعله شيء نقص من هداه بحسبه^(١).

المحور الثالث: أقسام الهداية من حيث تحقيقها وكيفية تكميلها:

«الأول: أمور هُديَ إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمرو هُديَ إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هُديَ إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها^(٢).

المحور الرابع: الهداية المقصودة في الآية:

للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال:

- ١- هداية التوفيق والسداد.
- ٢- هداية الدلالة والإرشاد.
- ٣- هداية التوفيق والدلالة والتثبيت، وهو الراجح أي: «دلنا عليه واسلك بنا فيه وثبتنا عليه»^(٣)، وهو قول أكثر أهل التفسير.

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥٦.

(٢) التفسير القيم لابن القيم ١/ ١٣٥.

(٣) الوجيز للواحد ١/ ٨٩.

المحور الخامس: أهمية طلب الهداية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أنفع الدعاء، وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر، لا في الدنيا ولا في الآخرة. لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب. فالعبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم، وإلى أن يُلهم أن يعمل ذلك. فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله الله مريدًا للعمل بعلمه، وإلا كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهديًا، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادرًا على العمل بتلك الإرادة الصالحة، فإنه لا يكون مهديًا إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلا بهذه العلوم والإرادات، والقدرة على ذلك. ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه، ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة؛ لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء»^(١).

ويقول في موضع آخر: «إِنَّ كُلَّ عَبْدٍ فَهُوَ مُضْطَرٌّ دَائِمًا إِلَى مَقْصُودِ هَذَا الدَّعَاءِ وَهُوَ هِدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ، وَلَا وُصُولَ إِلَى السَّعَادَةِ إِلَّا بِهِ، فَمَنْ فَاتَهُ هَذَا الْهَدْيُ: فَهُوَ إِمَّا مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ أَوْ مِنَ الضَّالِّينَ. وَهَذَا الْإِهْتِدَاءُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِهَدْيِ اللَّهِ ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف]»^(٢).

فالوصول للحق ثم التوفيق لفعله ثم الثبات عليه لن يأتي إلا بهداية الله تعالى للعبد، فقد يحصل للعبد العلم ولا يوفق للعمل، وقد يحصل له العلم والتوفيق للعمل لكنه لا يوفق للثبات عليه.

(١) الحسنة والسيئة ٣/ ٨٣.

(٢) فلسفة السعادة عند ابن تيمية ١/ ٢.

﴿ فالمعرفة والاستقامة إنما هما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، وإنَّ التوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين المستعان على ذلك، وهذا أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه. ﴾

﴿ فالهداية إلى الطريق المستقيم ضمانٌ للسعادة في الدنيا والآخرة عن يقين، وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى دين الله الذي يحكم حركة الإنسان ويجعلها تتسق مع الوجود كله في التوجه إلى الله رب العالمين. ﴾

* * *

المبحث العاشر

بيان العداية المطلوبة في السورة

المحور الأول: الهداية إلى الطريق الحق:

﴿ الهداية المطلوبة هي: الدلالة والتوفيق إلى ﴿ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ و«هو: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»^(١).

قال ابن كثير رحمه الله: «ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروي أنه كتاب الله، وقيل: هو الإسلام، وقال مجاهد: هو الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم.

﴿ وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ، واقتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، والله الحمد»^(٢).

«وفي وصف ﴿ الصِّرَاطِ ﴾ بـ ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ إيماءٌ إلى أن الإسلام واضح الحجة قويم المحجة لا يهوي أهله إلى هوة الضلالة»^(٣) قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ

(١) جامع البيان ١/ ١٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٣٨-١٣٩ باختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٩٧.

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ [الشورى]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

المحور الثاني: وصف الصراط المستقيم:

الوصف الأول: صفة أهل الصراط المستقيم:

وصف الله تعالى هذا الصراط بصفة أهله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ «من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين»^(١).

«فالله تعالى لم يبين لنا هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم؟ ويبيّن ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء]»^(٢).

«وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه»^(٣).

وفي الآية «دليل على أن الاستضاءة بأنوار أرباب الكمال خلّة محمودة وسنة مرضية»، «قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»^(٤) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]»^(٥).

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩.

(٢) أضواء البيان ٨/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/١٤٠.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب فضل التسييح (٦٤٠٥)، وأخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩) بلفظ: (هم القوم..).

(٥) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ١/١١٦.

الوصف الثاني: صفة المخالفين للطريق المستقيم:

قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

أي: «غير صراط ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط ﴿الضَّالِّينَ﴾ وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلال لا يهتدون إلى الحق.

ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكن لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوبٌ عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال تعالى عنهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] (١).

«واليهود والنصارى وإن كانوا ضالين جميعاً فهم مغضوبٌ عليهم جميعاً، فإن الغضب إنما خص به اليهود، وإن شاركهم النصارى فيه، لأنهم يعرفون الحق وينكرونه ويأتون الباطل عمداً، فكان الغضب أخص صفاتهم. والنصارى جهلة لا يعرفون الحق، فكان الضلال أخص صفاتهم» (٢).

«يشمل المغضوب عليهم والضالون: فرّق الكفر والفسوق والعصيان، فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد أو

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٤١.

(٢) أضواء البيان ١/ ٩.

عن تأويل بعيد جداً، والصالون جنسٌ للفرق التي أخطأت الدين عن سوء فهم وقلة إصغاء، وكلا الفريقين مذموم لأننا مأمورون باتباع سبيل الحق وصرف الجهد إلى إصابته، واليهود من الفريق الأول والنصارى من الفريق الثاني»^(١).

«وإنما ذكر تعالى هذه الجملة لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين في إنعام كثيرٍ عليهم، فبين بالوصف أن المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة، بل ذلك نعمة خاصة»^(٢).
وفيها «إشارة إلى أن التجنب عن مرافقة أصحاب البدع والأهواء واجب»^(٣).

المحور الثالث: لسعة بيانية تربوية في بيان الصنفين:

«فإن قيل: لم قال: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: المنعم عليهم كما قال: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟

وجوابه: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن الكريم، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حُذِفَ وُبنِيَ الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب، وإضافته إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله.

فمنه: هذه الآية فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقال في الإحسان: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾^(١) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ^(٢) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ^(٣) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ^(٤) [الشعراء]

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٢٦.

(٢) محاسن التأويل ٢/ ٢٥٧.

(٣) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ١/ ١١٦.

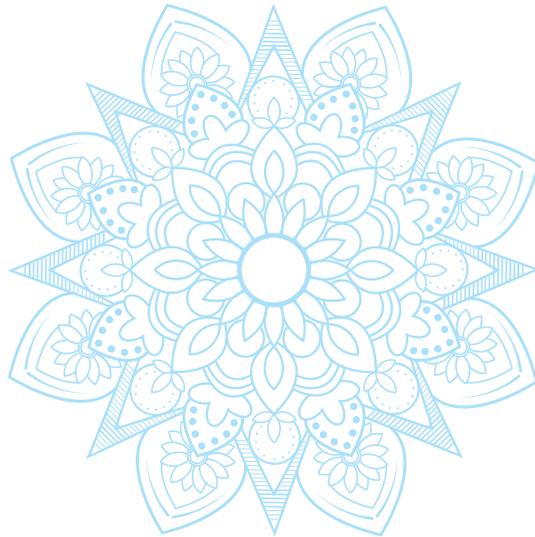
فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى ولما جاء ذكر المرض قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَأَنْدَرِي أَسْرَأُ يَدِي مَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهَرَزٍ هُمْرًا شَدًّا﴾ [الجن]، فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر وبنوا الفعل للمفعول^(١).



القسم الثاني

تفسير قصار المفصل



القسم الثاني تفسير قصار المفصل تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرَ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَدَّث ⑪﴾.

المبحث الأول

مقدمة حول السورة

أولاً: نزولها ومناسبتها:

هي مكية باتفاق^(١)، وهي أول سورة في قصار المفصل.

أما عدد آياتها: (١١)، وكلماتها: (٤٠)، وحروفها: (١٧٢)^(٢).

(١) المحرر والوجيز ٤٨٦/١٥، والجامع لأحكام القرآن ٩١/٢٠، ولم يذكرها صاحب الإتيقان في السور

المختلف فيها، الإتيقان ١/٣٠.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧٣/٣.

وورد في سبب نزولها: عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فجاءت امرأة فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا. فأنزل الله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (١).

مناسبتها لما قبلها:

«أقسم سبحانه في سورة «الليل»، بالليل إذا يغشى، وبالنهار إذا تجلّى..

وبدأ بالقسم بالليل، ثم أعقبه بالقسم بالنهار..

وهنا يقسم الله سبحانه بالنهار أولا «و الضحى» ثم بالليل ثانيا.. «و لليل إذا سجى» وبهذا يتوازن الليل والنهار، فيقدم أحدهما في موضع ويقدم الآخر في موضع، ولكل من التقديم والتأخير في الموضوعين مناسبتة.. وقد أشار قبل إلى تقديم الليل على النهار في سورة الليل، وهنا كانت المناسبة تقديم النهار على الليل» (٢).

ثانياً: موضوعها:

«إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم قد انقطع عنه، وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه وذلك يغيب المشركين.

ثم ذكره الله بما حفه به من اللطافة وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله، وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها مع نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله» (٣).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة الضحى (٤٩٥٠)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب

ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٧).

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٧٣. بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٩٣.

﴿ فهذه السورة فيها عدة أمور: ﴾

قَسَمٌ: ﴿ وَالصُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَىٰ ٢ .

وتوضيح: أنه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾ .

وبُشْرَى: بأنه ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ ﴾ .

ووعدٌ: بأنه ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ٥ ﴾ .

وامتنانٌ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ ﴾ .

ووصيةٌ: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

فَحَدِّثْ ١١ ﴾ .

﴿ ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة: ﴾

أقسم الله تعالى بوقت الضحى، والمراد به النهار كله، وبالليل إذا سكن بالخلق واشتد ظلامه. ثم بين الله تعالى لنبيه أنه ما تركه، وما أبغضه بإبطاء الوحي عنه، ثم بشره بأن الدار الآخرة خير من دار الدنيا، وأن الله سيعطيه من أنواع الإنعام في الآخرة، ما يرضيه بذلك.

ثم امتن الله عليه بعدد من المنن أولها: ألم يجدك من قبل يتيمًا، فأواك ورعاك. ووجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال. ووجدك فقيرًا، فساق لك رزقك، وأغنى نفسك بالقناعة والصبر.

وبعد ذلك أوصاه بثلاثة وصايا وهي: فأما اليتيم فلا تسئ معاملته، وأما السائل فلا تزجره، بل أطعمه، واقض حاجته، وأما بنعمة ربك التي أسبغها عليك فتحدث بها^(١).

(١) التفسير الميسر باختصار وتصرف ص ٥٩٦.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول: وقفات مع المقسم به والمقسم عليه:

﴿أولاً: المقسم به: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ① و﴿الَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ②﴾

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ أي: سطوع الضوء وعظمه^(١)، «ومناسبة القسم بـ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس؛ فهو إيماؤه إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: سكن واستقر ليلاً تاماً»^(٢).

«والتعبير عنه بالضحى لأنه وقت قيام سلطانها وكمال إشراقها»^(٣).

«والضحى هو ضحوة النهار، وهي محل الحركة والكدح والجهد والتعب»^(٤).
و«التعبير عن النهار بالضحى، وهو ضوء الشمس أول النهار في قوله: ﴿وَأَخْرَجَ صُحُوهَا﴾ ③ [النازعات]؛ أي: أبرز نهارها، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها على طريقة تسمية المحل باسم أشرف ما حلَّ فيه، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السر في تأخير ذكره عن ذكر الليل»^(٥).

وإن «الله ﷻ بقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ① و﴿الَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ② يرد هؤلاء إلى ظاهرة كونية مُشاهدة ومُعترف بها عند الجميع، وهي أن الله خلق النهار وجعله محلاً للحركة

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٩٤.

(٢) المحرر الوجيز ١٥ / ٤٨٦.

(٣) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٠٢، روح البيان ١٠ / ٣٢٤.

(٤) تفسير الشعراوي ٥ / ٢٨٢٧-٢٨٢٨.

(٥) تفسير حدائق الروح والريحان ٣١ / ١١١.

والنشاط والسعي، وخلق الليل وجعله مَحَلًّا للراحة والسكون، فيرتاح الإنسان في الليل ليعاود نشاطه في الصباح من جديد.

وهكذا أمر الوحي مع رسول الله ﷺ، لا لتنتهي المسألة بلا عودة، بل ليُجدد نشاط النبي، ويُشوّقه للوحي من جديد؛ لذلك بشره بقوله: ﴿وَلِأَخْرَجُ خَيْرًا لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي: انتظر يا محمد، فسوف يأتيك خير كثير.

فالحق سبحانه يُرجعهم إلى ظواهر الكون، وإلى الطبيعة التي يعيشون عليها، فأنتم ترتاحون من عناء النهار بسكون الليل، فلماذا تنكرون على محمد أن يرتاح من عناء الوحي ومشقته؟ وهل راحتكم في سكون الليل تعني دوام الليل وعدم عودة النهار!!^(١).

إنَّ الليل الساجي الذي يَرُقُّ ويسكن ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة شفيفة، مع التأمل الوديع، كجو اليتيم والعيلة، ثم ينكشف ويجلي مع الضحى الرائق الصافي، فتلتئم الصورة، ويتم التناسق والاتساق.

إن هذا الإبداع في كمال ليدل على الصنعة - صنعة الله التي لا تماثلها صنعة، ولا يتلبس بها تقليد!.

﴿ثَانِيًا: الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾:

إن جواب القسم هو قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ «أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة»^(٢).

﴿أما قوله: ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي: وما أبغضك^(٣).

(١) تفسير الشعراوي ٩٤١٤/١٥ باختصار.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٥/٨.

إن الوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله، كانت هي: زاد الرسول ﷺ في مشقة الطريق، وسقياه في هجير الجحود، ورؤحه في لأواء التكذيب، وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيتها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة، ويعانيتها في المكر والكيد والأذى المصوب على الدعوة؛ وعلى الإيمان، وعلى الهدى من طغاة المشركين.

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه ينبوع، واستوحش قلبه، وبقي للهاجرة وحده بغير ما اعتاد من صلة الله الودود به بالوحي، وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه، وخصوصاً أنه في بداية أمر الدعوة.

◉ ثالثاً: الحكمة من فتور الوحي:

تحدث علماء السيرة قديماً وحديثاً عن فترة الوحي، فقال ابن حجر: «وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروح، وليحصل له التشوق إلى العود^(١)».

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ قال وهو يحدث - أي بحديث النبي ﷺ - عن فترة الوحي: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَتَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالْجُبْنَ فَهَجِّرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ١-٥] فحمي الوحي وتابع^(٢)».

قال المبار كفوري: أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أياماً، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ﷺ ما يفيد ذلك^(٣)، وأما ما اشتهر

(١) فتح الباري ١/ ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي باب ٣ ح (٤). ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي (١٦١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٤/ ٤٨٦ بلفظ (أبطأ عنه جبريل أياماً)...

من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصف فليس بصحيح^(١)، وقد بقي ﷺ في فترة الانقطاع حزيناً كثيراً تعتره الحيرة والدهشة^(٢)، وأما ما يقال أن ذلك جعله يغدو ليتدري من شواهد الجبال، وأن جبريل ﷺ كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي ﷺ^(٣).

المطلب الثاني: بشرى ووعد من الله لنبيه محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۗ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۗ﴾

﴿أما البشري: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۗ﴾ أي: «كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة»^(٤).

والمراد أن «الدار الآخرة: خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهى الناس في الدنيا، وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم من سيرته. ولما خيّر ﷺ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية»^(٥).

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «إن عبداً خيّر الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختر ما عنده»، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: فدينناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له!! وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول:

(١) انظر: فتح الباري ٨/ ٧١٠.

(٢) الرحيق المختوم ص ٧٩-٨٠.

(٣) الروض الأنف للسهيلي ٢/ ٤٣٣-٤٣٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٨.

(٥) المصدر السابق.

فدينك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به^(١).

﴿وَأَمَّا الْوَعْدُ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾﴾ أي: «لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام. فهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة»^(٢).

ويشمل أيضاً: «أن يعطيه في الدار الآخرة حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر. وقيل: من رضاء محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته الذين ماتوا على سنته وهدية النار، وقيل معنى العطاء: الشفاعة»^(٣).

المطلب الثالث: صور رحمة الله تعالى ورعايته لنبيه ﷺ:

قال تعالى: ﴿الْمَرْيَدُ يَتِمُّمَا فَوَيْ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۖ﴾

يمضي سياق السورة يُذَكِّرُ الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق. ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي وذلك من خلال الصور التالية:

الصورة الأولى: الحفظ والرعاية: ﴿الْمَرْيَدُ يَتِمُّمَا فَوَيْ ۖ﴾

«وذلك أن أباه تُوَفِّي وهو حَمْلٌ في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب. ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويؤقره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن

(١) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٤)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر الصديق ٢٣٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٨.

(٣) انظر هذه الأقوال في: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٦/٨ بتصريف واختصار.

تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجّهالهم، فاختر الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل. فلما وصل إليهم آووه ونصروه وأحاطوه وقتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به»^(١).

الصورة الثانية: التوفيق والهداية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾:

قال ابن كثير: «هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانَ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّا لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق»^(٢).

والمعنى: لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحك إليها، ولكنك لم تكن تجد لك طريقًا واضحًا مطمئنًا، لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى ﷺ الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا، ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك، وبالمنهج الذي يصلك به. إن الهداية من حيرة العقيدة وضلال الشُعاب فيها هي المنة الكبرى، التي لا تعدلها منة؛ وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق؛ ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة، من انقطاع الوحي وشماتة المشركين، فجاءت هذه الآيات تُذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه!

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٦/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الله ﷻ هدى نبيه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه] وهذا يقتضي أنه كان عالماً، وأنه أمر بطلب المزيد من العلم، ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَتَاكَ لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى]، فمن يهدي الخلق كيف يكون حائراً والله قد ذم الحيرة في القرآن في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وفي الجملة فالحيرة من جنس الجهل والضلال ومحمد ﷺ أكمل الخلق علماً بالله وبأمره، وأكمل الخلق اهتداءً في نفسه، وأهدى لغيره، وأبعد الخلق عن الضلال والجهل قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا صَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم] (١).

الصورة الثالثة: الرزق والمنة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾:

العائل: «الذي لا مال له، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: «بما فتح الله عليك من البلدان، التي جُيِّتْ لك أموالها وخراجها» (٢). وقيل: أي «فأغناك بخديجة رضي الله عنها. وقيل: فرضاك بما أعطاك من الرزق، وقيل: قنعك بالرزق، وقيل: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك، وقيل: وجدك فقيراً من الحجج والبراهين، فأغناك بها» (٣).

ويدخل في ذلك نشأته ﷺ في مكة في قبيلة قريش التي كانت تتاجر في الشتاء والصيف، وكانت مشهورة بذلك، وكانت قائمة على أمور الحج، وهذا أعطها مركزاً تجارياً عظيماً في المنطقة، بينما هي في مكان يصعب العيش فيه، كما في قوله تعالى

(١) الفتاوى الكبرى ٥/٥٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨ باختصار..

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩٩-١٠٠ مختصراً.

حكاية عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم].

فإبراهيم عليه السلام دعا لهذه المنطقة أن تكون منطقة مليئة بالثمرات فاستجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام فقال تعالى ممتناً عليهم: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الفصل].

وقال تعالى: ﴿لِيَلَيْفَ فُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطَعَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾.

فنشأة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المنطقة الفقيرة الخالية من الثمرات، ثم بتيسير الله وفضل من الله أصبحت هذه المنطقة من أغنى المناطق وأوفرها رزقاً، كل ذلك فضل من الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم لما هاجر إلى المدينة المنورة لم تكن أقل من مكة في التجارة والخير بل كانت مركزاً تجارياً، وبه مجموعة كبيرة من التجارات كما في مكة، وبلداً زراعياً.

وكذلك أنعم الله عليه بالغنى بالأولاد والذرية، والصحة والأخلاق الرفيعة، والسُّمعة الحسنة والجاه الرفيع، وهذه المعاني كلها داخلة في الآية ولا شك، لكنها على سبيل المثال لا الحصر. فهذه دعوة الله تعالى ييسر لها السبل والطرق والأشخاص والغنى بجميع أشكاله؛ غنى في الرزق، وفي النفس، وفي الأسرة وفي الصحة، والعافية، وفي الأخلاق الكريمة.

﴿ وهذا كله لكي نقوم بالدعوة إلى الله حق القيام، فما على الدعاة إلا استغلال هذا الغنى المتاح، وألاً ينظروا إلى العقبات والمشكلات؛ بل ينظروا إلى الحلول والإمكانات المتاحة.﴾

المطلب الرابع: واجب النبي ﷺ تجاه هذه النعم:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۗ﴾ (١).
هذه ثلاث واجبات مقابل النعم الثلاث، فالذي أزال عنك هذه النقائص،
سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته
بالشكران بفعل الواجبات الثلاث:

الواجب الأول: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾: وهذا يقابل نعمته في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (أي: كما كنت يتيمًا فأواك الله؛ فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهره وتؤهنه،
ولكن أحسن إليه، وتلطف به. وقيل: كن لليتيم كالأب الرحيم) (١)، «ولا تسيء معاملة
اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره. بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما
تحب أن يصنع بولدك من بعدك» (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين». وأشار بالسبابة والوسطى (٣).

الواجب الثاني: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾: وهذا يقابل نعمته في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (أي: وكما كنت ضالًّا فهداك الله، فلا تنهر
السائل في العلم المسترشد. وقيل: فلا تكن جبارًا، ولا متكبرًا، ولا فحاشًا، ولا فظًّا
على الضعفاء من عباد الله. وقيل: يعني رد المسكين برحمة ولين) (٤).

«وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٧/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفاق باب الإحسان إلى الأرملة واليتيم والمسكين (٢٩٨٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٧/٨.

بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد»^(١).

وقد كان رسول الله ﷺ كذلك: فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أمياه!! ما شأنكم تنظرون إلي. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ؛ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ يوصي بطلاب العلم: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، وأقنوهم»^(٣)»^(٤).

وعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متكئ في المسجد على برد له، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم. فقال: مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم لتحفة الملائكة وتظله بأجنحتها ثم يركب بعضه بعضها حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب فما جئت تطلب؟ قال صفوان:

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧) مطولاً.

(٣) أقنوهم: أي علموهم، انظر: تحفة الأخوذ ٣٤٣/٧، وقال السيوطي: أي علموهم واجعلوا لهم قنية من العلم يستغنون بها إذا احتاجوا إليه والقنية بالكسر والضم ما اكتسبه وخزنه لحاجته، انظر: شرح سنن ابن ماجه: ٢٢/١ بتصرف.

(٤) أخرجه ابن ماجه باب الوصية بطلبة العلم (٢٤٧) وحسنه الألباني انظر: الصحيحة ٢٨٠ وصحيح سنن

ابن ماجه (٢٠١).

يا رسول الله لا نزال نساfer بين مكة والمدينة فأفتنا عن المسح على الخفين؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ثلاثة أيام للمسافر ويوم وليلة للمقيم»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أن النبي ﷺ قال: «يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيرًا»، قال الراوي: وكان أبو سعيد إذا رآنا قال: «مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ» وفي لفظ: قال الراوي - وهو أبو هارون العبدى - : «كنا نأتي أبا سعيد فيقول: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: إن الناس لكم تبع، وإن رجالًا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا»^(٢).

هذا في مجال السؤال والتعليم أما في مجال المعاملات فحدث ولا حرج، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربهم فإن الله يقربك يوم القيامة»^(٣).

الواجب الثالث: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ وهذا يقابل نعمته في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: «أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة. وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن»^(٤).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨ / ٥٤٧ ح (٧٣٤٧) وحسنه في صحيح الترغيب والترهيب (٧١). وانظر: الصحيحة (٣٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن حبان ١٥ / ٦٩ (٦٦٧٧) قال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيحين إلا أنه مرسل، وحلية الأولياء ٩ / ٢٥٣.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٥٢٦)، قال الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح وضعيف الترغيب والترهيب برقم (٣١٩٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

وقيل: «أي: أنشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولغيره»^(١).

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «إذا أصبت خيراً، أو عملت خيراً، فحدث به الثقة من إخوانك»^(٢). وقال الحسن البصري: «أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر»^(٣).

«وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال»^(٤).

قال ابن القيم: «وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها؛ وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا، قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتيم والهدى بعد الضلال والإغناء بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله شكر كما في حديث جابر مرفوعاً: «من صنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجزي به فليثن فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتبه فقد كفره»^(٥)...

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٢/٤٢٤ من طريقين، والطبوريات ٥/٩٠ (٤٣٤)، وانظر: الدر المنثور ٨/٥٤٥، وذكره الرازي في تفسيره: ٣١/٢٢١ ثم قال: «إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به».

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/١٠٢ (٤٤٢١)، وابن المبارك في الزهد ٥٠٣ (١٤٣٤)، وابن أبي الدنيا في الشكر ٢١ (٣٣)، وذكر السيوطي آثاراً بمعناه أيضاً في الدر المنثور ٨/٥٤٥-٥٤٧.

(٤) عدة الصابرين ٩٨.

(٥) صحيح الأدب المفرد باب من صنع إليه معروف فليكافئه ح (٢١٥).

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة^(١).

قال ابن عثيمين: «لكن تحدث بها إظهارًا للنعمة وشكرًا للمنع، لا افتخارًا بها على الخلق؛ لأنك إذا فعلت ذلك افتخارًا على الخلق كان هذا مذمومًا. أما إذا قلت أو إذا ذكرت نعمة الله عليك تحدثًا بالنعمة، وشكرًا للمنع فهذا مما أمر الله به»^(٢).

ويمكن أن يستنبط من هذه الآية جواز إخبار الرجل عن جوانب الخير في نفسه إن لم يكن فخرًا أو كبرًا، والتحدث بنعمة الله تعالى التي منَّ بها على العبد، فلقد أكرم الله تعالى كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم بالتوبة عند تخلفهم عن غزوة تبوك^(٣).

فإخبار كعب رضي الله عنه عن هذه التوبة وإتمام نعمة الله عليهم فرحةً وتحدثًا بنعمة الله، كل هذا جائز، وإن كانت تزكية النفس منهيًا عنها فإنها في هذا الموطن جائزة.

وتجوز حين يريد الرجل أن يلفت النظر إلى نِعَمِ الله التي أنعم بها عليه ليستفيد منه الآخرون، فلقد قال يوسف عليه السلام عن نفسه أنه **﴿حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ﴾** يذكر بذلك نعمة الله عليه بالعلم والحفظ، ولكي يستغل هذه النعمة، ويشارك بها في خدمة مجتمعه وأُمَّته: **﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ﴾** [يوسف]، فلو لم يتحدث يوسف عليه السلام بنعمة الله عليه من الحفظ والعلم لاستولى على خزائن مصر من ليس أهل لها وحصلت بذلك الفوضى الاقتصادية. والله تعالى أعلم.



(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٨.

(٢) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين (٢٤٤).

(٣) انظر القصة في: صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، ومسلم كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩)

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾.

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها ونزولها ومناسبتها:

سميت في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي: سورة ألم نشرح^(١). وسميت في بعض التفاسير: سورة الشرح^(٢)، وفي بعض التفاسير تسميتها: سورة الانشراح^(٣).

نزولها:

مكية في قول الجميع^(٤). وآياتها: ٨ آيات، وكلماتها: ٢٦ كلمة، وحروفها: ١٥٠ حرفاً^(٥).

(١) الدر المنثور ١٥/٤٩٥، جامع البيان ٢٤/٤٩٢، الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٠٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٢٩.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٠٧، معالم التنزيل ٨/٤٦٣، روح المعاني ٣٠/١٦٥، المحرر الوجيز ١٥/٤٩٤.

(٣) تفسير حقي ٥/١٩٣، زاد المسير ٩/١٦٢.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٤، والمحرر الوجيز ١٥/٤٩٤، ولم يذكرها السيوطي في السور المختلف فيها، الإتيقان ١/٣٠.

(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٣/٧٨.

مناسبتها لما قبلها:

«هذه السورة متممة لسورة «الضحى» قبلها، فكلتاها عرض لما أنعم الله به على النبي ﷺ، وتذكير له بهذه النعم، وتوجيه له إلى ما ينبغي أن يؤديه لها من حقّ عليه.. وهكذا شأن كل نعمة ينعم الله بها على الإنسان، لا تتم إلا بالشكر للمنعم، وبالإنفاق منها على كل ذي حاجة إليها»^(١).

ثانياً: موضوعها:

«هذه السورة تتحدث عن:

- ١- مكانة الرسول ﷺ الجليلة ومقامه الرفيع عند الله تعالى.
- ٢- نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ.
- ٣- دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فأنتسته بقرب الفرج، وقرب النصر على الأعداء.
- ٤- تذكير المصطفى ﷺ بأسباب انشراح الصدر، من التفرغ لعبادة الله تعالى، وتبليغ دعوته شكرًا لله على ما أولاه من النعم الجليلة»^(٢).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يتمن الله على نبيه ﷺ بعدد من النعم بقوله: ألم نوسع -أيها النبي- لك صدرك لشرائع الدين، والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، وحططنا عنك بذلك حملك الذي أثقل ظهرك، وجعلناك -بما أنعمنا عليك من المكارم- في منزلة رفيعة عالية؟
وبناء على ذلك فلا يثك أذى أعدائك عن نشر الرسالة؛ فإن مع الضيق فرجاً، إن مع الضيق فرجاً، وإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها فجدّ في العبادة، وإلى ربك وحده فارغب فيما عنده.

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٧٨.

(٢) إيجاز البيان في سور القرآن ص ٢٠٣.

المبحث الثاني وقفات مع السورة

المطلب الأول: تعدد نعم الله تعالى على نبينا محمد ورفع مكانته في العالمين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ﴾:

هذه الآيات تشير إلى أن الضائقة التي في نفس الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التي كُلفها، ومن العقبات الوعرة في طريقها؛ ومن الكيد والمكر المضروب حولها؛ تُوحي بأن صدره ﷺ كان مثقلًا بهموم هذه الدعوة الثقيلة، وأنه كان يحس العبء فادحًا على كاهله، وأنه كان في حاجة إلى عون وزاد يسليه ويخفف عنه.

فكانت هذه المناجاة له من الله، وهذا الحديث الودود؛ بذكر عدد من النعم والمنن التي أعطاها الله تعالى لحبيبه ﷺ، ومنها:

﴿أولاً: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾: «أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات؛ فلم يكن ضيقًا حرجًا، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطًا»^(١) كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وابتدأت الآية بـ «الاستفهام التقريري، ومقصوده التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نشيطًا غير ذي أسف ولا كمد،

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر]، والصدر المراد به الإحساس الداخلي الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك^(١).

قال ابن كثير: «وكما شرح الله صدره جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا ضيق»^(٢).

وقد شرح الله صدر نبيه ﷺ في الحس والواقع أيضاً، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «بيننا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول أحد الثلاثة بين الرجلين. فأتيت فأنطقت بي فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا». قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال إلى أسفل بطنه «فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه ثم حُشِّي إيماناً»^(٣).

وعلى هذا فشرح صدر النبي ﷺ يشتمل على ثلاثة أمور:

- ١- تهيئته لحمل الرسالة ونشرها في العالمين.
 - ٢- تشجيعه على المضي في الدعوة إلى الله وإظهار الحق ولو كره المشركون.
 - ٣- تنظيف صدره من غوائل الدنيا وشهواتها وإبداله مكانها بالعلم والإيمان.
- ﴿ثَانِيًا: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ]﴾ [أي: حططنا عنك ذنبك، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿لِيَعْرِفَ أَنَّ اللَّهَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنَزِّلَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح]]^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٤٠٨/٣٠ باختصار وزيادة.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٩/٨.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٤).

(٤) انظر: جامع البيان ٤٩٣-٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن ١٠٥-١٠٦ بتصرف واختصار.

«الوزر هو: الثقل الذي كان على رسول الله ﷺ، وحيرته قبل البعثة إذ كان يرى سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام، وكان لم يتجه له من الله أمر واضح، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثقل بنبوته وإرساله. وقيل: خففنا عنك أثقال النبوة، وأعناك على الناس»^(١).

«وقوله: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثقله حتى سمع قيضه، أي صوته. وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمعت له صريرا من شدة الحمل.

ف ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقله وأوهنه، وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها مغفورة لشدة اهتمامهم بها وندمهم منها وتحسرهم عليها.

قال الحسين ابن المفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: كان في الابتداء يثقل عليه الوحي.

وقيل: عصمناك عن احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس»^(٢).

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ «أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله ﷻ - غالباً - إلا ويذكر معه رسوله ﷺ، كما في شهادة الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلی الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جازى نبياً عن أمته»^(٣).

(١) المحرر الوجيز ١٥/٤٩٧.

(٢) انظر: جامع البيان ٢٤/٤٩٣-٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٥-١٠٦ بتصرف واختصار.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩ بتصرف.

«ورفع الذكر يكون بإلهام الناس لأن يذكره بخير، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى يتحدث بها الناس، واستعير الرفع لحسن الذكر لأن الرفع جعل الشيء عاليًا لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل، فقد فُطِرَ ﷺ على مكارم أخلاقٍ يعزُّ وجود نوعها ولم يبلغ أحدٌ شأواً ما بلغه منها حتى لُقّب في قومه بالأمين»^(١).

«ورفع الذكر نعمة على الرسول ﷺ، وكذلك جميلٌ حسنٌ للقائمين بأمور الناس، وخمول الذكر والاسم حسن للمنفردين للعبادة»^(٢).

وهنا نقطتان يجب التنبيه عليهما:

النقطة الأولى: مواطن الصلاة على النبي ﷺ:

ومن المواطن التي يشرع فيها الصلاة على الرسول ﷺ رفعة لشأنه وتذكيرًا بفضله:

١- بعد الأذان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا...»^(٣).

٢- في التشهد الأخير وهي واجبة^(٤): عن أبي مسعود البديري ﷺ قال: أقبل رجل حتى جلس إلى النبي ﷺ ونحن عنده فقال: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا صلاتنا صلى الله عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد»^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٤١٢/٣٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤٩٨/١٥.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الأذان باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ (٣٨٤).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير وترجيحه الوجوب وأدلة ذلك ٤٦٠/٦.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي بعد التشهد (٤٠٧).

- ٣- في صلاة الجنائز بعد التكبيرة الثانية: عن أبي أمامة بن سهل أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ أن السنة في صلاة الجنائز أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرًّا ثم يصلي على النبي ﷺ...^(١).
- ٤- في الدعاء أوله وآخره: قال أبو سليمان الداراني: «من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما»^(٢).
- ٥- عند دخول المسجد والخروج منه: لقول النبي ﷺ «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم أجرني من الشيطان»^(٣).
- ٦- في يوم وليلة الجمعة: فقد ورد أنه ﷺ قال: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»^(٤).
- ٧- عند السلام عليه ﷺ: سواء عند زيارته، أو من أي مكان كان الإنسان، عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٤/ ٣٩، المستدرک علی الصحیحین ٢/ ٣٧٥. وصححه الألباني في الإرواء ١٨٠/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٣٥.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه كتاب المساجد باب الدعاء عند دخول المسجد (٧٧٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود كتاب الصلاة باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٧). وصحيح سنن ابن

ماجه كتاب الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣٦).

الأرض يبلغوني من أمي السلام»^(١). وقال: «وصلوا عليَّ فإن صلواتكم
تبلغني حيث كنتم»^(٢).

٨- عند ذكره ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل عليَّ»^(٣).

﴿ فعلِي هذا يجب علينا أن نداوم على الصلاة على النبي ﷺ في جميع أحوالنا،
وكلما ذكر، سواء باللسان أو بالكتابة ونحن نقرأ أو نكتب، ولا يفتر لساننا عن الصلاة
عليه على كل حال ﴾^(٤).

النقطة الثانية: ومن مظاهر رفع ذكره ﷺ غير ما سبق:

- ١- وجوب احترام صحابته ﷺ.
- ٢- وجوب احترام أزواجه وأهل بيته ﷺ.
- ٣- وجوب العمل بكل ما روي عنه.
- ٤- الدفاع عنه وعن سنته: فذلك برهان على صدق محبة الله تعالى ومحبة
رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران].
- ٥- وجوب احترام أهل العلم وورثته ﷺ المبلغون عنه^(٥).

(١) أخرجه أحمد ١ / ٤٤١ (٣٦٦٦)، إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح الموسوعة الحديثية ٧ / ٢٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود كتاب المناسك باب زيارة القبور (٢٠٤٢)، وأحمد ٢ / ٣٦٧ (٨٧٩٠). وانظر: صحيح
سنن أبي داود.

(٣) أخرجه أحمد ١ / ٢٠١ (١٧٣٦)، إسناده قوي ورجاله رجال الصحيحين الموسوعة الحديثية ٣ / ٢٥٨.

(٤) للاستزادة حول موضوع الصلاة على النبي ﷺ انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦ / ٤٥٩. وبحث
حقوق النبي ﷺ وأهل بيته دراسة موضوعية من خلال سورة الأحزاب للمؤلف.

(٥) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث تفسير سورة الأحزاب دراسة موضوعية للمؤلف.

٦- عدم الإسراع بقولٍ أو فعل قبل أن يقول فيه الله تعالى أو رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات] إشارة إلى احترام رسول الله وعدم تقديم قول أحد على قوله، وعدم إصدار الأحكام قبل معرفة قول رسول الله ﷺ فيها.

٧- التأدب مع رسول الله ﷺ في الاستماع والإنصات: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات] قال القاضي أبو بكر بن العربي: «حرمة النبي ميتاً كحرمة حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يُعْرِضَ عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به»^(١).

٨- لا يخاطب الرسول ﷺ باسمه وكنيته كما يخاطب الناس بعضهم بعضاً: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور ٦٣]

٨- وجوب محبة الرسول ﷺ: وهذا من أعظم رفع الذكر مع رسول الله ﷺ حيث إنه المبلغ عن الله تعالى، فهو أعظم الخلق إحساناً إلى المرء، فهو الذي أرشدنا إلى الصراط المستقيم، طريق الجنة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى ٥٢] صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى ٥٢].^(٢)

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٣٠٧.

(٢) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث تفسير سورة الحجرات دراسة موضوعية للمؤلف، مبحث: الأدب مع النبي ﷺ.

المطلب الثاني: بشرى من الله تعالى:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

«العُسْر: المشقة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود، واليسر: سهولة تحصيل المرغوب، وعدم التعب فيه»^(١).

وهذه «بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر»^(٢)، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق] وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا»^(٣).
وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره، فلن يغلب عسرٌ يسرين^(٤).

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له»^(٥).

«وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب ﷺ يذكر له جموعاً من الروم، وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر ﷺ: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة، يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبُرًا وَصَابِرًا وَرَابِطُونَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران]»^(٦).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤١٥.

(٢) هذا القول لابن مسعود انظر: جامع البيان ٢٤/٤٩٦.

(٣) مسند أحمد ١/٣٠٧ ج٣ (٣٨٠٤)، قال: شعيب الأرناؤوط: صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).

(٤) هذه المقولة مروية عن عمر بن الخطاب كما سيأتي الموطأ ٢/٤٤٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.

(٦) الموطأ ٢/٤٤٦.

قال القرطبي: «فهذا الفضل كله في أمور الدنيا، وإن كان -لفظه- خاصاً بالنبى ﷺ فقد يدخل فيه بعض أمته -إن شاء الله تعالى-.. فهذا وعد من الله تعالى عام لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه، أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرٌ في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة»^(١).

وقفة مع مبدأ التيسير في الإسلام:

ومن هذا أخذ الفقهاء ﷺ قاعدة: (المشقة تجلب التيسير)^(٢) أي: «المشقة التي تنفك عنها التكليفات الشرعية، أما المشقة التي لا تنفك عنها التكليفات الشرعية كمشقة الجهاد وألم الحدود؛ ورجم الزناة وقتل البغاة والمفسدين والجناة فلا أثر لها في جلب تيسير ولا تخفيف»^(٣).

ودلت على هذه القاعدة آيات قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٤) [النساء]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

ومن الأحاديث قول المصطفى ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا»^(٥). وقوله: «لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل»^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠٨/٢٠ مختصراً.

(٢) هذه القاعدة مبثوثة في كتب القواعد الفقهية، انظر: شرح القواعد الفقهية للزرقاء ١/١٥٧.

(٣) شرح القواعد الفقهية للزرقاء ١/١٥٧.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب الدين يسر (٣٩).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب الجهاد من الإيمان (٣٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن فقال: «يَسْرًا وَلَا تَعْسْرًا، وَبَشْرًا وَلَا تَنْفَرًا»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه وأهريقوا علي بوله سجلا من ماء، أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»^(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه»^(٦).

- (١) أخرجه مسلم كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧).
- (٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصي إمامه (٣٠٣٨)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب في الأمر باليسر وترك التنفير (١٧٣٣).
- (٣) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب صب الماء على البول في المسجد (٢٢٠).
- (٤) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أعلمكم بالله...» (٢٠).
- (٥) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب السواك يوم الجمعة (٨٨٧)، ومسلم كتاب الطهارة باب السواك (٢٥٢).
- (٦) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٦٠). ومسلم كتاب الفضائل باب مباحته صلى الله عليه وسلم للأثام واختياره من المباح أسهله (٢٣٢٧).

قال عمر بن إسحاق: «لما أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم؛ فما رأيت قومًا أيسر سيرة ولا أقلّ تشديدًا منهم»^(١).

والأدلة التي تؤيد هذه القاعدة أكثر من أن تحصر، ولذا يقول الإمام الشافعي: «إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع»^(٢).

«المشقة التي تجلب التيسير سبعة أنواع:

- ١- السفر، وتيسيراته.
- ٢- المرض، وتيسيراته.
- ٣- الإكراه، وهو التهديد ممن هو قادر على الإيقاع بضربٍ مبرح، أو بإتلاف نفس، أو عضوٍ، أو بحبس، أو قيد مديدين مطلقًا، أو بما هو دون ذلك لذي جاه، وبما يوجب غمًا يعدم الرضا.
- ٤- النسيان، وهو عدم تذكر الشيء عند الحاجة إليه، واتفق العلماء على أنه مسقط للعقاب.
- ٥- الجهل، وهو عدم العلم ممن شأنه أن يعلم وهو قد يجلب التيسير.
- ٦- العسر، وعموم البلوى.
- ٧- النقص، وفيه نوع من المشقة يتسبب عنها التخفيف، وذلك كالصغر والجنون والأنوثة»^(٣).

(١) أخرجه الدارمي ١/ ٥١.

(٢) الموافقات ١/ ٢٣١.

(٣) شرح القواعد الفقهية للزرقاء ١/ ١٥٧-١٦١ مختصرًا، وللاستزادة من الأمثلة يمكن الرجوع للكتاب.

المطلب الثالث: ذكر مواقع التيسير وأسباب الانشراح:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجِعْ ﴿٨﴾﴾

أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين تبعاً: بشكره والقيام بواجب نعمه، وذلك بأمرين مرتبطين ببعضهما:

أولاً: متابعة العمل: قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قيل في معنى هذه الآية أقوال كثيرة، ومنها:

١- «إذا تفرغت من أشغالك وأمور دنياك وأشغالها، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء، وقم إليها نشاطاً فارغ البال وأخلص لربك في النية والرغبة»^(١).

والنصب: أن يدأب على ما أمر به ولا يفتر^(٢).

٢- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من صلاتك ﴿فَانصَبْ﴾ أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٣﴾﴾ [النساء].

٣- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من الفرائض ﴿فَانصَبْ﴾ في قيام الليل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ مَناسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٣٣ بتصرف.

(٢) المحرر الوجيز ١٥/ ٤٩٩.

٤- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من تبليغ الرسالة ﴿فَأَنْصَبْ﴾ أي استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③﴾ [النصر]، وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

٥- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من جهاد عدوك، ﴿فَأَنْصَبْ﴾ لعبادة ربك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ④ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ⑤﴾ [الحج].

٦- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من دنياك، ﴿فَأَنْصَبْ﴾ في صلاتك، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ⑥ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ⑦ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑧﴾ [الجمعة].

٧- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّزْقُ ① فُرُاقًا ② إِلَّا قَلِيلًا ③ يَصْفَهُ ④ أَوْ أَنْفُسَ مِنْهُ قَلِيلًا ⑤ أَوْ رِزْقًا عَلَيْهِ وَرَزَقْنَا الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ⑥ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً ⑦ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑧ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑨ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑩ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑪ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يُلْقُونَ وَأَنْهَجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑫﴾ [المزمل] (١).

وكل هذه الأقوال تشير إلى المسارعة والإكثار من العبادة في جميع الأوقات، وأن يخرج المؤمن من عبادة فيبادر في الدخول إلى عبادة أخرى، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑬﴾ [آل عمران].

(١) لهذه الأقوال انظر: جامع البيان ٢٤ / ٤٩٧ - ٥٠٠، والجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٠٨ - ١٠٩ باختصار وزيادة الأدلة.

وقوله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١).

ثانياً: حسن الرجاء: قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ بِكَ فَاَرْعَبْ﴾ أي: ﴿وَاللَّيْلِ بِكَ﴾ وحده ﴿فَاَرْعَبْ﴾ فقد أمر رسول الله ﷺ بالتوكل على الله ﷻ وصرف وجه الرغبات إليه لا سواه^(٢).

وقيل: «أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين»^(٣).

وقد مدح الله تعالى الأنبياء بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء]. قال ابن القيم ﷻ: «الرغبة طلب وهي ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشيء طلبه والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه»^(٤)، فالذي يقبل على الله تعالى ويرغب فيما عنده هانت عليه كل مصائب وهموم وضيق الدنيا.

المطلب الرابع: ماذا بعد العبادة:

المسألة الأولى: الذكر بعد العبادة:

«قيل: إن معنى قوله: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.»

(١) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥١).

(٢) المحرر الوجيز ١٥/٥٠٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.

(٤) مدارج السالكين ٢/٥٥.

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات»^(١) كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وكذلك ذكر الله بعد الصيام، قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكذلك بعد الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَقَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سِكِّكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٩٩-٢٠٠].

«ولما كانت هذه الإفاضة، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد الفعل»^(٢).

المسألة الثاني: الفرح بعد العبادة:

روي عن شريح رضي الله عنه أنه مر بقوم يلعبون يوم عيد، فقال ما بهذا أمر الفارغ^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٣٨، وأخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على الزهد (٢٦٢).

قال القرطبي رحمه الله: «وفيه نظر، فإن الحبش كانوا يلعبون بالدرق والحراب في المسجد يوم العيد، والنبى ﷺ ينظر، وجعل عائشة رضي الله عنها تنظر^(١)، ودخل أبو بكر رضي الله عنه في بيت رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيان، فقال أبو بكر: أئبمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «دعهما يا أبا بكر»^(٢)»^(٣).

◉ وانظر إلى صفات المؤمنين التي جمعت كثير من العبادات القلبية والبدنية فقد ختمها الله بصفة الذكر فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ [الأحزاب].

◉ المطلب الخامس: حسن الختام للسورة:

◉ وتختتم هذه السورة كما ختمت سورة الضحى، بأن تركت في النفس شعورين ممتازين: الشعور بعظمة الود الجليل الذي ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحيم. والشعور بالعطف على شخصه ﷺ. ونحن نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل، إنها الدعوة؛ وهي الأمانة الثقيلة والعبء الذي ينقض الظهر!

(١) أخرج القصة البخاري في صحيحة كتاب العيدين باب الحراب والرق يوم العيد (٩٥٠)، ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد (٨٩٢).
(٢) أخرج القصة البخاري في صحيحة كتاب العيدين باب الحراب والرق يوم العيد (٩٤٩)، ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد (٨٩٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٩-١١٠.

﴿ إِنَّ الْوَحْيَ هُوَ النُّورُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي يَسْتَضَاءُ بِهِ، وَالرُّوحُ الَّتِي يَحْيَا بِهَا الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ، وَيَشْقَى بِهَا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ، وَالِدَوَاءُ وَالشِّفَاءُ لِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى].

﴿ فحري بالمؤمن أن لا يضيق صدره بل يلجأ لربه فإن عنده اليسر ولا محالة.

﴿ وأن يقرأ القرآن بتدبر واطمئنان، وسيجد الفرج والفرح والانشراح.



تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ (١) وَطُورِ سَيْنِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَالَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ
بِالَّذِينَ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨).

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

«سميت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف (سورة والتين) بإثبات الواو تسمية بأول كلمة فيها. وسماها بعض المفسرين (سورة التين) وبذلك عنونها الترمذي (١) وبعض المصاحف» (٢).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

وهي مكية عند أكثر العلماء (٣) قال ابن عطية: لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين (٤)، ولم يذكرها في الإتيان في عداد السور المختلف فيها.

(١) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة التين.

(٢) التحرير والتنوير ٤١٩/٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١٤/٢٠. التحرير والتنوير ٤١٩/٣٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥٠١/١٥.

أما عدد آياتها (٨) آيات، وكلماتها: (٣٤) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً^(١).

مناسبتها لما قبلها:

«ختمت سورة «الانشراح» بالدعوة إلى الكد والنصب، في الحياة الدنيا، ليبنى الإنسان بذلك دار مقامه في الآخرة، ويعمرها بما يساق إليه فيها من نعيم الله ورضوانه.

وبدأت سورة «التين» بهذه الأقسام من الله ﷻ، لتقرير حقيقة الإنسان وتذكيره بوجوده، وأن الله سبحانه خلقه في أحسن تقويم، وأودع فيه القوى التي تمكن له من الاحتفاظ بهذه الصورة الكريمة، وأن يبلغ أعلى المنازل عند الله، ولكن ميل الإنسان إلى حب العاجلة، قد أغراه باقتطاف اللذات الدانية له من دنياه، دون أن يلتفت إلى الآخرة، أو يعمل لها، فردّ إلى أسفل سافلين.. وقليل هم أولئك الذين عرفوا قدر أنفسهم، فعملوا بها عن هذا الأفق الضيق، ونظروا إلى ما وراء هذه الدنيا.»^(٢).

ثالثاً: فضلها:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في سَفَرٍ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون»^(٣)، وفي رواية لمسلم: «فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه»^(٤).

رابعاً: موضوعها:

تعرض السورة حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٧٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة التين (٤٩٥٢)، ومسلم كتاب الصلاة باب القراءة في

العشاء (٤٦٤).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب القراءة في العشاء (٤٦٤).

وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان بالله واليوم الآخر، وعن شكر نعمة الله تعالى.

فتعالج من الموضوعات:

- ١- رفع شأن البقاع المقدسة والأماكن المشرفة.
- ٢- تكريم الله تعالى للنوع البشري.
- ٣- بيان جزاء من كفر وجزاء من شكر هذه النعمة.
- ٤- بيان الإيمان بالجزاء والحساب.
- ٥- بيان عدل الله تعالى بإثابته المؤمنين وعقابه الكافرين.

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

أقسم الله تعالى بالتين والزيتون، وهما من الثمار المشهورة، وأقسم بجبل «طور سيناء» الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وأقسم بهذا البلد الأمين من كل خوف وهو «مكة» مهبط الإسلام.

وهذا القسم كله على أنه قد خلق الإنسان في أحسن صورة، ثم سيرده إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، لكن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر عظيم غير مقطوع ولا منقوص.

ثم يخاطب الله تعالى الإنسان ويسأله سؤال استنكار: أيُّ شيء يحملك -أيها الإنسان- على أن تكذب بالبعث والجزاء مع وضوح الأدلة على قدرة الله تعالى على ذلك؟ أليس الله الذي جعل هذا اليوم للفصل بين الناس بأحكام الحاكمين في كل ما خلق؟^(١).

(١) التفسير الميسر ص ٥٩٧.

المبحث الثاني وقفات مع السورة

المطلب الأول: وقفات مع المقسم به:

قال تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾

الوقفة الأولى: رفع شأن التين والزيتون:

قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾:

«﴿وَالَّتَيْنِ﴾: الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي: ثمرة تشبه في شكلها شكل الكمثرى، ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهولة التقشير، تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة، مخلوط بيزور دقيقة مثل السمس الصغير.

وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ، فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته.

فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية، كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنة على الناس؛ إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد، والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج

﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ ظاهرة: الثمرة المشهورة، ذات الزيت الذي يعصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به. والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم^(١).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٠.

﴿ وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ﴿ وأنهما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتهما، وليس هناك رمز لشيء وراءهما^(١).

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندنا قول من قال: التين: هو التين الذي يُؤكل، والزيتون: هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت. لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يسمى تينا، ولا جبل يقال له زيتون، إلا أن يقول قائل: أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالتين والزيتون، والمراد من الكلام: القسم بمنابت التين، ومنابت الزيتون، فيكون ذلك مذهباً، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك دلالة في ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه، لأن دمشق بها منابت التين، وبيت المقدس منابت الزيتون»^(٢).

﴿ الوقفة الثانية: رفع شأن الأماكن المشرفة:

قوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾ الطور: اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى^(٣) ﴿ وَسَيْنِينَ ﴾ لغة في سيناء وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين^(٤).

﴿ أما القسم الأخير في قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ مكة المكرمة^(٥).

وإن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان، ولذا «قال بعض الأئمة: هذه محلّ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار:

فالأول: محلة التين والزيتون: وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى

ابن مريم .

(١) انظر: هذه الأقوال في جامع البيان للطبري ٢٤/٥٠١ - ٥٠٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٣٤.

(٢) جامع البيان للطبري ٢٤/٥٠٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٣٤.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢١.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٣٤.

والثاني: طور سينين: وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ.

والثالث: البلد الأمين: مكة الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أُرْسِلَ فيه محمداً ﷺ^(١).

«وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى- أي ردّ الإنسان إلى التوحيد-؛ لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمناً كصورة الآمن في الجنة، فإن امتثلوا وأطاعوا نعموا بهذا الآمن، وإن تمردوا وعصوا، فيخرجون منها ويحرمون أمنها.

◉ وهكذا تكون السورة ربطاً بين الماضي والحاضر، وانطلاقاً من الحاضر إلى المستقبل^(٢).

«والآمن: أكبر شروط حسن المكان لأن الساكن أول ما يتطلب الآمن، وهو السلامة من المكاره والمخاوف، فإذا كان آمناً في منزلة كان مطمئن البال شاعراً بالنعيم الذي يناله^(٣). فهو الذي يأمن صاحبه ومن دخل فيه من كل صوبٍ، بل يأمن فيها الطير والوحش والقاتل المطلوب.

فقد كان مطلع الرسالة الخاتمة لما شرع الله للناس، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، وجعله الله خير بلاده «فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد؛ لما جعل عرصاتها مناسك لعباده؛ فرض عليهم قصدها، وجعل ذلك من أكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه، فقال تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين ٣]، وقال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۗ ۝ وَأَنْتَ حَلُّ هَذَا الْبَلَدِ ۗ ۝﴾ [البلد].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٣٤.

(٢) أضواء البيان ٩/ ١٠.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ٣١٧.

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها، والطواف بالبيت الذي فيها؛ غيرها، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه، وتحط الخطايا والأوزار فيه؛ غير الحجر الأسود، والركن اليماني^(١).

فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة، أقسم بها على بداية الإنسان ونهايته.

المطلب الثاني: وقفات مع المقسم عليه:

الوقفة الأولى: تكرم الله تعالى للنوع البشري:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

«هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورةٍ وشكلٍ، منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها»^(٢).

«وفي ابتداء السورة بالمقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية؛ براعة استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي خلقه على الفطرة السليمة، مدركاً لأدلة وجود الخالق ووحدانيته. وفيه إيحاء إلى أن ما خالف ذلك من النحل والميل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها، بقطع النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تقويم معنى براعة الاستهلال ما يلوح في المعنى من احتمال»^(٣).

وقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ «وهو: اعتداله واستواء شبابه، كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون، لأنه ﷻ خلق كل شيء منكباً على وجهه، وخلقه هو مستوياً، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها»^(٤).

(١) خصائص جزيرة العرب ٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٣٥ / ٨.

(٣) التحرير والتنوير ٤٢٢ / ٣٠ - ٤٢٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١١٤ / ٢٠.

قال ابن العربي: «ليس لله تعالى خلقٌ أحسن من الانسان، فإن الله خلقه حيًّا عالمًا، قادرًا مريدًا متكلمًا، سميعًا بصيرًا، مدبرًا حكيمًا. وهذه صفات الرب سبحانه»^(١).

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ ﴿ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة: ٧]، فلماذا خصص الإنسان هنا، وفي مواضع أخرى من القرآن: بحسن التركيب، وحسن التقويم، وحسن التعديل؟

والجواب: أن في ذلك فضل عناية من الله ﷻ ببني آدم.

وإن عناية الله بأمرهم على ما بهم من ضعف؛ وعلى ما يقع منهم من انحراف عن الفطرة وفساد، ليشير إلى أن لابن آدم شأنًا عند الله، ووزنًا في نظام الحياة.

وقد تجلت هذه العناية في حُسن خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب كذلك.

و«أفادت الآية أن الله كَوَّن الإنسان تكوينًا ذاتيًا مناسبًا لما خَلَقَ له نوعه، من الإعداد لنظامه وحضارته. وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعبر عند الله تعالى، ولا جديرًا بأن يقسم عليه، إذ لا أثر له في إصلاح النفس وإصلاح الغير وإصلاح الأرض، ولأنه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين!! وإنما هو متمم لتقويم النفس، قال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»^(٢) فإن العقل أشرف ما خُصَّ به نوع الإنسان من بين الأنواع.

فالمرضي عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح، لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد إذ الجسم آلة خادمة للعقل»^(٣).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٢.

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم.. (٢٥٦٤).

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٢٤.

والله تعالى كَرَّمَ هذه البشرية بأن خلقها على الفطرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء». ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: واقروا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم] (١).

﴿الوقفه الثانية: بيان جزاء من كفر نعمة التكريم وجزاء من شكرها:﴾

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿

﴿أولاً: جزاء من كفر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

أفادت الآية أن الإنسان مهياً حين يتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ بحيث تصبح البهائم العجماءات أرفع منه وأقوم؛ لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربها، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى، بينما هذا الذي خلق في أحسن تقويم يجحد ربه، ويرتكس مع هواه، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعُتِفُونَ﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

فهم لما ابتعدوا عن الفطرة حصل لهم هذا السفول بل والخسران كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ والخسران هو: «مصدر وهو: ضد الربح في التجارة، واستعير هنا

(١) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل على عليه (١٣٥٨)، ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه عاقبة حسنة»^(١)، وعلى هذا فالخسران المقصود في الآية هو: «ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله»^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، «أي: إن مصيرهم ومآواهم لفي سجين-فعل من السَّجَنَ، وهو الضيق، و«سجين» مأخوذ من السَّجَنَ، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالَى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة.

ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ]»^(٣).

❖ ثانياً: جزاء من شكر: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

استثنى الله تعالى فرقة لن تكون في أسفل سافلين وهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كما استثناهم من الخاسرين فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾. فالإنسان سيرد في أسفل سافلين وإلى الخسران إلا إذا آمن بالله تعالى وعمل عملاً صالحاً، قال القرطبي: «إن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم؛ لفي نقص وضعف وتراجع، إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم»^(٤).

(١) التحرير والتنوير مختصراً ٣٠ / ٥٣١.

(٢) معالم التنزيل ٨ / ٥٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٤٩، هكذا في مطبوعات الكتاب (ولما) ولعلها: ولذا كان مصير..

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٨٠.

فهؤلاء هم الذين يقون على الفطرة، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح^(١)، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال^(٢).

﴿فهما نهايتان طبيعتان للمكلفين: إما استقامة على الفطرة القويمة، وتكميل لها بالإيمان، ورفع لها بالعمل الصالح، فيصل المكلف في نهايتها إلى الكمال التام في حياة النعيم، وهو المعبر عنه في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

وإما انحراف عن الفطرة القويمة، واندفاع مع الهوى ونكسة عن الحق، وانقطاع عن المنحة الإلهية، فيصل في النهاية إلى الدرك البئس في حياة الجحيم، وهو المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

﴿ثالثاً: وقفة مع نوعية الجزاء:

قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: «غير مقطوع»^(٣).

وإن المتدبر لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يجد الفضل الكبير من الله تعالى للذي يحافظ على نعمه. يقول ابن بطال: «فإن قطع العمل بمرض أو شغل وضعف عنه فلا لوم عليه، بل يرجى له من الله ألا يقطع أجره، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»^(٤)، وفي كتاب الله ما يشهد لذلك قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع وإن ضعفوا عن العمل يكتب لهم أجر عملهم في الشباب والصحة»^(٥).

(١) سيأتي الحديث في سورة العصر عن دور الإيمان والعمل الصالح نجاة الإنسان من السفول والخسران، وما علاقة الإيمان والعمل الصالح بالنجاة وما حقيقة الإيمان والعمل الصالح الذي ينجي.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كتاب الجهاد والسير باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦).

(٥) شرح ابن بطال على البخاري ٣/١٤٦.

وقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ عَيْرٌ مَمْنُونٍ﴾ أي: يريد أن لهم أجرهم في حال الكبر والضعف عما كانوا يفعلونه في الصحة غير مقطوع لهم؛ فلذلك كل مرض وكل آفة من سفر وغيره يمنع من العمل الصالح المعتاد؛ فإن الله قد تفضل بإجراء أجره^(١). «فهو غير مقطوع بزمان، أو كبر، أو ضعف.

ففي هذا أن الإنسان يبلغ بنيته أجر العامل إذا كان لا يستطيع العمل الذي ينويه^(٢). كما قال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سلكتنا واديًا وشعبًا إلا وهم معنا، حسبهم العذر»^(٣).

والذي يدعو إلى الله ثم يتوفاه الأجل فإن أجر من علمهم ودعاهم إلى الله سيظل يجري عليه إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»^(٤)، وقال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء»^(٥).

المطلب الثالث: تذكير بموضوع الإيمان بالجزاء والحساب:

قال تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾:

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ يعني: يا ابن آدم ﴿بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾ أي: بالجزاء في المعاد، وقد علمت البداية، وعرفت أن من قدر على البداية؛ فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأى شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟^(٦)، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء].

(١) المصدر السابق ٤ / ١٥٤.

(٢) المصدر السابق ٥ / ٤٥.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب نزول النبي ﷺ الحجر (٤٤٢٣).

(٤) أخرجه مسلم كتاب العلم باب من سن في الإسلام سنة حسنة.. (٢٦٧٤).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة.. (١٠١٧).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٣٥.

«فما الذي يكذبك بأن الناس يدانون بأعمالهم، كأنه قال: ومن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له خلقنا الإنسان على ما وصفنا»^(١).

«وإن كان الخطاب للكافر؛ فهو: توبيخ وإلزام للحجة. أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به؟

﴿ **كأنه قال:** فمن يقدر على ذلك. أي على تكذيب الثواب والعقاب، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدين والجزاء»^(٢).

المطلب الرابع: الشهادة لله بالحكمة والحكم والإحكام:

قال تعالى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾^(٣):

بعد إدراك قيمة الإيمان في حياة الناس، وبعدهما تبين مصير الذين لا يؤمنون، ولا يهتدون بهذا النور، ولا يمسكون بحبل الله المتين!! بعد هذا يقرر الله سبحانه قضية مهمة وهي قوله تعالى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ وهذا الاستفهام التقريري له معان كلها تصب في باب الحكمة والعدل وإحسان الخلق، فيمن معاني الآية:

﴿ **أولاً: العادل في حكمه:** قال ابن كثير: أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه»^(٤).

وما يستفاد من هذا المعنى:

١ - فيه «وعيد للكفار وأنه ﷻ يحكم عليهم بما هم أهلهم من العذاب»^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب (٩٥) والتين والزيتون، وقد ذكره ابن جرير في جامع البيان ٥٢٤/٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١٦/٢٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٣٥/٨.

(٤) روح المعاني ٢٢٦/٣٠.

- ٢- «وتسليته ﷺ في تركهم والإعراض عنهم»^(١).
- ٣- «أن هذا تنبيه من الله تعالى لنبيه ﷺ بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل»^(٢).
- ٤- الله ﷻ «يعمل بالعدل مع الكفار، ومع المؤمنين بالفضل»^(٣).
- ٥- «ومعنى التفضيل أن حكمه أسد وأنفذ»^(٤).
- ٦- «كيف يظن إذا أن الناس يعملون متفاوتين في أعمالهم في هذه الدنيا ثم يموتون سواء ولا جزاء بعد بالثواب ولا بالعقاب هذا ظلم وباطل ومنكر ينزه الرب عنه ﷻ ففضية البعث الآخر لا تقبل الجدل والمماحكة بحال من الأحوال»^(٥).
- «فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدئ لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون»^(٦).
- ◉ **ثانيًا: المتقن لخلقه:** قال القرطبي: «أي أتقن الحاكمين صنعًا في كل ما خلق:
- ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ قضاء بالحق، وعدلا بين الخلق»^(٧).

(١) زاد المسير ١٧٤/٩.

(٢) مفاتيح الغيب ١٢/٣٢.

(٣) بحر العلوم للسمرقندي ٥٩٦/٣.

(٤) التحرير والتنوير ٥٣٣/٣٠.

(٥) أيسر التفسير للجزائري ٤/٤١٤.

(٦) تيسر الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١١٧/٢٠.

وما يستفاد من هذا المعنى:

- ١- «تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرض العمر.»
- ٢- وإذا ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح في الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص] (١).

🔷 **ثالثاً:** «أحكم الحاكمين علماً وقدرة وعدلاً وحكمة: بما شوهده من إبداعه الخلق ومفاوتته بينهم، وجعل الإنسان من بينهم على أحسن تقويم، فلا بد أن يقيم الجزاء ويضع الموازين القسط ليوم القيامة فيظهر عدله وحكمته وفضله، وهذا الآخر هو أولها قسمًا من جهة النبوات التي ظهر بها حكمه وحكمته، ومقسمًا عليه من حيث إن الخلق في أحسن تقويم يقتضي العدل لا محالة، والرد أسفل سافلين يتقاضى الحكم حتمًا لأجل ما يقع من الظلم والتشاجر بين من استمر على الفطرة القويمة ومن رد لأسفل سافلين» (٢).

«وأيًا ما كان فالاستفهام على ما قيل تقرير بما بعد النفي» (٣)، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**فإذا قرأ أحدكم ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»** (٤).

(١) مفاتيح الغيب ١٢/٣٢.

(٢) نظم الدر للبقاعي ٤٦٦/٩.

(٣) روح المعاني ٢٢٦/٣٠.

(٤) أخرجه أبو داود باب مقدار الركوع والسجود (٨٨٤)، وأحمد ٢/٢٤٩ (٧٣٨٥)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة التين (٣٣٤٧)، قال البوصيري في إتحاف المهرة ٩٨/٦ «هذا إسناد ضعيف لجهالة التابعي»، ضعيف أبي داود (١٥٦)، وحسنه بعضهم موقوفًا، انظر: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن ٥١٦ (٩٦٢).

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ أَلَمْ نَكْرُمُكَ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ٦ أَلَمْ نَجْعَلِ الْإِنْسَانَ مِنْ نُحْلٍ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ١١ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ ١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تَطْعَهُ وَاَسْجُدَ ١٩ وَاقْتَرَبَ ٢٠﴾.

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول سورة نزلت من القرآن ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾»^(١)، وبذلك عنونها الترمذي^(٢)، وعنونها البخاري ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٧٩/٩ برقم (٣٩١٤)، وقال حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

(٢) جامع الترمذي كتاب التفسير باب ما جاء في ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ رقم (٨٤).

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وسميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة العلق)^(١)، وتسمى (سورة اقرأ)^(٢) وقد تسمى بهما^(٣).

أما عدد آياتها (١٩) آية، وكلماتها: (٣٤) كلمة، وحرروفها: (١٥٠) حرفاً^(٤).

ثانياً: نزولها:

وهي مكية باتفاق، وأول ما نزل من القرآن^(٥).

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: «أخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾».

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١٧/٢٠، معالم التنزيل للبغوي ٤٧٤/٨، روح المعاني ١٧٧/٣٠ وغيرها.

(٢) جامع البيان ٥٢٧/٢٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٣٦/٨، تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩ وغيرهم.

(٣) ذكر ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤٣٣/٣٠ عن الكواشي في التلخيص.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٧٩/٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٣٧/٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١٧/٢٠.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ﷺ فقال: «زملوني زملوني»^(١). فزملوه حتى ذهب عنه الروع^(٢)، فقال لخديجة وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي». فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل^(٣)، وتكسب المعدوم^(٤)، وتقري^(٥) الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى - ابن عم خديجة - وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس^(٦) الذي نزل الله على موسى ﷺ يا ليتني فيها جذعاً^(٧)، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟!». قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر^(٨) الوحي^(٩).

(١) زمل: لف وغطى.

(٢) الروع: الفزع والخوف.

(٣) الكل: أصله الثقل ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال.

(٤) تكسب: تعطى المال للفقير، والمعدوم: الشيء المعدوم الذي لا يجدونه أو الفقير الذي صار كالمعدوم.

(٥) تقري: تكرم الضيف وتقوم بحق ضيافته.

(٦) الناموس: الوحي.

(٧) جذعا: شابا فتيا.

(٨) فتر: انقطع.

(٩) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم كتاب

الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

ثالثاً: فضلها ومناسبتها:

قال ابن كثير رحمه الله: « فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريكات المباركات وهُنَّ أول رحمة رَحَمَ اللهُ بها العباد، وأول نعمة أنعم اللهُ بها عليهم»^(١).

مناسبتها لما قبلها:

تضمنت «سورة «التين» مواجهة للإنسان في خلقه القويم، الجليل، الذي خلقه الله عليه، وأن هذا الإنسان إذا استطاع أن يحتفظ بهذا الخلق الكريم، كان في أعلى عليين.. أما إذا لم يحسن سياسة هذا الخلق، ولم يحسن تدبيره فإنه يهوى إلى أسفل سافلين.

وتبدأ سورة «العلق» بهذه الواجهة مع الإنسان في أعلى منازل، وأكرم وأشرف صورة له، وهو رسول الله محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه، مدعوًا من ربه إلى أكمل كمالات الإنسان، وأكرم ما يتناسب مع كماله وشرفه، وهو القراءة، التي هي مجلى العقل، ومنازة هديه ورشده.

وبهذا تكون المناسبة جامعة بين السورتين، ختاماً وبدءاً»^(٢).

رابعاً: موضوعها:

- ١- ابتدأت بفضل الله تعالى بإنزاله القرآن، وعرض نعم الله تعالى على الإنسان من الخلق والتربية، والتعليم، والكرامة بالإسلام والهداية بعدما ما كانت البشرية في جهلٍ في جميع المجالات، وذللٍ للواقع والشهوات.
- ٢- وتحديث عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء وتمرده على أوامر الله بسبب الغنى، بينما الواجب عليه أن يشكر النعمة لأن يجحدها.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٣٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠ / ١١٧.

- ٣- ثم تناولت قصة أبي جهل الذي كان يتوعد الرسول ﷺ وينهاه عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى.
- ٤- إعلام النبي ﷺ أن الله عالم بأمر من يناؤونه، وأنه قامهم وناصر رسولهم ﷺ، وأن لا يعبأ بقوة أعداءه لأن قوة الله تقهرهم.
- ٥- تثبيت الرسول ﷺ على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله، وتابعت ذلك بوعيد ذلك الكافر بأشد العقاب إن استمر على ضلاله، كما أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء له، ثم ختمت بالدعوة للصلاة والعبادة وبذلك يتناسق البدء مع الختام.

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿أَقْرَأْ﴾ أيها النبي ما أنزل إليك من القرآن مُفْتَتِحًا ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ المتفرد بالخلق، الذي خلق كل إنسان من قطعة دم غليظ أحمر. ﴿أَقْرَأْ﴾ أيها النبي - ما أنزل إليك، وإن ربك لكثير الإحسان واسع الجود، ﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ خلقه الكتابة ﴿بِالْقَلَمِ﴾، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ﴾ ما لم يكن يعلم، ونقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْفَى﴾ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ ﴿٨﴾ حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الله إذا أبطره الغنى، فليعلم كل طاغية أن المصير إلى الله، فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أعجب من طغيان هذا الرجل - وهو أبو جهل - ﴿الَّذِي يَنْهَى﴾ ﴿عَبْدًا﴾ لنا ﴿إِذَا صَلَّى﴾ ﴿لِرَبِّهِ﴾. ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ﴾ المنهي عن الصلاة ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ فكيف ينهاه؟ أو إن كان أمراً غيره ﴿بِالتَّقْوَى﴾ أينهاه عن ذلك؟ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ هذا الناهي بما يدعى إليه، وأعرض عنه، ﴿الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ﴾ يرى كل ما يفعل؟ ليس الأمر كما يزعم أبو جهل.

فلئن لم يرجع هذا عن شقاؤه وأذاه لناخذنَّ بمقدّم رأسه أخذًا عنيفًا، ويُطرح في النار، ناصيته ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ﴾ في مقالها، ﴿حَاطَتَهُ﴾ في أفعالها. فليُحْضِرْ هذا الطاغية أهل ناديه الذين يستنصر بهم، سندعو ملائكة العذاب. ف ﴿لَا تُطْعَمُهُ﴾ فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، ﴿وَأَسْجُدْ﴾ لربك ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾^(١) منه بالتحبب إليه بطاعته^(١).

* * *

المبحث الثاني

وقفات حول سورة العلق

المطلب الأول: حدث عظيم في تاريخ البشرية:

إنه حادث عظيم، عظيم جداً، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بقيمته فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا! إنه عظيم بحقيقته، وعظيم بدلالته، وبعيداً بآثاره في حياة المكلفين، وهذه اللحظة تعد أهم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها.

حقيقة هذا الحدث: أن الله ﷻ قد كرم هذه الخليفة باختيار واحد منها ليكون مُتلقٍ نور الوحي الإلهي، ومبلغ كلمات الله إلى العالمين، وممثل قدره الذي يريده سبحانه بهذه الخليفة، وهو خاتم رسله إلى الناس أجمعين. بل رسوله إلى الثقلين.

أما دلالة هذا الحدث: فهي أن الله سبحانه ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، الكريم الودود المنان؛ يتفضل بعبائه ورحمته على خلقه بلا سبب منهم، ولا حاجة إليهم، سوى أن هذا الفضل والعطاء بعض آثار أسمائه وصفاته الحسنی، قال تعالى:

﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس].

ومن دلالاته: أن الله سبحانه قد أكرم المكلف كرامة لا يكاد يتصورها، ولا يملك أن يشكرها، ولو قضى عمره راکعاً ساجداً.. وهي: أن وجود الله عليه ويصله بكلامه، ويختار من جنسه رسولاً يوحى إليه بكلماته، وأن تكون الأرض مهبطاً لهذه الكلمات التي يحيا بها الخلق في خشوع وابتهاال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران].

فأما آثار هذا الحادث: فقد بدأت منذ اللحظة الأولى، بدأت في تحويل خط
الجهة التي يتطلع إليها المكلف ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه.. إنها الرسالة
والوحي الذي يبلغه الرسول ﷺ عن رب العالمين ﷻ.

ومنذ هذه اللحظة عاش المؤمنون في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة،
يتطلعون إلى الله وحده في كل أمرهم - كبيراً وصغيراً - يعيشون ويتحركون تحت
عين الله، وينتظرون ويتلهفون رعايته سبحانه، فتنتقل خطاهم في مرضاته خطوة خطوة،
وتردهم عن الخطأ، وتقودهم إلى الصواب، وفي كل ليلة كانوا يبيتون ركعاً سجداً
يتلون وحيًا يحدثهم بما تحتاجه نفوسهم، ويفصل في مشكلاتهم، ويقول لهم: خذوا
هذا ودعوا ذاك!.

لقد كانت فترة الثلاثة والعشرين عامًا التالية لهذا الحدث العظيم فترة لا يتصور
حقيقتها إلا الذين عاشوها، وأحسوها، وشهدوا بدأها ونهايتها، وذاقوا حلاوة هذا
الاتصال، ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا، وكيف كانوا في السابق وكيف أصبحوا
بعد هذا الوحي، وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض، قال
تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ
بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأنعام].

وكانوا يعرفون مذاق هذه الحياة الطيبة، ويدركون حلاوتها، ويشعرون بقيمتها،
ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانقطعت هذه
الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقاً، ونحن نعيش اليوم
نقتطف ثمارها ونرى آثارها.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى
أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما أتيا إليها بكت. فقالا لها: ما
بيكيك؟! أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ! قالت: بلى، إني لأعلم أن ما

عند الله خيرٌ لرسول ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعللا يبكيان معها^(١).

وأثار هذا الوحي ظاهرة في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لقد عمَّ المكلفين الخير من جديد باستمداد قيمه من الله رب السماء والأرض، واستمداد شريعته من الوحي الإلهي لا من الهوى قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾.

وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق، وقامت عليه ومنه معالم في الأرض واضحة عالية لا تطمسها الأحداث ولا الزمن، وقام في الإنسان دينٌ وقيمٌ لم يسبق أن ظهرت وانتشرت بمثل هذه الصورة بغير وحي من الله ﷻ. ولن يجيء بعده دينٌ في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعاً، مع واقعيته وملاءمته للحياة. ولقد استقرت قواعد هذا الدين الإلهي في الأرض، وتبينت خطوطه ومعالمه ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] لا غموض ولا إبهام، ولا يخالفها إلا الضلال عن علم، أو الانحراف عن عمد، أو الالتواء عن قصد، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام].

نسأل الله العفو والعافية، وأن يثبتنا على الهدى والنور إلى يوم نلقاه.

المطلب الثاني: آيات التوجيه الأولى للأمة:

﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذه خمس آيات هي أول توجيه لمحمد ﷺ وأُمَّته، فيا ترى ما هي أسرار ذلك التوجيه وأثره في بداية الدعوة؟

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أم أيمن (٢٤٥٤).

المحور الأول: أسرار التوجيه في الآيات:

أولاً: البداية بالأمر بالبسملة: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾:

هذه بداية السورة الأولى من القرآن، وهي التوجيه الأول؛ في اللحظة الأولى من الوحي، وفي أول خطوة من خطوات طريق الدعوة إلى الله فهي تبدأ باسم الله.

وفي هذا إشارة إلى بداية كل أمر أن تكون بالبسملة، وهذه سنة الله تعالى في كتابه فقد بدأت أول سورة في المصحف بالبسملة وهي آية من الفاتحة على الراجح.

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام يفتتح كتابه إلى ملكة سبأ بالبسملة قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل].

وفي قصة نوح عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود].

ونرى هذا جلياً في تعليم النبي ﷺ لأمته حيث كان يأمرهم في بداية كل أمر أن يقولوا بسم الله، في الوضوء ودخول المسجد، ودخول البيت والخروج منه، وفي بداية الطعام، وفي اتيان الرجل زوجته وفي كل أحوالهم، والأدلة على ذلك كثيرة.

وقد ابتداء البخاري رحمه الله كتابه الصحيح بالبسملة فقال رحمه الله: «بسم الله الرحمن الرحيم. كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ»، وعلق ابن حجر على هذه البداية بقوله: «ويؤيده أن أول شيء نزل من القرآن ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فطريق التأسي به الافتتاح بالبسملة، ويؤيده أيضاً وقوع كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك وكتبه في القضايا مفتوحة بالتسمية كما سيأتي في حديث أبي سفيان في قصة هرقل في هذا الباب، وفي حديث البراء في قصة سهيل بن عمرو وفي صلح الحديبية، وغير ذلك من الأحاديث..»^(١).

(١) انظر: فتح الباري ١/١ مختصراً.

ثانياً: اختيار اسم الله (الرب) في بداية التنزيل: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾:

﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فيه إشارة على ربوبية الله تعالى، وعنايته به وبخلقه، وتذكيرهم بهذه النعمة، فعندما خلقهم لم يتركهم سدى!! بل ربّاهم وقام على إصلاح شؤونهم.

«وعدل عن اسم: (الله) العلم إلى صفة ﴿رَبِّكَ﴾ لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبي ﷺ إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده، ردّاً على الذين جعلوا لأنفسهم أرباباً من دون الله، فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام»^(١).

ثالثاً: من أعظم آثار الرب صفة الخلق والبدء: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾:

مِنَّةً من الله تعالى في بداية رسالته لخلقه أن يذكرهم أنه هو الذي خلقهم، ولذلك فهو أعلم بهم وبما يصلحهم، وأنه يجب عليهم أن يشكروا تلك النعمة بالاستسلام لما سيمليه عليهم من توجيهات.

«وجاء في وصف الرب ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ لأن في ذلك استدلالاً على انفراد الله بالإلهية لأن هذا القرآن سيتلى على المشركين، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خالِقٌ دَلَّ ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره مما ليس بخالق، فالمشركون كانوا يقبلون على اسم اللات واسم العزى!! وأما كون الله هو الخالق فهم يعترفون به، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان]، فلما كان المقام مقام ابتداء الإسلام دين التوحيد كان مقتضياً لذكر أدل الأوصاف على وحدانيته»^(٢).

رابعاً: تخصيص خلق الإنسان بالذكر: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾:

وهذا التخصيص سببه «أن الإنسان هو المقصود من الاستدلال إذ لا يغفل أحد

(١) التحرير والتنوير ٤٣٧/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ٤٣٧/٣٠، باختصار وتصرف.

من الناس عن نفسه، ولا يخلو من أن يخطر له خاطر البحث عن الذي خلقه وأوجده لذلك، وفيه تعريض بتحقيق المشركين الذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوجدانية قائم في أنفسهم»^(١). وخص الإنسان بالذكر تشریفاً له.

خامساً: أول خلق الإنسان ومبدأه وأول مرحلة من مراحلها: ﴿حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾:

العلق: «جمع علقة، والعلقة الدم الجامد، سميت بذلك لأنه تعلق لرتوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة، وأراد أن يبين قدر نعمته عليه بأن خلقه من علقة حتى صار بشراً سوياً وعلقاً مميزاً»^(٢).

وفي هذا «إشارة إلى ما ينطوي في أصل خلق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطان هذا العالم الأرضي.

ومن المعلوم أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافية تصيران علقة، فقد أخذت الآية في ذكر أطوار التكون؛ فجعلت العلقة مبدأ الخلق، ولم تجعل النطفة مبدأ الخلق؛ ولأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة فلا يتخلق الجنين.

وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة»^(٣) المشار إليها في الآية بعدد.

سادساً: بيان كرم الله تعالى على خلقه: ﴿أَفَرَأَوْرَبِّكَ الْأَكْرَمُ﴾:

﴿الأكْرَمُ﴾ هو: «كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود»^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٨. مختصراً

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٩.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٨. مختصراً.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٠.

«وَوَصَّفُ ﴿الْأَكْرَمُ﴾ مصوغٌ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم وليس مصوغاً للمفاضلة»^(١).

«فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم»^(٢)، وقبل ذلك خلقهم من العدم ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ [التين: ٤]، وأرسل إليهم أفضل رسله وأنزل إليهم خير كتبه، وجعلهم الأمة الخاتمة، وأكمل لهم دينهم، ورضي لهم الإسلام ديناً، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وجعلهم من خير أمة أخرجت للناس متى تمسكوا بهذا الدين علماً وعملاً ودعوة، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

بل رحمهم بشريعة سمحة كلها تيسير ورحمة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْجَبَّاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

❖ ولو تركنا المجال للحديث عن كرم الله تعالى من خلال هذه الرسالة الخالدة لن نحصيها والله يقول: ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

ومن كرمه نعمة العلم بعد الجهل التي في الآية التالية:

سابعاً: المنة بتعليم الإنسان: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾:

وذكر القلم من بين سائر أدوات التعليم: لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٠.

أدوات التعليم أثرًا في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية.

﴿ ويعلمنا الله سبحانه قيمة القلم، فيشير إليه في أول لحظة من لحظات الرسالة الخاتمة للبشرية، في أول سورة من سور القرآن الكريم، مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبًا بالقلم.﴾

قال قتادة: «القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين، ولم يصلح عيش»^(١)، فدل «ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو.

وما دونت العلوم، ولا قيدت الحِكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا»^(٢).

قال القرطبي: «قال علمائنا: الأقلام في الأصل ثلاثة:

الأول: الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب»^(٣).

والثاني: أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال»^(٤).

(١) جامع البيان ٥١٩/٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢٠/٢٠.

(٣) يشير إلى حديث النبي ﷺ: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب! قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» أخرجه أحمد ٣١٧/٥ (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة ٢٦٤/٧ (٣٥٩٢٢)، والترمذي كتاب القدر باب ١٧ (٢١٥٥) وكتاب التفسير سورة ن (٣٣١٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف جامع الترمذي.

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ كَتِيبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]، وحديث النبي ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا يؤمر بأربع =

والثالث: أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم^(١).

◉ وهذه إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومنزلته، في بناء الشعوب والأمم وفيها إشارة واضحة بأن من أخص خصائص الإنسان العلم والمعرفة.

ثامناً: مصدر العلم والتعلم: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾:

«إذا نظرت إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً عن سؤال يجيش في خاطر الرسول ﷺ أن يقول كيف: أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم.

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل «ما أنا بقارئ» فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام^(٢).

◉ وفي هذا الخبر إبراز مصدر التعليم؛ إن مصدره هو الله؛ منه يستمد الإنسان كل ما عِلِمَ، وكل ما يَعْلَمُ، وكل ما يفتح له من أسرار العلم مستقبلاً؛ سواء من أسرار الحياة، أو من أسرار نفسه، فهو من ذلك المصدر الواحد الذي هو أعلم بما خلق.

«وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله ﷺ هي الأمر بالقراءة، وما زال الإسلام يحث على العلم، ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميزهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

= كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد..» أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) والفظ له، ومسلم في القدر باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٦.

وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ [المجادلة]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾﴾ [الزمر].

﴿ إن مصدر العلم النافع من الله ﷻ، فهو الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى رجع علمها وبالأعلى عليها وسبباً في إبادتها^(١).

﴿ بهذا المقطع وضعت قاعدة الإيمان العريضة، فكل أمر وكل حركة وكل عمل باسم الله يبدأ.. وباسم الله يسير.. وإلى الله يتجه.. وإليه يصير.

﴿ المحور الثاني: أثر الوحي على الدعوة:

عندما نقف عند سبب نزول الآيات وملابساتها من خلال حديث أم المؤمنين عائشة ؓ نجد فيها من الفوائد والعبر الشيء الكثير ومن أهمها:

أولاً: حال النبي ﷺ قبل الوحي إليه:

١ - أخلاق النبي ﷺ قبل التوجيه:

عندما رجع رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، دخل على أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ؓ فقال: «زملوني زملوني». فزملته حتى ذهب عنه الروع، ثم لما أخبر خديجة الخبر، قال: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(٢).

لقد كان موقف خديجة ؓ من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها، حيث قارنت بين ما سمعت، وواقع النبي ﷺ، فأدركت أن من جُبل على مكارم الأخلاق لا

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، ص ٣٤.

(٢) تقدم تخريج القصة.

يخزيه الله أبداً، فقد وصفته بأنه «يصل الرحم»، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداد النفس لبذل الخير والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرأة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه، وكسبهم بما له عليهم من معروف كان طبيعياً بأن ينجح في كسب غيرهم من الناس.

«ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تطاول ولا تُسامى»^(١).

فهذه هي صفات الداعية التي يجب أن تكون في الداعية لبدأ دعوته، ويحق له أن يكون داعية بحق.

٢- كان يخلو ﷺ بغار حراء فيتحنث فيه:

حب إلى نفس النبي ﷺ الخلوة قبل بعثته، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء متعبداً. لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق. واستجماعاً لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية. وتفرغاً لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود.

كانت هذه الخلوة التي حببت إلى نفس النبي ﷺ لونها من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية والتأديب الرباني في جميع أحواله، وكان تعبه ﷺ قبل النبوة بالتفكير في بديع ملكوت السموات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه^(٢).

(١) محمد رسول الله لمحمد صادق عرجون ١/ ٢٣٢.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٥٤ بتصرف.

وهذه الخلوة مهمة لكل مسلم سواء كان حاكماً أو عالماً، أو قائداً، أو تاجرًا..
لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب، ونصحح واقعنا على ضوء الكتاب
والسنة، ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب.

وينبغي للدعاة والمربين أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة
والتوبة، والتأمل في واقع الدعوة وما هي عليه من قوة أو ضعف واكتشاف عوامل
الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره.

٣- الرؤيا الصالحة أول الوحي:

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي
الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(١).

وتسمى أحياناً بالرؤيا الصادقة، والمراد بها هنا رؤى جميلة ينشرح لها الصدر
وتزكو بها الروح^(٢)، ولعل الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله ﷺ بالوحي بالمنام، أنه
لو لم يتبدئه بالرؤيا، وأتاه الملك فجأة ولم يسبق له أن رأى ملكاً من قبل، فقد يصيبه
شيء من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقى منه شيئاً، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه
الوحي أولاً في المنام ليتدرج عليه ويعتاده^(٣).

والرؤيا الصالحة من البشئ في الحياة الدنيا فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «أياها
الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في المقدمة كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣).

(٢) طريق النبوة والرسالة، حسين مؤنس ص ٢١.

(٣) منامات الرسول ﷺ، عبد القادر الشيخ إبراهيم ص ٥٧.

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة في الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٦)، وابن ماجه كتاب تعبير الرؤيا باب
الرؤيا الصالحة (٣٨٩٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

فكان ﷺ قبل نزول جبريل عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة فيصحو منشرح الصدر، متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال^(١) يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة، واضحة؛ شبهتها السيدة عائشة رضي الله عنها بظهور ضوء الصبح^(٢).

وقد تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

- ١- الرؤيا الصادقة: وكانت مبدأ وحيه ﷺ.
- ٢- الإلهام: وهو أن ينفث الملك في روعه - أي قلبه - من غير أن يراه كما قال ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٣).
- ٣- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس: أي مثل صوته في القوة، وهو أشده، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أن الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»^(٤).
- ٤- ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة ملك: وثبتها لنا نبينا ﷺ في حديث فرض الصلاة.
- ٥- أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها: فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه، كما في هذه السورة.

(١) طريق النبوة والرسالة ص ٢٢.

(٢) محمد رسول الله ١/ ٢٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٧٩ (٣٤٣٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٢٩٩ (١٠٣٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦).

(٤) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدأ الوحي على رسول الله (٢).

٦- أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً: فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً. هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي (١).

ثانياً: ما حدث وقت الوحي إليه:

الشدة التي تعرض لها النبي ﷺ ووصف ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل ﷺ بضغط النبي ﷺ مراراً حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يلقي من الوحي شدة وتعباً وثقلًا، وكان في ذلك حكماً عظيمةً لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب.

لقد كان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله ﷺ كما هو واضح من النص، بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلباً، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى، ليستقبله من اصطفاه الله ﷻ لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسئولية عظيمة، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله ﷻ لحمل هذه الرسالة وتبليغها (٢).

ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ: «لقد خشيت على نفسي» وقول عائشة ﷺ في هذا الحديث: (فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ﷺ قال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع).

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ٧٨ مؤسسة الرسالة.

(٢) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر للحميدي ١/ ٦٠.

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما في حديث عائشة رضي الله عنها: قالت: (ولقد رأيته - تعني رسول الله ﷺ - ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً) (١) وحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كُربَ لذلك وترَبَّد وجهه) (٢).

ثالثاً: ما حصل بعد الوحي:

١ - أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة:

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدل على قوة قلبها، حيث لم تنزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضت الأمر عليه (٣).

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدور مهم في حياة النبي ﷺ لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية؛ من الرحمة والحلم والحكمة والحزم، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، فقيام خديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله ﷺ حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يسعون لتحقيقها (٤).

إن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مثال حسن، وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة، ومن الصعب أن يكون

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدأ الوحي على رسول الله رقم (٢)، ومسلم كتاب الفضائل باب قوله (يفصم) رقم (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي رقم (٢٣٣٤).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ١/ ٦١.

(٤) المصدر السابق ١/ ٦٩.

مثلهم في كل شيء، إنه صاحب همٍّ ورسالة، وإنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميته، وتدرك تمامًا ما يقوم به الزوج وما يتحملة من أعباء، وما يعانیه من مشاق، فتقف إلى جانبه تيسر له مهمته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقًا وشوكة في طريقه (١).

ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك من أهم عوامل نجاحه مع الآخرين (٢).

٢- سنة تكذيب المرسلين:

لقد قال ورقة للنبي ﷺ: (يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ مُخْرَجِيَّ هَمْ؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا) (٣).

فبين له سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله ﷻ وهي التكذيب والإخراج، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف].

وقال قوم شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولُو كُنُوزِهِمْ إِنَّهُمْ لَأَعْرَافٌ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن الأنبياء جمعًا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم].

(١) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، البلالي ص ٤٠.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٦٨/١.

(٣) تقدم تخريجه.

٣- فتور الوحي:

تحدث علماء السيرة عن فترة الوحي، قال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخير مدة من الزمان، وكان ذلك ليُذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود^(١).

فمن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ قال وهو يحدث - أي بحديث النبي ﷺ - عن فترة الوحي: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ ۝١ فَرَفَأَنذَرُ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَبِيرُ ۝٣ وَيَأْبَاكَ فَطَهَّرُ ۝٤ وَالرُّجْزُ فَاهْجُرُ ۝٥﴾ [المدثر] فحمى الوحي وتابع»^(٢).

وقد سبق الكلام عن مدته وما نزل بسببه عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣].

المطلب الثالث: صفة الطغيان عند الإنسان وعلاجها:

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۝١ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٢﴾

من مقتضيات الحقيقة التي بينها الله في بداية السورة - وهي حقيقة أن الله هو الرب الذي خلق، وهو الذي علم، وهو الذي أكرم - أن يشكر. ولكن الذي حدث كان غير هذا، فوقع الانحراف عن الشكر إلى الطغيان الذي بينه الله في هذا المقطع من السورة.

أولاً: الصفة الذميمة: الطغيان عند الاستغناء:

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۝١﴾ «والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان»^(٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي رقم ٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٣.

«وعلة هذا الخلق ﴿أَنْ رَّأَاهُ اسْتَعَى﴾ إِنَّ الاستغناء يُحدِّث صاحبه نَفْسَهُ بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج إليه، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصبو خُلُقًا، حيث لا وازع يزع من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم لأن له ما يدفع به الاعتداء من لَأَمَةِ سِلَاحٍ وخدمٍ وأَعْوَانٍ وَعِفَاةٍ؛ ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأَجْرَاءٍ، فهو في عِزَّةٍ عند نفسه. فقد بينت هذه الآية حَقِيقَةَ نَفْسِيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمِ النَفْسِ. وَنَبَّهَتْ عَلَى الْحَذَرِ مِنْ تَغْلُغْلِهَا فِي النَفْسِ»^(١)، وقد رُوي هذا المعنى مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»^(٢).

❖ **ولذلك نقول:** «إن السبب الرئيسي لعدم إيمان الكثير من الناس بالله وعدم قيامهم بحقوق عبوديته هو عدم استشعارهم حاجتهم إليه، ففي ظنهم أنهم يمتلكون أسباب القوة مما يجعلهم في غنى عنه سبحانه، وعندما يستبدل حالهم من اليسر إلى العسر ومن السعة إلى الضيق، ومن الأمن إلى الخوف؛ فإنهم يتجهون بكليتهم إلى الله ﷻ بعد أن زالت عنهم عوارض القوة، وعاشوا في حقيقة فقرهم وضعفهم واستشعروا حاجتهم الماسة إليه سبحانه فتراهم يعودون إليه متضرعين منكسرين مخلصين له الدين..

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أُنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس].

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٤٥ بتصرف يسير.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ١/٩٢ من طريق قتادة، عن أنس به مرفوعا، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/٢٢٣ من طريق زيد بن وهب، عن ابن مسعود به مرفوعا، وفي إسناده ضعف.

ولقد كان الرسل جميعاً يركزون في دعوتهم للناس على إشعارهم بحاجتهم إلى الله فيذكرونهم بحجم النعم التي أنعمها عليهم سبحانه ويخوفونهم من سوء مآلهم إن هم عصوه وكفروا به»^(١).

◉ ثانياً: العلاج بالتذكر بالرجوع إلى الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ «وهذه موعظة وتهديد على سبيل التعريض لمن يسمعه من الطغاة وتعليم للنبي ﷺ وتثبيت له، أي لا يحزنك طغيان الطاغية فإن مرجعه إلىّ، ومرجع الطاغية إلى العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّاغِيَتِ مَعَابَا ﴿٢٢﴾﴾ [النبا]، وهو موعظة للطاغية بأن غناه لا يدفع عنه الموت، والموت: رجوع إلى الله، كقوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلِّقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق].

وفيه معنى آخر وهو أن استغناؤه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله في أهم أموره، ولا يدري ماذا يُصيرُه إليه ربه من العواقب، فلا يزدده غنى زائف في هذه الحياة. فيكون معنى ﴿الرُّجْعَىٰ﴾ مستعملاً في الاحتياج إلى الرجوع إليه.

وتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ مُراعى فيه المعنى التعريضي؛ لأن معظم الطغاة ينسون هذه الحقيقة بحيث ينزلون منزلة من ينكرها»^(٢).

◉ وبهذا تجتمع أطراف الإيمان: الخلق والنشأة، والتكريم والتعليم، ثم الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك.

◉ المطلب الرابع: صورة من طغيان الإنسان وعاقبتها:

◉ أولاً: طغيان من يحارب الهدى ويكذب به ويؤذي أهله:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿٣﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ ﴿٤﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٥﴾﴾.

(١) الإيمان أولاً كيف نبدأ به ١٨.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٤٦.

سبب نزول الآيات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيتَه يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفّرَن وجهه في التراب، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجاهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة. قال: فقال رسول الله: «لودنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». قال: وأنزل الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «لئن فعله لأخذته الملائكة»^(٢).

أسلوب الآيات:

التشجيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير، التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة، ولا تؤدّي إلا في أسلوب الخطاب الحي، الذي يعبر بلمسات متقطعة في خفة وسرعة! فالصورة الذهنية: ﴿أَرَأَيْتَ﴾: أ رأيت هذا الأمر المستنكر؟! أ رأيتَه يقع؟! ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾.

أ رأيت حين تضم شناعة إلى شناعة؟! وتضاف بشاعة إلى بشاعة؟! أ رأيت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته، ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ﴿٢﴾﴾؟ ثم ينهاه من ينهاه مع أنه ﴿عَلَى الْهُدَى ﴿٣﴾﴾؛ أمر بالتقوى!! أ رأيت إن أضاف إلى الفعل المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً؟! ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤﴾﴾.

(١) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب إن الإنسان ليطغى (٢٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سوره اقرأ باسم ربك (٤٩٥٨).

فالاستفهام هنا يفيد الإنكار والتعجب مع بيانه لحال طرفي القضية، فالناهي: مكذب ومتولٍ، والمنهي عبدٌ مصلٍ متبعٍ لطريق الهدى والنور، هادٍ غيره إليه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

فليس بخيلاً ولا ضنيناً به بل هو باذلٍ لمعرفه مع علمه به، فهو قد جمع في دعوته بين حسن القدوة وحسن الطلب مع حسن الهدى والعمل بخلاف الطرف الأول -الناهي- فقد جمع بين الكذب، وهو مخالفة الأمر للواقع عن قصد وغير قصد- بل هو إلى الأول أقرب- وبين التكذيب وهو الجحد والنكران للرب المنعم المتفضل، وبين التولي والإعراض؛ فهو غير مستمتع ولا متعقل لما عليه الطرف المنهي وهو رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك].

◉ ثانياً: جزاء هذا الطغيان:

بين الله تعالى في الآيات جزاء هذا الطغيان فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَوَّ يَنْتَهُ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾. فتضمنت الآيات التهديد والتخويف بأمور:

- ١- التهديد برؤية الله تعالى والتخويف بذلك.
- ٢- الزجر والوعيد.
- ٣- التهديد بعدم منفعة الأصحاب المساعدين في عداء.
- ٤- التخويف بملائكة العذاب يوم القيامة.

وإليك بيانها:

(١) التهديد برؤية الله تعالى والتخويف بذلك:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾﴾ فهو سبحانه يرى تكذبه وتوليّه، ويرى نهيّه للعبد

المؤمن إذا صلى؛ وهو على الهدى؛ أمرًا بالتقوى. يرى وللرؤية ما بعدها! فهذا تذكير بالله تعالى وتخويف به. قال ابن كثير: «أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء»^(١).

وهذا التهديد يؤثر على النفس تأثيرًا عظيمًا فهو «يثير الهمم الراكدة، ويسيل العيون الجامدة، ويبعث على الحياء والمراقبة»^(٢). فالتخويف برؤية الله تنبيه على المراقبة.

قال الغزالي: «فاعلم أن الله مطلع على ضميرك، ومشرف على ظاهرك وباطنك، ومحيط بجميع لحظاتك، وخطراتك، وخطواتك، وسائر سكناتك وحركاتك؛ وأنت في مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه؛ فلا يسكن في الملك والملكوت ساكن، ولا يتحرك متحرك، إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر]، و﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه] فتأدب أيها المسكين ظاهرًا وباطنًا بين يديه سبحانه؛ واجتهد أن لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، ولا تدع عنك التفكير في قرب الأجل، وحلول الموت القاطع للأمل، وخروج الأمر من الاختيار، وحصول الحسرة والندامة بطول الاغترار»^(٣).

والملاحظ أن الله تعالى هدد وذكر وتوعد بالرؤية قبل الوعيد المفصل، وذلك لأن الرؤية تستلزم الجزاء، وهذا الذي يصد عن الصلاة وأعمال الخير لا يكون جزاءه إلا بالعذاب والنكال والخزي.

٢) الزجر والوعيد:

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهَ لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿٥٥﴾ نَاصِيَةٍ كَدِيبِ خَاطِئَةٍ ﴿٥٦﴾﴾. «أي: ﴿لَئِن لَّمْ يَنْتَهَ﴾ أبو جهل عن أذاك يا محمد، ﴿لَسَفَعْنَا﴾ أي لناخذن ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلنذلنه، وقيل:

(١) القرآن العظيم لابن كثير ٤٣٨/٨.

(٢) الجواهر الحسان للثعالبي ٢٧٠/٤.

(٣) بداية الهداية للغزالي ص ٢.

لنأخذ بناصيته يوم القيامة وتطوى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن]، وإن كانت في أبي جهل فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة.

والسفع: الجذب بشدة، أي لنجرن بناصيته إلى النار. وقيل: الضرب، أي: لنلظمن وجهه.

والناصية: مقدم الرأس. وخص الناصية بالذكر: على عادة العرب وغيرهم فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته»^(١).

«والأخذ من الناصية أخذ من لا يترك له تمكن من الانفلات فهو كناية عن أخذه إلى العذاب، وفيه إذلال لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد إلا لضربه أو لجره»^(٢)، كما ذكر الله ذلك عن موسى وهارون ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف].

فهذه الصورة التي هي الجذب أو الضرب بشدة والسحب من مقدمة رأس الإنسان فيها من الذلة والمهانة لأولئك الذين يصدون عن سبيل الله؛ بل ويعادون أهل العلم والصلاح والدعوة إلى الله، فكان مصيرهم الذل والمهانة.

ثم وصف الله تعالى الناصية بأنها: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: «كاذبة في مقالها، خاطئة في فعالها»^(٣).

وفي الأبحاث العلمية الحديثة يقولون: «إن دراسة الشريح لمنخ الإنسان

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٢٥.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٣٨.

والحيوان تدل على تشابه في وظيفة الناصية، فالناصية هي: مركز القيادة والتوجيه عند الإنسان وكذلك كل الحيوانات»^(١).

يقول بعضهم تعليقاً على هذا الكلام: «لفت هذا القول انتباهي إلى قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود]، وتذكرت أيضاً بعض أحاديث النبي ﷺ في الناصية كقوله: «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك»^(٢)، وقوله: «أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته»^(٣) وقوله: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٤).

فإذا جمعنا معاني هذه النصوص نستنتج أن الناصية هي مركز القيادة والتوجيه لسلوك الإنسان، وكذلك سلوك الحيوان»^(٥)

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: «قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا لَئِن لَّرَبِّيْتَهُ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: ناصية هذا المجرم المعتدي ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ لأن العادة أنه يمسك الإنسان بناصيته، ثم يؤخذ بجريمته، ولا يبعد أن الناصية هي محل الإقدام؛ لأنها هي مقدم الرأس، والرأس هو محل التفكير والتصور، فلا يبعد أن الله أراد هذا المعنى. وإن كان في ظني والله أعلم:

(١) مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في القاهرة عام ١٩٨٥، نقلاً عن كتاب بينات الرسول ومعجزاته ص ٨٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٥٢ (٤٣١٨)، قال الهيثمي في الزوائد ١٠/ ١٣٦ «رجال رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان، وأخرجه الحاكم ١/ ٦٩٠ (١٨٧٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٢٨).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣).

(٤) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب ٢٨ (٣٦٤٣)، ومسلم كتاب الإمارة باب الخيل معقود في نواصيها الخير (١٨٧١).

(٥) بينات الرسول ومعجزاته ص ٨٦-٨٧.

أن الناس في ذلك العهد لا يعلمون بهذا الشيء، لكن لا مانع إذا شهد الحس والأمر الواقع لمعنى صحيح يقاربه القرآن، أقول: لا مانع من أن نقول أنه دال عليه»^(١).

٣) التهديد بعدم منفعة الأصحاب المساعدين في عداء الدعوة:

قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ «أي ﴿فَلْيَدْعُ﴾ أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم»^(٢).

◉ فأعان الظالمين يتخلون عنهم وقت الشدة:

ففي الدنيا: كما فعل إبليس يوم بدر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال].

وكذلك المنافقين واليهود في الغزوات، كما قال تعالى: ﴿الْمُتَرِّ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِبْنَ الْأَذْبُرَ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ﴾ [الحشر]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

أما في الآخرة: فإبليس اللعين كذلك سيتخلى عن كل من أغواهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم].

◉ وكذلك أهل الغواية والباطل يتخلون عمّن أغووهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ

(١) لقاء الباب المفتوح عند تفسير قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ خَاطِئَةٌ﴾ اللقاء (١٥٨) فتوى رقم (١٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٦.

مَنْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجِبُّونَهُمْ كَحِبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا وَمِمَّا كَذَبَ كُفْرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ [البقرة] والأمثلة على ذلك كثيرة.

٤) التخويف بملائكة العذاب يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي: الملائكة الغلاط الشداد، وهو مأخوذ من الزبن، وهو: الدفع^(١)، سماها بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها^(٢).

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنك عن هذا -وتوعده- فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً! فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ قال ابن عباس: لو دعا نادية لأخذته ملائكة العذاب من ساعته^(٣).

٦) ثالثاً: واجب الدعاء أمام هذا الطغيان:

قال تعالى: ﴿كَأَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ١٦ ففي ضوء هذا المصير الرهيب.. تختم السورة بتوجيه المؤمن إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته.. وذلك من خلال توجيهين:

١ - عدم طاعة الطغاة: قوله: ﴿كَأَلَّا لَا تُطَعُّهُ﴾ يعني: «يا محمد، لا تطعه فيما

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٦.

(٢) معالم التنزيل ٨/٤٨١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٣٢٩ (٣٠٤٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وصححه

الألباني في الصحيحة (٢٧٥).

ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلَّ حيث شئت ولا تباله؛ فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس»^(١).

وعلى غرار هذا التوجيه يأتي التحذير الدائم من الله تعالى في كتابه العزيز من طاعة أعداء الله في مواضع كثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ [الأحزاب] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١﴾ [الشعراء]، وهذا السبب في تحذير الله لعباده من طاعة الكفار والمنافقين، فإنهم يبعدون الناس عن دين الله، ويوقعونهم في الظلال والخسران والكفر بالله تعالى.

٢- التقرب لله تعالى بالطاعة: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٢).

فالله تعالى حينما يأمر نبيه بعدم طاعة الكفار يأمره بطاعته لأنها هي المنجية له من كيد الكفار قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ١٥٠﴾ وكيف تكفرون وأنتم تتلى علىٰكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ^(١١) [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ^(١٥٠) [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٣٩ / ٨.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)

وَالْمُتَّقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴿الأحزاب﴾.

قال الشيخ السعدي: «وهذا عامٌ لكل ناه عن الخير ونهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعبث به وأذاه»^(١).

﴿ وهذا التوجيه يعطينا بعداً تربوياً لا بد للدعاة أن ينتبهوا إليه، ألا وهو التضرع لله وبيان الذل له والتقرب إليه خصوصاً في أيام الأزمات، فالله تعالى يقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتزَعَّوْا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا كُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٧٤) [آل عمران].



تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

سُمّيت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة: (سورة القدر)، وهذه التسمية هي المشهورة والمتعارف عليها، وسماها بعض العلماء: (سورة ليلة القدر)^(١).

ثانياً: نزولها. ومناسبتها:

عدها صاحب الإتيان من السور المختلف فيها وقال: والأكثر أنها مكية^(٢).

(١) هذه التسمية عند ابن كثير في إحدى النسخ، انظر: هامش تفسير ابن كثير ٤٤١/٨ وكذا ذكرها في نهاية تفسير سورة القدر ٤٥٣/٨، وقبلة: الجصاص في أحكام القرآن ٣٧٣/٥، وذكرها كذلك: ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤٥٥/٣٠.

(٢) انظر: الاتقان ١٣/١. وقيل: مدنية في أحد قولي ابن عباس، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة، قال ابن عاشور التحرير والتنوير ٤٥٥/٣٠، «إن المتبادر أنها تتضمن التّرجيب في إحياء ليلة القدر، وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة»، انظر: الناسخ والمنسوخ للمقري ص ٢٠١، =

قال الخطابي: «لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ على القرآن، ووضعوا سورة القدر عقب العلق، استدلووا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿أَفْرَأَيْتَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهذا بديع جداً»^(١).

أما عدد آياتها (٥) آيات، وكلماتها: (٣٠) كلمة، وحروفها: (١١٢) حرفاً^(٢).

وفي سبب نزولها:

عن مجاهد رحمه الله قال: ذكر النبي ﷺ رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال: خير من التي لبس فيها السلاح ذلك الرجل^(٣).

وعن مجاهد قال: «كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل»^(٤).

ومناسبتها لما قبلها:

«ختمت سورة «العلق» بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لَا تَطْعَمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وجاءت بعد ذلك سورة القدر، وفيها تنويه بشأن هذا القرآن الذي أنزل على النبي ﷺ، والذي

= وللنحاس ٣/١٥٣، ولابن حزم ص/٦٦. والإتقان ١/٢٧، والمحرم الوجيز ١٥/٥١٨، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٩.

(١) أسرار الترتيب ١/٢٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨١.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٤٩٥)، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٣٠٦، وابن كثير في التفسير

٤٤١/٨.

(٤) جامع البيان ٢٤/٥٤٦ عن مجاهد مرسلًا.

هداه ربه، وملاً قلبه إيماناً و يقيناً بعظمته وجلاله.. وبهذا الإيمان الوثيق يتجه النبي ﷺ إلى ربه لا يخشى وعيدا، ولا يرهب تهديدا»^(١).

ثالثاً: موضوعها:

١- الحديث عن تلك الليلة المشهودة التي فضّلها الله على غيرها بنزول الوحي من الله بالقرآن الكريم، الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته، وفي دلالته، وفي آثاره في حياة البشرية جميعاً إلى قيام الساعة.

٢- بين الله فيها عدة أمور:

- أ- التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى.
- ب- الرد على الذين أنكروا أن يكون القرآن منزلاً من الله تعالى.
- ج- رفع شأن الوقت الذي أنزل فيه القرآن وشرفه بنزول الملائكة في ليلة إنزاله.
- د- تفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام، وتحريض المسلمين على تحين ليلة القدر بالقيام وجميع أعمال البر.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وذلك أن الله ابتداءً بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

ثم فخم شأنها، وعظم مقدارها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أي: فإن شأنها جليل، ومقدارها عظيم. ثم فصل في هذا الفصل فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣ / ٨١.

أي: تُعَادِلُ في فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر خالية منها.

◉ وذكر من فضلها: ﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يكثر نزولهم فيها.

◉ ومن فضلها: ﴿مَنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿١﴾ سَلَّمَ هِيَ﴾ أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك

لكثرة خيرها، ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر^(١).

* * *

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول: أنزل الله القرآن في ليلة القدر:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾:

هذه الآية اشتملت على عدة فوائد منها:

● «تنويه عظيم بالقرآن فافتتحت بحرف إنَّ، وبالإخبار عنها بالجمله الفعلية وكلاهما من طرق التأكيد والتقوية، وهذا أسلوب بليغ للرد على الذي أنكروا أن يكون القرآن منزلاً من عند الله تعالى».

● وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشریفٌ عظيمٌ للقرآن.

وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر: إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين؛ لشدة إقبالهم عليه، فكون الضمير دون سبقٍ معادٍ إيماءً إلى شهرته بينهم.

● والمقصود من تشریف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها؛ تشریف آخر للقرآن بتشریف زمان ظهوره، تنبيها على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتاً شريفاً مباركاً، لأن عِظَمَ قَدْرِ الفِعْلِ يقتضي أن يُختار لإيقاعه أفضل الأوقات والأمكنة، فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى^(١).

● والآية صريحة في أن الآيات الأول من القرآن نزلت ليلاً وهو الذي يقتضيه

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٦-٤٥٧.

حديث بدء الوحي لقول عائشة رضي الله عنها فيه: «فكان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد»^(١) فكان تعبده ليلاً.

وعليه يكون قول عائشة رضي الله عنها «فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده»^(٢) معناه أنه خرج صلى الله عليه وسلم من غار حراء إثر الفجر بعد انقضاء تلقينه الآيات الخمس من سورة اقرأ، إذ يكون نزولها عليه في آخر تلك الليلة، وذلك أفضل أوقات الليل، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] ^(٣).

ولذلك أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بقليل: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ۝ قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نَصْفَهُ ۝ وَأَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَيْلَ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾ [المزمل].

● وتدل الآية على أن واجبنا تجاه القرآن:

١- قراءة القرآن في الليل، وفي الثلث الأخير من الليل، في الوقت الذي اختار الله تعالى فيه نزول القرآن، والله تعالى ينزل فيه إلى السماء الدنيا كما صحَّ ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «ينزل ربنا صلى الله عليه وسلم كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(٤)، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على قيام

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بد الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)، ومسلم كتاب

الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٦-٤٥٨ بتصرف واختصار.

(٤) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب الصلاة والدعاء آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم كتاب الصلاة باب في

الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٨).

ليلة القدر، قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»^(١).

٢- تقدير القرآن واحترامه، وعدم قراءته والذهاب به إلا في الأماكن المحترمة والاستعداد لقراءته، وأن نملاً به بيوت الله -المساجد- بالتلاوة والتدارس فإنها أفضل وأطهر، بل وأحب مكان عند الله يقرأ فيه القرآن، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَيُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿وَمَسْجِدٍ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

٣- كما أن هذه المعرفة للوقت والشرف توجب علينا أثرًا في السلوك والاعتقاد تجاه هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

المطلب الثاني: لماذا سميت بليلة القدر:

للقدر معانٍ كثيرة كلها تفيد التعظيم والإجلال والاحترام، ومنها:

١- ليلة الحُكْم: كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان]. قال ابن جرير: «وهي ليلة الحُكْم التي يقضي الله فيها قضاء السنة؛ وهو مصدر من قولهم: قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ هَذَا الْأَمْرَ، فَهُوَ يَقْدُرُ قَدْرًا»^(٢).

٢- ليلة التقدير: سميت بذلك لأن الله تعالى يُقَدِّرُ فيها ما يشاء من أمره،

(١) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية (١٩٠١)، كتاب الصلاة باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٩).

(٢) جامع البيان ٢٤ / ٥٣١.

إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، قال
عكرمة رضي الله عنه: يُكْتَبُ حَاجُ بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ
أَبَائِهِمْ، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: «يُكْتَبُ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ
مِنْ رِزْقٍ وَمَطَرٍ وَحَيَاةٍ وَمَوْتٍ، حَتَّى الْحَاجِّ»^(١).

٣- القَدْرُ والمكانة والشرف: وإنما سميت بذلك:

- ❖ لعظمتها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر، أي شرف ومنزلة.
- ❖ لأن من لم يكن له قدر ولا شأن يصير في هذه الليلة ذا قَدْرٍ إذا أحيأها.
- ❖ لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلاً.
- ❖ لأنه أنزل فيها كتابًا ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر.
- ❖ لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وشأن.
- ❖ لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة.
- ❖ لأن الله تعالى قَدَّرَ فيها الرحمة على المؤمنين^(٢).

٤- القدر: أي: «من الضيق أي: هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة
الذين ينزلون، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الطلاق: ٧]»^(٣).

المطلب الثالث: عظم أمر ليلة القدر:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾:

«تنويه بطريق الإبهام المراد به: أن إدراك كنهها ليس بالسهل، لما ينطوي

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٢/٢١٤، والدر المشور ٧/٣٩٩.

(٢) انظر: هذه المعاني والتعليقات في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٣١ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٩/١٨٢.

عليه من الفضائل الجمّة، وكلمة (ما أدراك ما كذا) كلمة تقال في تفخيم الشيء وتعظيمه، والمعنى: أي شيء يُعرّفك ما هي ليلة القدر؟ أي يعسر على شيء أن يعرفك مقدارها»^(١).

وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي تلك الليلة يُقسّم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله، ويقع فيها من الخير الكثير والرحمة العظيمة.

وفي هذه الليلة حدثت وتحدثت أمور ذات شأن عظيم لعل من أعظمها:

١) نزول القرآن في ليلة القدر:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: «أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٢)(٣).

٢) ليلة مباركة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ﴿أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان]. «والمباركة: الكثيرة الخير، لما ينتج الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده؛ لكفى به بركة»^(٤)، لأن القرآن مبارك قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص] ولذلك فالليلة التي نزل فيها تكون ليلة مباركة.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٤١، وهذا الأثر مشكل وفيه دراسة مستقلة في ثبوته وفي تأويله وإن

كان عمدة المؤلفين في علوم القرآن. صححه ابن حجر في الفتح ٩/٤-٥

(٣) تحدثنا عن بعض المعاني المهمة في هذه الآية في الوقفة الأولى.

(٤) البحر المحيط ١٠/٢١.

ومن بركتها هذه الرحمة التي ينزلها الله على عباده بمغفرة الذنوب لمن أحيها
كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ كَبِيرٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا
مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [الدخان].

وكما قال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

يقول السعدي: «كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوما عمَّتْهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الآخروي»^(٢).

٣) نزل فيها القرآن هداية للناس وبيانًا وفرقانًا:

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ
وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أي: «الصوم المفروض عليكم، هو: شهر رمضان، الشهر العظيم، الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو: القرآن الكريم؛ المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة»^(٣).

٤) ليلة القدر خير من ألف شهر:

قال تعالى: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِّمَها فقد حُرِّمَ الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم»^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ونية (١٩٠١)، ومسلم كتاب الصلاة باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٧٧١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٨٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه كتاب الصيام باب فضل شهر رمضان (١٦٤٤)، قال الألباني: حسن صحيح (١٣٣٣)، =

﴿أما معنى الخيرية: فقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد رضي الله عنه: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال: عملها؛ صيامها وقيامها خير من ألف شهر^(١)، والقول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيه ليلة القدر هو اختيار ابن جرير^(٢). قال ابن كثير: «وهو الصواب لا ما عدها»^(٣).

قال السعدي: «وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندesh له العقول، حيث من الله ﷻ على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمرٍ عمراً طويلاً نيفاً وثمانين سنة»^(٤).

قال الإمام مالك في موطأه من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله ﷺ أرى أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر^(٥).

٥) الملائكة تنزل في هذه الليلة:

قال تعالى: ﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، أي: «يكثُر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له»^(٦).

= وانظر: صحيح الترغيب (٩٨٩ و ٩٩٠).

(١) جامع البيان ٢٤/٥٤٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٤١.

(٢) جامع البيان ٢٤/٤٥٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٤١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٥) موطأ مالك ٢/٤٣٨ باب ما جاء في القدر ح (٧٠٦)، وشعب الإيمان ٨/١٧٩ ح (٣٥١٢).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٤٤.

١) ليلة فُرق فيها من كل أمر حكيم:

قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وهذا المعنى كذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ وذلك إذا قلنا بالوقف عند رأس الآية.

٧) هذه الليلة فيها أذن الله تعالى لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود:

وذلك بعد ضلال وشرك استمر فترة طويلة: قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: «بأمر ربهم»^(١)، فلا يقوم أمر ولا تبدأ دعوة ولا ينفذ أمر إلا بعد إذن الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]. فالملائكة وجبريل لم ينزلوا على نبينا محمد إلا بإذن الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وهذا الأمر واضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴿٣﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾، إشارة إلى ابتداء أمر جديد من الله لإصلاح البشرية، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. إشارة إلى أن هذه الليلة بدأت فيها الرسالة المحمدية.

﴿٦﴾ ولم يقم نبينا محمد ﷺ بالدعوة إلا بعد إذن الله له قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿الرَّكْتُبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿١﴾ [إبراهيم: ١] بل كل الرسل لم يقوموا بالدعوة إلا بعد إذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِعَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

وقد قام نبينا محمد ﷺ بأمر ربه وإذنه حتى أتاه اليقين، ثم أكمل المسيرة لتطبيق ذلك الإذن وتعليم تلك الأوامر صحابة رسول الله ﷺ، ثم من بعدهم إلى أن جاء هذا العصر ونحن نرى أن شريعة الله وتوحيد الله تعالى يسري بين الناس بقوة مصداقاً لحديث النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(١).

◉ نعم. إن تلك الفئة موجودة في كل عصر تطبق إذن الله تعالى فتدعو لأن يكون الدين كله لله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

وهذا الإظهار والسيادة والنصر لا يكون إلا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ عَلَبْتُ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مَّقَاتَةٌ صَابِرَةٌ يُغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

◉ نسأل الله كما أذن لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود، بأن يُتِمَّ هذه النعمة علينا، وأن يمكن لدينه في الأرض، وأن يفتح له قلوب الناس، وأن يستعملنا لذلك ولا يستبدلنا.

٨ هذه الليلة سالمة من كل شر: ﴿مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [سَلَّمَ هِيَ]

قال مجاهد: سلام هي من كل أمر. وفي قوله: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ قال مجاهد: هي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى، وقال ابن زيد: هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر^(٢).

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمامة باب لا تزال طائفة من أمتي.. (١٩٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٤٤.

وكلمة ﴿سَلَّمَ﴾ نكرة، والنكرة للعموم فأخبر الله تعالى عن هذه الليلة بأنها سلام بالنكرة للمبالغة في السلام الذي سيأتي على الناس والخير الذي سيعمهم في دنياهم وأخراهم.

٩) تسلم الملائكة على أهل المساجد:

قال تعالى: ﴿سَلَّمْهُنَّ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾، فعن أبي إسحاق عن الشعبي قال: «تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر»^(١)، وهذا المعنى يستفاد منه.

١٠) غفران ما تقدم من الذنوب:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢)، وهذه جائزة من الله تعالى لمن قام هذه الليلة حق القيام.

المطلب الرابع: تعيين ليلة القدر:

أولاً: ما ورد في تعيين ليلة القدر:

وقد ورد في تعيين هذه الليلة آثار كثيرة: بعضها يعين الليلة السابعة والعشرين من رمضان، وبعضها يعين الليلة الحادية والعشرين، وبعضها يعينها ليلة من الليالي العشر الأخيرة، وبعضها يطلقها في رمضان كله ومنهم من يقول أنها ثابتة لا تنتقل، والبعض يقول بتنقلها^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٤٤، من رواية الشعبي، وذكره البيهقي في فضائل الأوقات ١١٩/١ (١٠٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: الروايات في تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٤٧-٤٥١، وفتح الباري ٣٠٠-٣١٦ فقد جمعا جملة طيبة من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء في المسألة زادت على أربعين قولاً.

و إذا نظرنا في القرآن وسنة النبي ﷺ نجدها على النحو التالي:

● يدلنا القرآن الكريم على وقتها من الشهر: فإن «من فضائل الشهر المبارك:

أن فيه ليلة القدر، والدليل أن الله تعالى قال في القرآن العظيم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ

الْقَدْرِ﴾ [القدر ١] وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة ١٨٥] فإذا

جمعت بين الدليلين صارت النتيجة: أن ليلة القدر في رمضان^(١).

● ثم يحثنا النبي ﷺ على الاهتمام بالعشر الأواخر من الشهر: فعن عائشة رضي الله عنها،

أن رسول الله ﷺ قال: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»^(٢).

● ثم يدفعنا النبي ﷺ إلى العناية بأوتار العشر: فيقول ﷺ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ

فِي الْوَتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»^(٣).

● وحين يخشى على بعض المسلمين الضعف يوصيهم بالعناية بالسبع

البواقي: فيقول ﷺ: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ فَإِنْ ضَعْفَ أَحَدُكُمْ أَوْ

عَجَزَ فَلَا يَغْلِبَنَّ عَلَى السَّبْعِ الْبَوَاقِي»^(٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في

المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ

تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْآخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّبَهَا فَلْيَتَحَرِّبْهَا فِي السَّبْعِ الْآخِرِ»^(٥).

(١) اللقاء الشهري لابن عثيمين ٦١.

(٢) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠٢٠)، ومسلم

كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠١٧)

(٤) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها

(١١٦٥).

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر (٢٠١٥)، ومسلم =

ثم بيّن ﷺ أن أوتار سبعها بالتحري ليلة سبع وعشرين: فقال ﷺ: «من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين. وقال: تحروها ليلة سبع وعشرين»^(١).

وقد كان أبي بن كعب رضي الله عنه يحلف أنها ليلة السابع والعشرين فعنه قال: «والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان - يحلف ما يستثني - والله إني لأعلم أي ليلة القدر، هي: التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين. وأمرتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها»^(٢).

وورد أنها في ليلة إحدى وعشرين: وذلك في رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال: إن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية على سدها حصير - قال - فأخذ الحصير بيده فنحاه في ناحية القبة ثم أطلع رأسه فكلّم الناس فدنوا منه فقال: «إني اعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة ثم اعتكفت العشر الأوسط ثم أُتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر. فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف». فاعتكف الناس معه قال: «وإني أريتها ليلة وتر وأنى أسجد صبيحتها في طين وماء»، فأصبح من ليلة إحدى وعشرين وقد قام إلى الصبح، فمطرت السماء فوكف المسجد^(٣) فأبصرت الطين والماء، فخرج حين فرغ من صلاة الصبح وجبينه وروثة أنفه^(٤) فيهما الطين والماء، وإذا هي ليلة إحدى وعشرين^(٥).

= كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٥).

(١) أخرجه أحمد ٢٧/٢ ح (٤٨٠٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل والإجابة فيه (٧٦٢).

(٣) وكف المسجد: أي قطر سقفه بالماء. انظر: الفتح ٢٠٧/١.

(٤) وروثة أنفه: أي طرف الأنف ويقال لها الأرنبة. انظر: شرح النووي على مسلم ٣/٢٥٧.

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠١٨)، =

﴿ أنها ليلة ثلاث وعشرين: فعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين»، قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه^(١).

﴿ وعلى هذا: قال ابن حجر بعد عرضه لأقوال العلماء في المسألة والروايات والآثار: «وأزجَّحها كلها: أنها في وتر من العشر الأخير وأنها تنتقل، وأرجاها أوتار العشر»^(٢).

﴿ فليلة القدر مخفية وهي تنتقل بين أوتار العشر، ولها علامات تبينها، والواجب على من أراد إدراك ليلة القدر أن يتحراها في العشر الأواخر من رمضان وأن يستعد لها حق الاستعداد من بداية رمضان ويتأكد مع بداية العشر الأواخر، وأشد ما يكون رجاؤها في أوتارها.

﴿ ثانيًا: الحكمة من إخفاء الله عين هذه الليلة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»^(٣).

= ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٧) واللفظ له.

(١) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٨).

(٢) فتح الباري ٤/٣١٣.

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب رفع ليلة القدر لتلاحى الناس (٢٠٢٣).

فقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني: «عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع مَحَال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإن الهمم تتقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر»^(١).

🕌 ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله ﷻ. ثم اعتكف أزواجه من بعده^(٢). وفي رواية عن ابن عمر ؓ: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان^(٣). وقالت عائشة ؓ: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر: أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر^(٤). وفي رواية لمسلم: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره»^(٥).

قال ابن عاشور: «وحكمة إخفاء تعيينها إرادة أن يكرر المسلمون حسناتهم في ليالٍ كثيرة توخياً لمصادفة ليلة القدر كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة»^(٦).

قال ابن حجر: «قال العلماء: الحكمة في إخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد في التماسها، بخلاف ما لو عينت لها ليلة لاقتصر عليها، كما تقدم نحوه في ساعة الجمعة،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٥١/٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر (٢٠٢٦)، ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان (١١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر (٢٠٢٥) ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان (١١٧١).

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤) ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(٦) التحرير والتنوير ٤٦٢/٣٠.

وهذه الحكمة مُطَرِّدَةٌ عند من يقول إنها في جميع من السنة وفي جميع رمضان أو في جميع العشر الأخير أو في أوتاره خاصة، إلا أن الأول ثم الثاني أليق به^(١).

◉ ثالثاً: علامات ليلة القدر:

ورد في الأحاديث السابقة علامات لتلك الليلة وهذه من عاجل بشرى المؤمن في الدنيا، ولكن إذا لم تُرَى تلك العلامات فلا يعنى هذا أن ليلة القدر لم تحصل وإنما قد يراها قوم ولا يراها قوم كما ذكر ذلك ابن حجر^(٢) ومن العلامات:

- ١- قال رسول الله ﷺ: «إن أمانة ليلة القدر أنها صافية بَلَجَةٌ، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة سجية، لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يُرْمَى به فيها حتى تصبح، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ^(٣). وقال أبي ﷺ: «وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها»^(٤).
- ٢- وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سمحة طليقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء»^(٥).
- ٣- قوله ﷺ: «وإني أريتها ليلة وتر وأنى أسجد صبيحتها في طين وماء»^(٦).

(١) فتح الباري ٤/٣١٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه أحمد ٥/٣٢٤ (٢٢٨١٧)، قال ابن كثير في التفسير ٨/٤٤٤: وإسناد هذا الحديث حسن، وفي المتن غرابة، وفي بعض ألفاظه نكارة. وقال شعيب الأرنؤوط: الشطر الأول من الحديث حسن وأما الشطر الثاني فمحتمل للتحسين لشواهده وإسناد هذا الحديث ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/١٧٥ رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه الطيالسي ١/٣٤٩ (٢٦٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/٣٣٤ (٣٦٩٣)، قال الألباني صحيح انظر: صحيح الجامع (٥٤٧٥).

(٦) تقدم تخريجه.

المطلب الخامس: ماذا يستحب في هذه الليلة:

في هذه الليلة العظيمة المشهودة يجب أن نقوم بأمر كثيرة، فعلينا أن نتحرى هذه الليلة من أيام العشر الأواخر من رمضان، وأن نجتهد في جمع هذه الأيام لأننا لا نعلم متى هي؟ والذي سينظرها ويجتهد من بداية العشر إلى نهايتها فحريٌّ به إدراكها.

وأهم الأمور التي تتحرى بها ليلة القدر:

- ١- التوبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها.
- ٢- قيام ليلة القدر إيماناً بالله واحتساباً للأجر من الله: ففي الحديث المتقدم: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).
- ٣- الإكثار من فعل كل الطاعات التي يمكن القيام بها.
- ٤- العفو عن الناس وسلامة الصدر لهم لأن الله تعالى في هذه الليلة عفو كريم: فعن عبد الله بن بريدة، أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني»^(٢).
- ٥- رد الحقوق لأهلها وطلب السماح والعفو منهم.
- ٦- قراءة القرآن والتعاهد على تطبيقه وحفظه حروفاً وحدوداً.
- ٧- أمر خاص بالدعاة وهو «أنه حين نتأمل في واقع الناس اليوم نرى خيراً كثيراً وحرصاً أكيداً من معظم الناس على إحياء هذه الليلة الشريفة والظفر ببركتها، لكن هذا الحرص سيزداد كثيراً حين ينبري العلماء الربانيون والدعاة المخلصون فيكونوا قدوة حسنة للناس في قيامها والاجتهاد في

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ٦/١٧١ ح (٢٥٤٢٣). قال: شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال

إحيائها بالعبادات، كما يزداد حسناً حينما يتم التخلص من بعض جوانب القصور، والتي تحول دون استثمار أمثل لهذا الموسم المبارك وتلك المنح العظيمة من المحسن الجواد ﷺ^(١).

﴿ فلنجعل من العشر الأواخر عموماً، ومن ليلة القدر خصوصاً نقطة انطلاق في هذه الأمور لأن الإنسان إذا تعود فعلها في العشر الأواخر مراتٍ عديدة تحرياً لليلة القدر فستصبح عنده سجيةً وستغرس في نفسه طوال العام ليأتي العام القابل في نفس الوقت ليجدد العهد مع الله تعالى لمواصلة المسير لصالح نفسه ومجتمعه، والأمة جميعاً والبشرية جمعاء.﴾

فالإسلام ليس شكليات ظاهرية. ولذا قال رسول الله ﷺ في القيام في هذه الليلة أن يكون «إيماناً واحتساباً».. وذلك ليكون هذا القيام استجاباً للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة «إيماناً»، وليكون تجرداً لله وخلوصاً «واحتساباً».. ومن ثم تنبض في القلب حقيقة معينة بهذا القيام. ترتبط بذلك المعنى الذي نزل به القرآن.

فلذلك كانت هذه الليلة ليلة التغيير كما قدرها الله تعالى، تغييراً للنفوس وتجديد للإيمان وللحياة وللوقائع بأسره، فأثرها ليس في يومها فقط ولكن كل يوم، بل كل عام، بل إلى قيام الساعة، فهي ليلة مباركة.

وقول الله تعالى: ﴿سَلِّمُوا هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾ مِمَّا يَعْلَمُنَا اللهُ بِهِ أَنَّ النَّصْرَ وَالتَّمَكِينَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَعْدَ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ، والعباد إذا أتقنوا العبادة إلى وقت الفجر وباتوا قائمين لله ويعملون ويجاهدون أنفسهم على الصلاة والقيام وعبادة الله تعالى وصلّوا الفجر في جماعة، سيطلع عليهم الفجر وسيأتيهم السلام والخير.



(١) هكذا كان النبي ﷺ في رمضان ١٣٩.

تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ١ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ ٢ ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ ٣ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ ٤ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ٥ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ٧ ﴿جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَزَاءٌ عَدَنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ٨ ﴿

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

لها عدة أسماء:

- ١- «لم يكن الذين كفروا»: وردت هذه التسمية فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب رضي الله عنه: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسماني لك؟ قال: «نعم». «فبكي»^(١).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة لم يكن (٤٩٥٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار رضي الله تعالى عنهم (٧٩٩).

- ٢- «لم يكن»: وسميت هذه التسمية في معظم كتب التفسير^(١) وكتب السنة^(٢).
- ٣- «سورة القيمة»: في بعض المصاحف وكذلك في بعض التفاسير^(٣).
- ٤- «سورة البينة»: في بعض المصاحف والتفاسير^(٤).
- ٥- «سورة أهل الكتاب»: ذكره السيوطي عن مصحف أبي^(٥).
- ٦- وسميت سورة «البرية»^(٦).
- ٧- وسميت «سورة الانفكاك»^(٧).

فهذه سبعة أسماء كل منها يركز على كلمة لها معنى في السورة، والله تعالى أعلم.

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

قال القرطبي: إنها مدنية، ونسب ذلك إلى الجمهور وابن عباس^(٨).

وقد استدل ابن كثير على أنها مدنية بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال:

(١) جامع البيان ٢٤/٥٥١، تيسير الكريم الرحمن ٩٣١، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٥٤، المحرر الوجيز ١٥/٥٢٦، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٤٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهَ﴾، المستدرک ٩/١٨٧، ومستخرج أبي عوانة ٨/٢٣٤.

(٣) الحجة في القراءات السبع ١/٣٧٤، الإتيقان ١/١٥٥.

(٤) ابن أبي حاتم ١٢/٤٣٧، والبغوي ٨/٤٩٣.

(٥) الإتيقان ١/١٥٥، وانظر: نظم الدرر ٩/٤٩٠.

(٦) إملاء ما من به الرحمن ٢/٢٩١، التبيان في إعراب القرآن ٢/٢٩١، الإتيقان ١/١٥٥.

(٧) الناسخ والمنسوخ لابن سلام ١/٢٧، الإتيقان ١/١٥٥.

(٨) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٣٨. واختلف في أنها مكية أو مدنية. قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو

قول جمهور المفسرين وهذا عكس ما قاله القرطبي، المحرر الوجيز ١٥/٥٢٦.

وسماني لك؟ قال: «نعم» فبكى^(١)، قال السيوطي: «وقد جزم ابن كثير بأنها مدنية واستدل به»^{(٢)(٣)}.

قال القرطبي: «وفيه من الفقه: قراءة العالم على المتعلم لأنه إنما قرأ النبي ﷺ على أبي ليلى الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة»^(٤).

أما عدد آياتها (٨) آيات، وكلماتها: (٧٤) كلمة، وحروفها: (٣٩٩) حرفاً^(٥).

مناسبتها لما قبلها:

تضمنت «سورة القدر» تنويها بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم، فنالت بشرف نزوله فيها هذا القدر العظيم الذي ارتفعت به على الليالي جميعاً.. والتنويه بليلة القدر - يتضمن - تنويها بالقرآن الكريم، وأن الاتصال به يكسب الشرف ويعلى القدر للأزمان والأمكنة والأشخاص.

﴿ وسورة «البينة» تحدثت عن هذا القرآن، وعن رسول الله الحامل لهذا القرآن، وموقف الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، من القرآن، والرسول الداعي إلى الله بالقرآن.. ومن هنا كان الجمع بين السورتين قائماً على هذا الترابط القوي، الذي يجعل منهما وحدة واحدة»^(٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الإتيان ١ / ٤٥ في تحرير السور المختلف فيها.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٥٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٣٩.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣ / ٨٢.

(٦) المصدر السابق، بتصرف.

ثالثاً: موضوعها:

تضمنت السورة:

- ١- توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ.
- ٢- التعجب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها.
- ٣- تكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها.
- ٤- وعيدهم بعذاب الآخرة، وكذلك التسجيل عليهم بأنهم شر البرية.
- ٥- الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم بالنعيم الأبدي، ورضى الله عنهم، وإعطائه إياهم ما يرضيهم^(١).

ولذا فإن السورة تعرض أربع قواعد كما يلي:

القاعدة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لهداية الذين كفروا - من أهل الكتاب والمشركين - عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عن كفرهم بغير هذه البعثة.

القاعدة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة.

القاعدة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وشعائره سهلة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها، وطبيعته سهلة ميسرة.

القاعدة الرابعة: أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية. ومن ثمَّ يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافاً بيّناً.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٦٨.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ تاركين كفرهم حتى تأتيهم العلامة التي وُعدوا بها في الكتب السابقة، وهي ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: محمد ﷺ، ﴿يَتْلُوا﴾ قرآنًا في صحف مطهرة، وفي تلك الصحف ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة، تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم. ثم بين تعالى أنه ما اختلف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى في كون محمد ﷺ رسولا حقًا؛ لما يجدونه من نعته في كتابهم، إلا من بعد ما تبينوا أنه النبي الذي وُعدوا به في التوراة والإنجيل، فكانوا مجتمعين على صحة نبوته، فلما بُعث جحدوها وتفرقوا.

﴿وَمَا أَمْرًا﴾ في سائر الشرائع ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وحده قاصدين بعبادتهم وجهه، ﴿حُفَّاءَ﴾ مائلين عن الشرك إلى الإيمان، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾ أي: الاستقامة، وهو الإسلام.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عقابهم ﴿نَارِجَهَتُمْ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: أشد الخليقة شرا. و﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة واستقرار في منتهى الحسن، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ قصورها ﴿الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فقبل أعمالهم الصالحة، ﴿وَرَضُوا عَنْهَا﴾ بما أعد لهم من أنواع الكرامات، ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ حَسِنَ رَبُّهُ﴾ أي: خاف الله واجتنب معاصيه^(١).



(١) انظر: التفسير الميسر ص ٥٩٨ - ٥٩٩.

المبحث الثاني

وقفات مع السورة

المطلب الأول: إصرار الكفار مع احتياجهم إلى رسالة جديدة:

قال تعالى: ﴿لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾.

أي: «لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين من عبدة الأوثان والنيران»^(١).

﴿مُنْفَكِينَ﴾ «أي: منفصلين متفرقين»^(٢) «عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه، أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة والبرهان الساطع»^(٣).

فقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى تجديد الدين؛ إذ كان الفساد قد عمّ أرجاءها كلها، بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها عموماً، سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي غيرها على حدٍ سواء.

وهذا المعنى قرره الحبيب المصطفى ﷺ في قوله: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا.. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٥٦/٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥٢٧/١٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم^(١) عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب..^(٢).

«ثم إن كلمة ﴿حَتَّى﴾ لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ﷺ، وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول ﷺ»^(٣).

وهذه «الآيات وردت مورد إقامة الحجة؛ على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، وعلى المشركين بأنهم متصلون من الحق متعللون للإصرار على الكفر عناداً، كأنه قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة!! وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجب أو الشكاية من صلف المخبر عنه، وهو استعمال عزيز بديع»^(٤).

وحاصل المعنى: أنكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة، أي العلامة التي وعدنا بها.

وقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا مثل ذلك: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِيْمَانًا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا يُقْرَبَانِ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقال عنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

(١) المقت: أشد البغض.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٦٩.

(٤) المصدر السابق ٣٠/٤٧١.

وعن النصارى بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَلِذَلِكَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَدْعُكُم مِّن دُونِي إِلَى سُبُلِ اللَّهِ مُطِيعِينَ لَمَّا دَعَا إِلَى سُبُلِ اللَّهِ وَمَا يَدْعُ إِلَى تَالُوتَ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مَاءٌ فَمَا فَسَدَ وَإِنْ ظَلَمَكُمْ فَتَمَسَكَ يَدَايَ فَحَرِّضُوا عَلَى أَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَأَن يُكْفَرُوا بِهِمْ فَقَالَ حَسْبِيَ اللَّهُ مَا أَفْرَدْتُمْ إِيَّاهُ فَنَزَلَتْ آيَاتُ الْكِتَابِ فَلَوِ اتَّخَذَ النَّاسُ حِسَابًا مِّمَّا كَفَرُوا لَوُجِدُوا فِي آخِرَةِ حَسَدًا مُّؤْتَسِلًا إِذْ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْبَةِ وَإِن تُرْجُوا فَتَكْفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَذَلِكَ حَسَابُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وحكى ذلك عن المشركين بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا لَأَخَذْنَا بِحُكْمِهِمْ لَئِن لَّمْ يَنزِلْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا لَأَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ لَئِن لَّمْ يَنزِلْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا لَأَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ لَئِن لَّمْ يَنزِلْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا لَأَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [القصص: ٤٨]، وقولهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمَ بِلِأْفْرَتِهِ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. «ولم يخالف أهل الكتابين في أنهم أخذ عليهم العهد بانتظار نبي ينصر الدين الحق وجعلت علاماته دلائل تظهر من دعوته»^(١).

«وكلمة ﴿الْبَيِّنَةُ﴾. تعبر عن المعنى الوارد في كلامهم، ولذلك نرى مادتها متكررة في آيات كثيرة من القرآن في هذا الغرض كما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا لَأَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ لَئِن لَّمْ يَنزِلْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا لَأَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ لَئِن لَّمْ يَنزِلْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا لَأَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [طه] وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ وقال عن القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]^(٢).

«و ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ بيانية، بيان للذين كفروا، وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين هنا مع أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب؛ لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام، فهم الذين بثوا بين المشركين شبهة انطباق البينة الموصوفة بينهم، فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد عليه السلام بما هو أتقن من ترهات

(١) المصدر السابق ٣٠ / ٤٧٣.

(٢) المصدر السابق ٣٠ / ٤٧٤.

المشركين - إذ كان المشركون أميين لا يعلمون شيئاً من أحوال الرسل والشرائع - فلما صدمتهم الدعوة المحمدية فرعوا إلى اليهود ليتلقوا منهم ما يردون به تلك الدعوة، وخاصة بعدما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة»^(١).

المطلب الثاني: صفات البينة:

قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

فسر الله تعالى البينة بقوله:

- ١- ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: «أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق.
 - ٢- ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وأنزل على الرسول زيادة في البينة كتاباً يتلوه؛ ليعلم الناس، ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.
 - ٣- صفة هذا الكتاب أنه ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسخها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام»^(٢).
- وما كان المشركون وأهل الكتاب ليتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه البيئة المتمثلة في رسالة الإسلام، وعلى يد رسولٍ يكون أمره بيناً واضحاً، وحجته فارقةً فاصلةً.
- «الظاهر أن الرسول الموعود به في كتبهم يوصف بأنه يتلو صحفاً مطهرة، والتلاوة: إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه، سواء كان كلاماً مكتوباً، أو محفوظاً عن ظهر قلب. ففعل ﴿يَتْلُو﴾ مؤذنٌ بأنه يقرأ عليهم كلاماً لا تبدل ألفاظه، وهو الوحي المنزل عليه ﷺ».

(١) المصدر السابق ٣٠ / ٤٧٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١ بتصرف.

والصحف: الكتب^(١)، وهي جمع صحيفة، وهي الورقة أو اللوح أو ما أشبه ذلك مما يكتب به^(٢).

«والوحي المنزل على الرسول سُمِّي كتابًا في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِيهِمُ آتَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [العنكبوت] وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابِ الْمُبْطُلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت].

ووصفت الصحف بـ ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾؛ وهو وصف مشتق من الطهارة، أي كون معانيه لا لبس فيها ولا تشتمل على ما فيه تضليل. وهذا تعريض ببعض ما في أيدي أهل الكتاب من التحريف والأوهام^(٣).

٤ - ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ «ثم زاد البينة أكثر بأن وصف ما في الصحف التي أنزلت على الرسول ﷺ بأنها أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحيثئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]»^(٤).

«والقيمة: المستقيمة أي شديدة القيام الذي هو هنا الكمال والصواب، وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، لاستعداده للعمل النافع، وضده العوج قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَوْ يَجْعَلْ لَهُ عُجُوًّا﴾ [الكهف] أي: لم يجعل فيه نقص الباطل والخطأ»^(٥).

(١) معالم التنزيل ٨/ ٤٩٣.

(٢) تفسير جزء النبا للعثيمين ٢٧٧.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٧٦ بتصرف.

(٤) تفسير الكريم الرحمن ٩٣٢ بتصرف.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٧٧.

والكتاب يطلق على الموضوع - كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة - وهذه الصحف المطهرة وهي هذا القرآن ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي موضوعات وحقائق قيمة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وبلا شك فكل ما تضمنه القرآن فهو حقائق يقينية.

﴿ فالقرآن أنزله الله هادياً وطريقاً ولم ينزله ألغازاً^(١) وترانيم^(٢)، ولذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين!! وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ. فإن الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره وهذا مما يجب القطع به»^(٣).

المطلب الثالث: تفرق أهل الكتاب مع وجود البينة عندهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾

ثم بين الله تعالى سنة الذين كفروا «أنه لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق. ولكنهم لرداءتهم ونذاتهم، لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمى»^(٤).

(١) الألغاز: ألغاز الكلام أي عمي مراده وأضمره على خلاف ما أظهره. انظر: اللسان ٥/ ٤٠٥، والقاموس المحيط ص ٦٧٤.

(٢) الترانيم: من الترنم وهو التطريب والتغني وتحسين الصوت. انظر: اللسان ١٢/ ٢٥٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ٣٩٠ مختصراً.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ بتصرف.

فبيّن الله تعالى أن أهل الكتاب لم يفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد؛ إنما تفرقوا واختلفوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْعَلُّ﴾ [آل عمران: ١٩]، و﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾، وتلك البيّنة من دينهم على أيدي رسلهم، ثم ما جاء به محمد ﷺ.

والمراد بالتفرق: «تفرق أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيّنات تفرقوا واختلفوا في الذي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ كِتَابِهِمْ، واختلفوا اختلافاً كثيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة في الجنة، واثنان وسبعون في النار»^(١)»^(٢).

قال ابن جرير: «وما تفرّق اليهود والنصارى في أمر محمد ﷺ، فكذبوا به، إلا من بعد ما جاءتهم البيّنة، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء اليهود والنصارى البيّنة، يعني: أن بيان أمر محمد أنه رسول بإرسال الله إياه إلى خلقه، يقول: فلما بعثه الله تفرّقوا فيه، فكذب به بعضهم، وآمن بعضهم، وقد كانوا قبل أن يُبعث غير مفرقين فيه أنه نبي»^(٣).

«تفرق بني إسرائيل بين مكذب لعيسى ﷺ ومؤمن به، وما آمن به إلا نفر قليل من يهود، وجعل التفرق كناية عن إنكار البيّنة لأن تفرقهم كان اختلافاً في تصديق بيّنة

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩٢)، وأبو داود كتاب السنة باب شرح السنة (٤٥٩٦)، والترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١)، وابن أبي عاصم في كتاب السنة (٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٢/٣٦٤. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، وقد ورد هذا الحديث عن أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبدالله ﷺ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣/٣٤٥: «الحديث الصحيح المشهور» وانظر: تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي ١/٤٤٧-٤٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٥٧.

(٣) جامع البيان ٢٤/٥٤٠.

عيسى ﷺ كقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة] (١).

«ويجوز أن يكون المراد بهذه البينة الثانية - التي تفرقوا عليها - هي مجيء عيسى ﷺ فإن الله أرسله كما وعدهم أنبياءهم أمثال إلياس واليسع وأشعيا عليهم الصلاة والسلام» (٢).

ولا شك أن ذلك كله واقع فهم لو لم يتفرقوا فيما جاءهم به أنبيائهم موسى وعيسى وغيرهم ﷺ لم يتفرقوا بعد فيما جاءهم به محمد ﷺ؛ فإن الإيمان بالأنبياء يستلزم ذلك، وترك الإيمان ببعضهم أو ببعض ما جاءوا به يستلزم التفرق أيضًا كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]. وعابهم على ذلك فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

المطلب الرابع: من صفة البينة جمعها أصول الشرائع:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾. فبين الله تعالى أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد، ودين واحد فما أمروا في سائر الشرائع إلا:

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٧٨.

(٢) المصدر السابق ٣٠/٤٧٨.

١- ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾: والعبودية هي: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»^(١).

«واللام في ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ بمعنى: أن، كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي أن يبين»^(٢)، «العرب تجعل اللام في موضع أن في الأمر كثيراً»^(٣) وعلى هذا فاللام هنا تفيد الأمر.

«والجملة حالية، أي: والحال أنهم ما كلفوا في كتابهم بما كلفوا به لشيء من الأشياء إلا لأجل عبادة الله تعالى»^(٤)، ولذلك جاء بصيغة المضارع تنبيهاً على أن حالتهم يجب أن تكون في عبادة مستمرة من غير توقف، وفي كل شؤونهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام].

وعلى هذا فالعبادة داخلية في كل أعمال الإنسان الظاهرة والباطنة فأركان الإسلام تمثل العبادة الظاهرة، وأركان الإيمان تمثل العبادة الباطنة، والذي يجمع بينهما وبين شعب الإيمان يصل إلى درجة الإحسان التي هي: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٥) فالتوكل والخوف والذل والرجاء وغيرها من العبادات القلبية داخلية في الإحسان الذي لا يتم إلا إذا تمَّ الإسلام والإيمان.

والعبودية هي التي يطلق عليها العلماء: توحيد الألوهية فهي مستلزمة لتوحيد الربوبية.

(١) العبودية ص ٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٤٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/٢٨٢.

(٤) روح المعاني ٣٠/٢٦١.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠). ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩ و ١٠).

«والعبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبدٌ وهو ربُّ، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب البتة، ثم أمرك بالعبادة. وجبت لمحض العبودية.

وفيهما أيضًا إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب؛ فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب.

ولا بد في كون الفعل عبادة من شيئين: غاية التعظيم، وأن يكون مأثورًا به»^(١).

٢- ﴿مُحْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: «قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه»^(٢).

قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى..»^(٣).

فلا شك أن أثر الإخلاص عظيم، وخطر الرياء جسيم في حياة العابدين والناس أجمعين، قال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئًا أشد علي من نيتي»^(٤)، ذلك أن آفات الإخلاص كثيرة والشهوات والمطامع لا تنقطع، فكم ممن خرج إلى ربه مخلصًا ولكن تحولت النية وتقلبت به الأهواء.

٣- ﴿حُنَفَاءَ﴾: أي: «معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد»^(٥)، «والحنيف في كلام العرب: المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/٤٤-٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء وحي النبي ﷺ (١).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم ٦٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

الإسلام، وعن مجاهد: متبعين»^(١) «وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم»^(٢).

وقيل: «الحنف هو إقبال القدم وميلها إلى أختها، فالحنف الميل عن الشيء بالإقبال على آخر. فالدين الحنيف هو: الإقبال على الله وحده، والإعراض عما سواه. وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة: لا إله إلا الله»^(٣).

٤- ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة بكل ما تشمله من أركان وواجبات، وإقامتها: أداؤها في وقتها، في جماعة المسجد، والسعي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع.

«إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها»^(٤).

وللصلاة قيمتها وقدرها في الإسلام:

● فالصلاة هي أحد أركان الإسلام العملية. قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»^(٥).

● وهي من السمات التي تتسم بها هذه الأمة من حيث الاهتمام، وقد جعلها الشارع مدار قبول باقي الأعمال الأخرى، وهي كما قال رسول الله ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح

(١) در التعارض بين العقل والنقل ٤/ ٢٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤٤٨.

(٣) مجموع الفتاوى ٩/ ٣١٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٣٣٨.

(٥) أخرجه البخاري كتب الإيمان باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»^(٨). ومسلم كتاب

الإيمان باب أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦).

وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»^(١).

ومن أهميتها أمر الله بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصحة والمرض، وفي كل حال؛ قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ [البقرة].

وعلى هذا فالصلاة أعظم سبب في تقويم حياة الناس وسلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف كما قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طِبَاتِ الصَّلَاةِ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت ٤٥].

وبالصلاة يمحو الله الخطايا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء». قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»^(٢).

والصلاة دليل على صدق الإيمان. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون].

وفي الصلاة إعانة على مقاومة الجزع والهلع عند مس الضر، والمنع عند الخير، والتغلب على جوانب الضعف الإنساني. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ «كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه» (٨٦٤)، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة (١٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة تمحا به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٧).

خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ [المعارج].

● وترك الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله، قال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْلَا لَنَا مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر]، وقال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»^(١).

● والصلاة من العبادات المشتركة بين كل الشرائع فقد قال عن إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال عن عيسى ﷺ: ﴿رَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٦﴾﴾ [مريم] وقال عن إسماعيل ﷺ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم] وقال عن زكريا ﷺ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران].

٥- ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾:

«وهي لغة: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزاد.

وشرعًا: التبعد لله تعالى بإخراج جزء واجب شرعًا في مال معين لطائفة أوجهة مخصوصة»^(٢).

«فسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتركية النفس وتنميتها بالخيرات»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح.

وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١١٣)، وصحيح سنن ابن ماجه (١٠٧٩).

(٢) الشرح الممتع ٦/١٢-١٣.

(٣) فقه السنة ١/٤٥٩.

«وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين»^(١).

وكذلك لأن في الصلاة القيام بحق الله تعالى، وفي الزكاة قيام بحق المخلوقين، وكثيراً ما يربط الله بين هذين الواجبين في القرآن.

ومعنى إيتاء الزكاة: أداء حق المال طاعة لله وتقرباً، عن رضى نفس ورغبة؛ فالزكاة عبادة مالية. وهذه مما تميز به الإسلام، فإنه يحقق أهدافاً شتى بالفريضة الواحدة، فالزكاة تعني اسمها ومدلولها؛ فهي: طهارة ونماء، وهي زكاة للضمير؛ بكونها عبادة لله، وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الفقراء، ولأنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة، كما يرجو منها نماء المال في الحياة الدنيا بالبركة، ويتحقق ذلك بالنظام الاقتصادي المبارك، ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم؛ إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم؛ إذ قررها لهم في أموال الأغنياء، ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي من الأغنياء، مع أن الأغنياء في الإسلام لا يكسبون إلا من حلال، ولا يجورون على حق أحدٍ وهم يجمعون نصيبهم من المال.

﴿ثم وصف الله تعالى هذه الأوامر وهذه الأصول بأنها: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾﴾: أي التوحيد والإخلاص في الدين، مع القيام - حق القيام - بحق الله، وحق خلقه؛ ابتداء من النفس وشمولاً لجميع الخلق، قياماً بالعدل والإحسان، مع تعلق القلب بالله، وإخلاص العمل له في كل ذلك.

﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: «الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم»^(٢) أعاذنا الله منها.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢.

(٢) المصدر السابق ٩٣٢.

المطلب الخامس: جزاء أهل الإيمان وجزاء أهل الكفر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٩﴾ جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَزَاءً عَدَنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَبْنِي رَبُّهُ ﴿٨﴾﴾.

إن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب]؛ وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الخاتمة كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد كانت الرسل تتوالى، كلما فسد أهل الأرض ردهم الله بالرسول والأنبياء إلى الصلاح، وكان الله يعطيهم الفرصة بعد الفرصة، والمهلة بعد المهلة، كلما انحرفوا عن الطريق، ولما شاء الله أن يختم الرسالات بهذه الرسالة الجامعة الشاملة الكاملة، تحددت الفرصة الأخيرة، فإما إيمان فنجاة، وإما كفر فهلاك. ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده بإذن الله.

أولاً: جزاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾.

«يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفره أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسله: أنهم يوم القيامة: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ أي: شر الخليقة التي برأها الله وذراها»^(١).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٥٧.

وهذا حكم قاطع لا جدال فيه ولا مراء؛ مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، فهذه الرسالة الخاتمة، وبهذا الرسول الخاتم، فلا نستريب في الحكم لأي مظهر مقطوع الاتصال بمنهج الإسلام الثابت القويم بأنه غير صالح.

﴿ثانياً: جزاء المؤمنين بالنبي ﷺ وبما جاء به:﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

وهذا أيضاً حكمٌ قاطعٌ لا جدال فيه ولا مراء، وشرطه الإيمان، وهو واضح لا غموض فيه ولا احتيال، لا مجرد مَوْلِدٍ في أرض تدَّعي الإسلام، أو في بيت يقول: إنه من المسلمين! ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان! وليس هو الكلام المُدَّعى الذي لا يتعدى الشفاء! بل هو الإيمان الذي تظهر آثاره في واقع الحياة: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. والصالحات هي: كل ما أمر الله بفعله؛ من عبادةٍ وخلقٍ وعَمَلٍ وتعاملٍ، فهي إقامة شريعة الله، والحكم بين الناس بما شرع الله، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما قاموا به من مرضيه، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات^(١) في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]. إن هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم.

وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم؛ الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم. الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة

والفرح الخالص العميق، إنه تعبير يلقي ظلالة بذاته.. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه المعاني!.

«قيل: ذلك الرضا في الدنيا؛ ورضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قَسَمَ لهم من جميع الأرزاق والأقدار.

قال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله: رضاهم بما يرد من أحكامه. ورضاه عنهم: أن يوفقهم للرضا عنه.

وقال أبو بكر بن طاهر: الرضا عن الله خروج الكراهية عن القلب حتى لا يكون إلا فرح وسرور. وقال السري: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه الرضا عنك؟.

وقيل: ذلك الرضا في الآخرة؛ فرضاهم عنه: رضاهم بما منّ به عليهم من النعم. ورضاهم عنه هو: ما روي أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: «يا أهل الجنة. يقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى!! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب!! وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»^(١)»^(٢).

والآية عامة فتشمل كل الرضا، العاجل في الدنيا، والآجل في الآخرة.

الوقفة السادسة: سبب حصول الخير للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَنِيَ رَبَّهُ﴾ «يعني: أن السبب الذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله، فإنهم لما خشوا الله توقعوا غضبه إذا لم يصغوا إلى ما يقول لهم، فأقبلوا على النظر في دلائل صدق الرسول فاهتدوا وآمنوا.

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها

باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٢) المحرر الوجيز ١٥ / ٥٣١-٥٣٢ بتصرف يسير.

وأما الذين آثروا حظوظ الدنيا فأعرضوا عن دعوة رسول من عند الله ولم يتوقعوا غضب مرسله فبقوا في ضلالهم»^(١). «ذَلِكَ» الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته»^(٢).

وهذا تأكيد آخر على أثر صلة القلب بالله، ونوع هذه الصلة، والشعور بخشيته؛ التي تدفع للصالح، وتنهي عن الانحراف بكل صورته، وهو شعورٌ يزيد الحواجز، ويرفع الأستار، ويوقف القلب أمام الواحد القهار، فيخلص الصادقُ العبادة، ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صورته، فالذي يخشى ربه حقًا: لا يملك أن يخطر في قلبه قصدًا لغيره من خلقه، ويعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه؛ فهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك. فإمّا عمل خالص له، وإلا لم يقبله.

«وخص الله بالذكر أهل الخشية لأنها: رأس كل بركة، الناهية عن المعاصي، الأمرة بالمعروف»^(٣).

«والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] خوفًا مقرونًا بمعرفة.

وقال النبي ﷺ: «إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»^(٤)، فالخشية للعلماء العارفين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم»^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٤٨٦/٣٠-٤٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢.

(٣) المحرر الوجيز ٥٣٢/١٥.

(٤) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه (١٤٠١).

(٥) أعمال القلوب للمنجد ص ٣٧ باختصار.

إن الخشية الحقة والخوف المحمود هما: الحامل على العمل، الذي لا يزال يدفع بصاحبه إلى الطاعة، وينفره عن المعصية.

الخشية الحقة هي التي تربي القلب حتى لا يفرق بين معصية وأخرى، فلا ينظر إلى صغر المعصية، ولكن ينظر إلى عظمة من عصي.

وقد حصر الله المنتفعين بالذكرى فقال تعالى: ﴿طه﴾ مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٦٠﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٦١﴾ [طه]. وقال سبحانه: ﴿سَيَذَكِّرُنَا لِمَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

﴿ أهل الخشية هم السعداء في الدنيا، الفائزون في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ يَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْقَائِمُونَ﴾ [النور]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾ جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿٨﴾، وقال: ﴿وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ﴿٣٥﴾ [ق].

﴿ واليوم عاثت الدنيا بأهلها فأضحى المخلوق يخشى المخلوق دون الخالق!!
يرجو المربوب دون الرب سبحانه!! فعجباً لمن يخشى الناس، ويخاف الناس،
ويهاب عيون الناس، وألسنة الناس، وعقاب الناس!! فأعماله للخلق، وسؤاله للخلق،
يُعطي ليرضي فلاناً، ويمنع ليحظى بقرب فلانٍ. يحب للدنيا، ويبغض للدنيا!! خاب
وخسر، ما قام في قلبه الوجل من ربه، ولا عرف الله حق المعرفة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يُشْرَكُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [الزمر].

﴿ اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، اللهم إنا نسألك من خشيتك ما
تحول به بيننا وبين معصيتك.

تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: نزولها ومناسبتها:

السورة مدنية كما في رواية عن ابن عباس، وقيل إنها مكية^(١).

قال السيوطي في الإتقان: «ويستدل لكونها مدنية بما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية. قلت: يا رسول الله، إني لراء عملي؟ قال: «نعم». قلت: تلك الكبار الكبار؟! قال: «نعم». قلت: الصغار الصغار؟! قال: «نعم». قلت: واثكل أُمي. قال: «أبشر يا أبا سعيد؛ فإن الحسنه بعشر أمثالها - يعني إلى سبعمائة ضعف - ويضاعف الله لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/١٥٣، والدر المنثور ١٥/٥٧٩، ورجح أنها مدنية الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨/٤٥٩، وابن سلام في الناسخ والمنسوخ ١/٢٩، وابن حزم في الناسخ والمنسوخ ١/٦٦ وعليه جمهور المفسرين.

يغفر الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله». قلت: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة»^(١) وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة، ولم يبلغ إلا بعد أخذ^(٢).

و عدد آياتها (٨) آيات، وكلماتها: (٣٥) كلمة، وحروفها: (١٢٩) حرفاً^(٣).

مناسبتها لما قبلها:

«ختمت سورة «البينة» قبل هذه السورة بما يلقي الكافرون؛ من عذاب خالدين في النار، وبما يلقي المؤمنون؛ من نعيم خالدين فيه خلوداً مؤبداً في الجنة..

وجاءت سورة الزلزلة محدثة بهذا اليوم الذي يجزئ فيه كل من الكافرين والمؤمنين هذا الجزاء الذي يستحقه كل فريق منهم، فكان عرض هذا اليوم مناسباً^(٤).

ثانياً: موضوعها:

هذه السورة هزة عنيفة للقلوب الغافلة، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها؛ تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرحٍ شامخٍ، وينهار كل جبلٍ راسخٍ، ويحصل من الأمور الغريبة ما يندهش له الإنسان، كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقاءها ما في بطنها من كنوزٍ ثمينةٍ من ذهبٍ وفضةٍ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو إلى النار، ومحاسبة الله لهم على كل صغيرة وكبيرة^(٥).

(١) ذكره ابن كثير في التفسير ٨/٤٦٣-٤٦٤، والسيوطي في الدر المنثور ١٥/٥٨٧، ولآخره شاهد في

الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١/٣٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٣.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٣ بتصرف.

(٥) انظر: إيجاز البيان في سور القرآن ٣٠٨ باختصار.

ثالثاً: فضلها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقرئني يا رسول الله. قال له: «اقرأ ثلاثاً من ذات آلر». فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي، وغلظ لساني. قال: «فاقرأ من ذات حم»، فقال مثل مقالته الأولى. فقال: «اقرأ ثلاثاً من المسبحات»، فقال مثل مقالته. فقال الرجل: ولكن أقرئني -يا رسول الله- سورة جامعة. فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلح الرويجل! أفلح الرويجل!»^(١).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يخبر الله تعالى عن مشهد من مشاهد يوم القيامة فيقول تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أي: إذا رُجَّتِ ﴿الْأَرْضُ﴾ رجاً شديداً، ﴿وَأُخْرِجَتِ﴾ ما في بطنها من موتى وكنوز، وتساءل الإنسان فزعاً: ما الذي حدث لها؟

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة تخبر الأرض بما عمل عليها من خيرٍ أو شرٍ، وبأن الله صلى الله عليه وسلم أمرها بأن تخبر بما عمل عليها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ﴾ أي: يرجع الناس عن موقف الحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: أصنافاً متفرقين؛ ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويجازيهم عليها.

﴿فَنَنْعَمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا﴾ أي: وزن نملة صغيرة خيراً، يرثوا به في الآخرة، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ وزن نملة صغيرة شراً، يرعابه في الآخرة^(٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٦٩/٢ (٦٥٧٥)، وأبو داود في سننه أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيبه باب تحزيب القرآن (١٣٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٩٦/٢ (٢٥١٢)، والحاكم في المستدرک ١٩١/٩ (٣٩٢٣)، وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) انظر: التفسير الميسر (٥٩٩).

المبحث الثاني

وقفات مع السورة حول مشهد وأحوال يوم القيامة

المطلب الأول: زلزال يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج].

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً، وتزلزل زلزالا، وتنفض ما في جوفها نفصاً، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال، التي حملتها طويلاً!!، إنه مشهد يهز المستمعين لهذه السورة هزاً؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون، والأرض من تحتهم تهتز وتمور! مشهد يخلع القلوب من كل ما تشبث به من هذه الأرض، وتحسبه ثابتاً باقياً.

إن الإنسان قد يكون ممن شهد الزلازل والبراكين من قبل أو سمع بها، وكان يصاب منها بالهلع والذعر، ويحسّ الهلاك والدمار، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شيئاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا إلا الاسم فقط، فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به، أمر لا يعرف له سراً، ولا يذكر له نظيراً، أمر هائل يقع للمرة الأولى!

﴿إِنَّ زَلْزَلَتِ الدُّنْيَا بِزَلْزَالِ الْآخِرَةِ. وَلَكِنَّ شَتَانَ بَيْنَ زَلْزَالِ الدُّنْيَا وَزَلْزَالِ الْآخِرَةِ:﴾

زلزال الدنيا: أرض ترتجف، ومبان تسقط، يموت من يموت، ويحيا من بقي له

من عمره بقية.

أما زلزال الآخرة: ففيه تذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، ويكون الناس كالسكارى، من هول الموقف ومن الذعر.

زلزال الدنيا: يذهل الناس فيه من شدة الفاجعة في قطعة محدودة ثم ينتهي الأمر.

أما زلزال الآخرة: فالأرض كلها تبدل، والسموات، والجبال الشامخة تنسف نسفاً، والبحار تفجر، وتنشق السماء وتكشط، وتكون تغيرات عجيبة: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾ [طه: ١٠٥].

لقد سمعنا في زلزال الدنيا -اليسير- عمّن ذهل من هول الفاجعة عن زوجه وأولاده، بل خرج من بيته وقد نسي ما يستر به جسده، فقد سُغِلَ بما هو أعظم.

وفي يوم القيامة: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً» قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض!! قال صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(١).

المطلب الثاني: حال الناس في ذلك الهول:

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ يزيد هول المشهد وضوحاً بتصوير الإنسان ورسم انفعالاته وهو يشهد هذا الهول العظيم ويقول: ﴿مَا لَهَا﴾؟! وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوع، الذي يرى ما لم يعهد، ويواجه ما لا يدرك، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت حياله؛ وكل ما حوله يمور موراً شديداً!

إنه يوم عظيم حُقَّ للإنسان أن يسأل فيه هذا السؤال، لأنه يرى الأرض تتغير من حوله، بل الكون كله يتغير، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب كيف الحشر (٦٥٢٧). ومسلم كتاب الجنة باب فناء الدنيا وبيان الحشر (٢٨٥٩).

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴿٤٩﴾﴾ [المزمل]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِهٖ وَأَبِيهِهٖ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبَتِيهِهٖ وَبَنِيهِهٖ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِهٖ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْئَلُ حِمِيَةٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَالْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِهٖ ﴿١١﴾ وَصَلْبَتِيهِهٖ وَأَخِيهِهٖ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِيهِهٖ الَّتِي تَتَّبِعُوهُهٖ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِهٖ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَوُزِّرَتْ الْجِبَالُ يَوْمَئِذٍ كَالْعِهْنِ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ فُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشَعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ لَآءَا نَالِمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ لَآءَا ذَاكُنَا عَظَمًا نَّحْنُ ﴿١١﴾ قَالُوا تَبَّكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ مِنَ الرَّحْمَنِ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِهٖ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَبِيًّا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١١﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٢﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ]، وقال تعالى: ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة]، هذه فقط نماذج مما يحدث يوم القيامة مما يجعل الإنسان يسأل ﴿مَالَهَا﴾!؟

المطلب الثالث: الأرض تشهد بأمر الله. والناس ينصرفون للحساب:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ يوم يقع هذا الزلزال، ويُشده أمامه الإنسان ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر،

فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، وهذا ليس من تلقاء نفسها وإنما هو أمر من الله لها ﴿يَأْنِ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أمرها تزلزل زلزالها؛ وأن تخرج أثقالها، وأن تخبر بما عمل عليها فأطاعت أمر ربها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»^(١).

وفي الجواب ﴿يَأْنِ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ تبييت لمن لم يستجب لأمر الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا حيث يشهد عبودية الكائنات كلها لله عين اليقين يوم القيامة، وقد كان أمر بالعبودية فأبى ونكص على عقبيه، وأنكر بل وتجبر وتعاضم حتى ادعى الألوهية والربوبية -والعياذ بالله تعالى- ولكن في هذا اليوم لا ينفع الندم ولا الرجوع.

وفي لمحة يصف الله تعالى لنا من أهوال ذلك اليوم مشهد القيام للحساب فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: يرجعون عن مواقف الحساب أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعي، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، منبعثين من أرجاء الأرض ﴿حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَسِرٌ﴾ [القمر]. وهو مشهد لا عهد للإنسان به من قبل. مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبا]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]. إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر بأبلغ من لفظ الباري هذا، إنه مشهد هائل مروّع،

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٧٤ (٨٨٥٤)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة إذا زلزلت (٢٤٢٩) وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير باب سورة الزلزلة (١١٦٩٣)، والحاكم ٢/ ٢٨١ (٣٠١٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.

مفزع، مرعب، مذهل^(١). مع ملاحظة أن ذلك الصدور متعدد منهم، يخرجون من قبورهم أشتاتاً، ثم يصلون ويجولون في أرض المحشر أشتاتاً، ثم يصدرون عن موقف الفصل أشتاتاً. والله المستعان على هول ذلك الموقف العظيم.

المطلب الرابع: لا تحقرن شيئاً:

ولكن لماذا يخرجون؟ ولماذا يهربون؟ وإلى من يلوذون؟ إنهم يخرجون: ﴿لِيُرَوُّا أَعْمَالَهُمْ﴾.. وهذه أشد وأدهى.. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء، وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير؛ فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر سبحانه، ولنيل الجائزة على ذلك العمل؟!.

ثم يبين الله تعالى بعد ذلك مباشرة كيفية مجازاة الناس وعدل الله سبحانه فيهم، فيقول عز شأنه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

عندئذ لا يحقر الإنسان شيئاً من عمله، خيراً كان أو شراً، ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن، إنما يرتعش وجدانه أمام كل عملٍ من أعماله، إرتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل.

﴿ذَرَّةٌ﴾ المفسرون يقولون: إنها البعوضة. ويقولون: إنها الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس، فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة.

ونحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم أيضاً، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس، فالهباءة تُرى بالعين المجردة. أما الذرة فلا

(١) سيكون الحديث عن خروج الناس من قبورهم وحشرهم إلى أرض المحشر في تفسير سورة العاديات عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ إِذَا بُعِثُوا فِي الْقُبُورِ ﴿٥﴾﴾ ويكفي هنا عرض المشهد والهول العظيم.

ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل، إنما هي رؤيا في ضمير العلماء! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره، وكل ما رآه هو آثارها! فهذه أو ما يشبهها من ثقل، من خير أو شر، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها!..

لأن التعبير بالذرة هنا ليس مقصوداً لذاته بل للدلالة على أن ما يحتقره الناس ويستصغرونه لا يضيع عند الله جزاؤه إن خيراً فخير وإن شراً فعدل، ولفظ الآية يبقى على ما يعرفه الأميون من معهود خطابهم، وسبحان من أنزله بلسان عربي مبين.

إنه ميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض، إلا في القلب المؤمن. القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر.. وفي الأرض اليوم قلوبٌ لا تتحرك للجبال من الذنوب والمعاصي والجرائر، ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير، إنها قلوب مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب!!

عن عدي رضي الله عنه مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشقِّ تمرّة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»^(١).
وفي الصحيح: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسطاً»^(٢).

وفي الصحيح أيضاً: «يا نساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسنَ شاة»^(٣)»^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة قبل الرد (٣١٤١). ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرّة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (٦١٠١).

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلوة باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦).

(٣) فرسنَ شاة: حافر الشاة.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الهبة باب فضل الهبة (٢٥٦٦) ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بالقليل (١٠٣٠).

قال مالك: «أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين ﷺ وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها، ويعجب، فقالت عائشة: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة!!»^(١).

وعن عوف بن الحارث ﷺ: أن عائشة ﷺ أخبرته: أن النبي ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا»^(٢).

وعن أنس ﷺ قال: كان أبو بكر ﷺ يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٨) فرفع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله، إني أجزئ بما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: «يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة»^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا، وأججوا نارا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»^(٤).

(١) في الموطأ ٥/١٤٥٢ (٣٦٥٦)، وجامع الأصول لابن الأثير (٤٦٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/١٥١ (٢٥٢١٨) وابن أبي شيبة ٧/٨٠ (٣٤٣٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٤٥٤ (٧٢٦١)، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (٢٤٧٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) جامع البيان ٢٤/٥٦٦، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٤١٨)، والبيهقي في الشعب ٧/١٥١ (٩٨٠٨)، «مجمع البحرين» من طريق أبي الخطاب، به، وقال: «لم يروه عن أيوب إلا سماك، ولا عنه إلا الهيثم. تفرد به زيادة». وذكره ابن كثير في تفسيره ٨/٤٦٣. قال محقق ابن كثير: الهيثم بن الربيع ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٠٢ (٣٨١٨)، والبيهقي في الشعب ٥/٤٥٦ (٤٢٦٧)، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧٠)، قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره

تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحَبِيبِ الْخَيْرِ
لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: نزولها ومناسبتها:

قال السيوطي في الإتيان: «فيها قولان ويستدل على كونها مدنية بما أخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: بعث صلى الله عليه وسلم خيلاً سريةً إلى بني كنانة وأمر عليها المنذر بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه فأسهبت -أي: أمعت في سهب وهي الأرض الواسعة- شهراً وتأخر خيرهم، فأرجف المنافقون؛ وقالوا: قتلوا جميعاً. فأخبر الله عنهم بقوله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الآيات. إعلماً بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات (١)» (٢).

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٢٩١)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص (٣٠٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد ٥١/٧ (١١٥١٥) وقال: رواه البزار وفيه حفص بن جميع وهو ضعيف، قال ابن كثير ٨/٤٦٧: روى أبو بكر البزاز هنا حديثاً غريباً جداً وساق الحديث قريباً مما للواحدي، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١٥/٥٤٤. وذكره ابن حجر في الفتح وقال في إسناده ضعف ٨/٧٢٧، وذكره ابن أبي حاتم في العلل ٢/٦٢، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٥٥. قال ابن عاشور: وأقول غرابة الحديث لا تناكده قبوله وهو مروى عن ثقات إلا أن في سنده حفص بن جميع وهو ضعيف. فالراجح أن السورة مدنية ٣٠/٤٩٧.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١/٣٦.

وجمهور المفسرين على أنها مكية^(١). وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.
أما عدد آياتها (١١) آية، وكلماتها: (٤٠) كلمة، وحروفها: (١٦٠) حرفاً^(٢).

مناسبتها لما قبلها:

«الزلزلة التي تزلزلها الأرض يوم البعث، وإخراج الأرض أثقالها وما في جوفها من الموتى، وصدور الناس أشتاتاً من القبور إلى موقف الحشر، والمواجهة هناك بين الكافرين والمؤمنين - كل هذا تمثله صورة واقعة في الحياة، نجدها حين تقوم حالة حرب بين الناس، فتزلزل الأرض تحت أقدام الجيوش الزاحفة نحو ساحة القتال، بما يركبون من خيل، وما يحملون من عدد القتال، وهم يصدرون من بيوتهم في سرعة الرياح العاصفة إلى لقاء العدو، لا يمسكهم شيء عن الانطلاق حتى يبلغوا ساحة الحرب.

قوم إذا الشرّ أبدئ ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

فيوم الحرب، قريب من يوم القيامة في أهواله، وشدائده، وما يلقي الناس منه، من هول وشدة.

ففي ميدان الحرب حساب وجزاء، وربح وخسران، وهول وفرع، يشمل المحاربين جميعاً.

فالحرب وميدانها في الدنيا، هي أقرب شيء يمثل به المحشر، والحساب، والجزاء في الآخرة.

ولهذا جاءت سورة العاديات مناسبة لسورة الزلزلة^(٣).

(١) انظر: المحرر الوجيز ١٥/٥٤٣، ومعالم التنزيل ٨/٥٠٥، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٥٣، وتفسير

القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٦٥، والدر المنثور ١٥/٥٩٧.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٤.

(٣) المصدر السابق، باختصار وتصرف.

ثانياً: موضوعها:

بدأ الله السورة بالقسم بخيل الغزاة وحالتها في الحرب إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله، ثم ذم خصالاً تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصالٌ غالبيةٌ على المشركين والمنافقين، ويُريد تحذير المسلمين منها، ووعظ الناس بأن وراءهم حساباً على أعمالهم بعد الموت ليتذكروه المؤمن فيتعظ به، ويهدد به الجاحد، وأنه لا ينفع في الآخرة مال ولا جاه وإنما ينفع العمل الصالح^(١).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿وَأَلْعَدِيدَتِ صَبْحًا﴾ أقسم الله تعالى في هذه السورة بالخيال الجاريات في سبيله نحو العدو، حين يظهر صوتها من سرعة عدوها. ﴿فَالْمُورِيَتِ قَدْحًا﴾ أي: فالخيال اللاتي تنقذ النار من صلابة حوافرها؛ من شدة عدوها. ﴿فَالْمُغِيرَتِ صَبْحًا﴾ فالمغيرات على الأعداء عند الصبح، ﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فهيجن بهذا العدو غباراً. ﴿فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ فتوسطن بركبانهن جموع الأعداء.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨ أي: إن الإنسان لنعم ربه لجحود، وإنه بجحوده ذلك لمقر. وإنه لحب المال لشديد.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أفلا يعلم الإنسان ما ينتظره إذا أخرج الله الأموات من القبور للحساب والجزاء؟ ﴿وَحِصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: واستخرج ما استتر في الصدور من خير أو شر ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: إن ربهم بهم وبأعمالهم يومئذ لخبير، لا يخفى عليه شيء من ذلك^(٢).

* * *

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/٤٩٨، إيجاز البيان في سور القرآن ٣٠٩.

(٢) انظر: التفسير الميسر ص ٥٩٩ - ٥٦٠.

المبحث الثاني وقفات مع السورة

المطلب الأول: وقفات مع المقسم به:

﴿وَأَلْعَدِيَّتِ ضَبْحًا ① فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ② فَأَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ③ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ⑤﴾.

أولاً: المقسم به:

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها بتدرج منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحةً بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعةً للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرةً في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرةً للنقع والغبار؛ غبار المعركة على غير انتظار، وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب!

فقوله: ﴿وَأَلْعَدِيَّتِ ضَبْحًا﴾ أي: «الخيل إذا جرت في سبيله فعَدَّت وضبحت، والضبح: هو الصوت الذي يُسْمَع من الفرس حين تعدو»^(١).

ومن المفسرين من قال أن المقصود الإبل وليس الخيل، قال ابن عطية: «والظاهر في الآية أن القسم بالخيل أو الإبل أو بهما»^(٢)، وقال القرطبي: «جمهور العلماء والمفسرون وأهل اللغة على أنها الخيل»^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٦٥/٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥٤٥/١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥٣/٢٠.

فالله تعالى يقسم بالخيال لما فيه من آيات باهرات، ونعم ظاهرات، والخيال هو الحصان المعروف وله شأن عظيم في ذلك الزمان لأنه يستخدم كثيراً في الحروب والقتال^(١) ولا زال يستعمل في الشرط إلى زماننا.

قوله: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ أي: «اصطكاك نعلها للصخر فتقذح منه النار، ﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ يعني الإغارة وقت الصباح»^(٢) «وهو أحسن ما يكون في الإغارة على العدو أن يكون في الصباح، لأنه يكون في غفلة ونوم، حتى لو استيقظ من الغارة فسوف يكون على كسل وإعياء»^(٣).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أن النبي صلى الله عليه وسلم «كان إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإن سمع أذانا كف عنهم وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم»^(٤).

﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَفْعًا﴾ هو الغبار في مكان معترك الخيول، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمعاً من الأعداء^(٥). وهذا من فرائد الخيل فإنها تُقدم في القتال ولو بلغ الدم إلى ركبها^(٦) بخلاف غيرها من الحيوانات فإنها تهاب الدم.

◉ ثانياً: المراد من بهذا القسم:

هذا القسم ضرب به المثل بالخيال في طاعتها لربها المالك لها المنعم عليها،

(١) انظر: تفسير السور القصار للهميلي ١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٦٥.

(٣) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٢.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب ما يحقن الأذان من الدماء (٦١٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٦٥.

(٦) أخرج أبو يعلى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تجيء رايات سود من قبل المشرق، تخوض الخيل الدم إلى ثنتها، يظهرون العدل، ويطلبون العدل فلا يعطونه، فيظهرون فيطلب منهم العدل فلا يعطونه». نقله ابن كثير في البداية والنهاية ٩/ ٢٧٩ وقال: وهذا إسناد حسن. وفي حديث الفتن عند نعيم بن حماد (١٣٧٩) «حتى تخوض الخيل في الدم إلى ثنتها».

وخوضها غمار المهالك استجابة لطلبه، بينما الإنسان يعرض عن ربه خالقه من العدم والمنعم عليه بكامل النعم ويترك أمره، بل ويجحده!! ومع ذلك يتمنى من ربه المزيد من الخير مع إعراضه وجحوده!!.

◉ ثالثاً: فائدة ذكر وصف العاديات:

«إن أريد بـ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ رواحل الحجاج: لكي يصدق المشركون بوقوع المقسم عليه، لأن القسم بشعائر الحج لا يكون إلا باراً، حيث هم لا يصدقون بأن القرآن كلام الله؛ ويزعمونه قول النبي ﷺ.

وإن أريد بـ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ وما عطف عليها خيل الغزاة: فالقسم بها لأجل التهويل والترجيع، لإشعار المشركين بأن غارة تترقبهم؛ وهي غزوة بدر. مع تسكين نفس النبي ﷺ من التردد في مصير السرية التي بعث بها مع المنذر بن عمرو ﷺ - إذا صح خبرها - فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجاً للاطمئنان»^(١).

◉ رابعاً: الخيل في الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال رسول الله ﷺ: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٢). وقال ﷺ: «البركة في نواصي الخيل»^(٣).

وقال ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريته وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»^(٤). وفي رواية: قالوا: بم ذلك يا رسول الله؟ قال:

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٢.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٠)، ومسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٢).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥١).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب من احتبس فرساً في سبيل الله (٢٨٥١).

«الأجر والمغرم»^(١) قال الطيبي: يحتمل أن يكون الخير الذي فسر بالأجر والمغرم استعارة لظهوره وملازمته.

وخص الناصية: لرفعة قدرها وإشارة إلى أن الفضل في الإقدام بها على العدو، دون المؤخرة لما فيه من الإشارة إلى الأدبار.

وقال الخطابي: وفيه إشارة إلى أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها والعرب تسمي المال خيراً، وقال ابن عبد البر: فيه إشارة إلى تفضيل الخيل على غيرها من الدواب، لأنه لم يأت عنه ﷺ في شيء غيرها مثل هذا القول، فعن أنس بن مالك: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من الخيل^(٢).

«والخيل المراد بها ما يتخذ للغزو: بأن يقاتل عليه، أو يرتبط لأجل ذلك، لقوله ﷺ: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال في مرج أو روضة»^(٣)، فما أصابت في طيلها^(٤) ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت أروائها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له. ورجل ربطها فخراً ورتاء ونواء^(٥) لأهل الإسلام فهي وزر على ذلك»^(٦).

«واعترض بعضهم بأن المباح لم يذكر في الحديث لأن القسم الثاني الذي يتخيل

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٣).

(٢) فتح الباري ٦/٧٣.

(٣) المرج موضع الكأ وأكثر ما يطلق على الموضع المطمئن والروضة أكثر ما يطلق في الموضع المرتفع.

(٤) طيلها: هو الجبل الذي تربط به ويطول لها لترعى.

(٥) نواء: ناوأت العدو مناوأة ونواء وأصله من ناء إذا نهض ويستعمل في المعادة.

(٦) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل لثلاث (٢٨٦٠).

فيه ذلك جاء مقيدا بقوله «ولم ينس حق الله فيها» فيلتحق بالمندوب قال: والسرفيه: أنه ﷺ غالباً إنما يعنني بذكر ما فيه حض أو منع، وأما المباح الصرف فيسكت عنه، لما عرف أن سكوته عنه عفو. ويمكن أن يقال: القسم الثاني هو في الأصل المباح إلا أنه ربما ارتقى إلى الندب بالقصد بخلاف القسم الأول فإنه من ابتدائه مطلوب»^(١).

المطلب الثاني: وقفات مع المقسم عليه:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾

المحور الأول: الصفات الإنسانية في السورة:

إن من خصائص المنهج الرباني تطهير النفس البشرية مما تحمله من صفات سيئة وتحويلها إلى صفات حميدة أو التقليل من آثار تلك الصفات السيئة، وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن ذلك وأشار إلى الطريق الذي يمكن به تطهير النفس والرقي بها^(٢).

وفي هذه السورة صفتان من صفات النفس الإنسانية أقسم الله تعالى عليها، وهاتان الصفتان لا تستقيمان إلا بالإيمان والمراقبة لله ومعرفة حقيقة هذه الدنيا حق المعرفة، والصفتان هما:

الصفة الأولى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ الكنود هو الجحود الكفور لنعم ربه، العاصي بلغة كندة، الذي يعدُّ المصائب وينسى النعم^(٣)، والذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة، ويعامل الله على عقد عوض^(٤)، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُئِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج]

(١) فتح الباري ٦/ ٧٥.

(٢) تفسير قصار السور للهميلي ١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٦٧.

(٤) المحرر الوجيز ١٥/ ٤٥٩.

وقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَدَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٠﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَدَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانٌ ﴿٥١﴾﴾ [الفجر].

«والتعريف في ﴿الْإِنْسَانُ﴾ للجنس، يفيد الاستغراق غالبًا، أي أن في طبع الإنسان الكُنُود لربه، أي: كفران نعمته. وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوتٍ فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكُمّل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إثارة المرء نفسه، وهو أمرٌ في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكُّر حق غيره»^(١)، وذلك يتحصل بالإيمان باليوم الآخر كما في هذه السورة وغيرها.

«والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبتها»^(٢).

أما قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْعِبَادِ ﴿٧﴾﴾

فيحتمل أن يكون الضمير يعود على الله، أي: «إن الله على ذلك من أمره لشاهد»^(٣).

ويحتمل أن يكون عائد على الإنسان، أي: «وإن الإنسان على كونه كنودًا لشهيد، أي: بلسان حاله، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله»^(٤). وعلى هذا يتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. وكأنه يشهد على نفسه بها. أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٣.

(٢) المصدر السابق بتصرف.

(٣) جامع البيان ٢٤/٥٨٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٦٧.

ولا تنافي بين المعنيين فلا شك أن الله شاهد على جحوده ذلك، كما أن الإنسان يشهد على نفسه بذلك في الدنيا وفي الآخرة، وأشد من ذلك شهود أعضائه عليه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور]، وكذلك الأرض ﴿يَوْمَ مِذْبَحُتُ أَحْبَارَهَا﴾ [بَانَ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا] [الزلزلة]، والملائكة وغيرهم من مخلوقات الله، والله المستعان.

﴿وَالَّذِينَ أَحْبَبُوا لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾:

أي أن الإنسان شديد الحب للخير وفيه معانٍ:

- 1- «لشديد المحبة للمال.
- 2- إنه لحريص بخيل، من محبة المال»^(١).
- 3- الخير الدنيوي من مال وصحة وجاه عند الملوك ونحوه، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك^(٢).

فالإنسان شديد الحب لنفسه، ومن ثمَّ يحب الخير؛ فهذه فطرته وطبعه، فإذا خالط الإيمان قلبه تغيرت تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته للأفضل من ذلك، فيحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً له، كما يبدل أثرته وشحّه إثارةً ورحمةً، ويربيه على القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدر، وهي قيمٌ من الخير أعلى من المال والسلطة والمتاع بأعراض الحياة الدنيا.

إن الإنسان بغير إيمانٍ حقيرٌ صغيرٌ؛ في المطامع والاهتمامات، ومهما كبرت أطماعه واشتدت طموحه وتعالَت أهدافه فإنه يظل مرتكسًا في حماة الأرض، مقيدًا بحدود العمر، سجينًا في سجن الذات، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من

(١) المصدر السابق.

(٢) المحرر الوجيز ١٥ / ٥٥٠.

الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من ذاته!! وذلك الإيمان بالله تعالى، الذي تتصل فيه الدنيا بالآخرة، فيجمع بين التفكير بالمشاهدة والإيمان بالغيب، إيمان بالجزاء والحساب والدين، ثم إيمان بعدل الله ورحمته وحكمته في خلقه.

﴿المحور الثاني: تقويم وعلاج تلك الصفات:﴾

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

بعد أن عرض الله تعالى لنا مشهد الخيل الغازية، وما في هذا المشهد من قوة عن طريق القسم به، ثم بين بعض الصفات الإنسانية التي فيها هلاك الإنسان إن لم يقومها ويعديلها من نفسه، بين الله تعالى حقارة الدنيا ومصيرها وما يحدث بعدها، مزيهاً فيها، ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: فتأتي هذه اللفظة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه، وذلك بأمور:

الأمر الأول: التخويف بعرض مشهد البعث والحشر:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾﴾. فهذه الصورة تنسي حب الخير الفاني، وتؤسس لحب الخير الباقي في الدارين، وتوقظ من غفلة البطر.

«معنى: ﴿بُعِثَ﴾: انقلبَ باطنها ظاهرها. والبعثرة: الانقلاب، يقال: بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض. فبعثرة القبور: حالة من حالات الانقلاب الأرضي والخسف خصت بالذكر من بين حالات الأرض لما فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألفت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر من جثث كاملة ورفات»^(١) وهذا جزء من الصورة المشار إليها في السور السابقة- الزلزلة- كما في قوله تعالى:

﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق].

فالله ﷻ إذا شاء إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ويقوم الناس لرب العالمين قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر]. وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [٥١] قَالُوا يَوْمَئِذٍ لَّنا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [٥٢] إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [٥٣] [يس].

وأول من يبعث وتنشق عنه الأرض يوم القيامة هو نبينا محمد ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر..» الحديث (١).

والخلق كلهم سيحشرون إلى الله يوم القيامة (٢) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف].

ويحشر العباد في هذا اليوم حفاة عراة غرلاً - أي ليسو مختونين - فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا أَنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء] (٣). وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:

(١) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ (٢٢٧٨).

(٢) بين شيخ الإسلام أنه حتى البهائم جميعها يحشرها الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَطَّيَّرُ بِطَيْرٍ يَجْنَحِيهِ إِلَّا أُمَّةً لَّكُم مَّا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ سَبْقٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام] انظر: مجموع الفتاوى ٤/ ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] [٣٣٤٩]،

ومسلم باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا» قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(١).

ويبعث كل عبد على ما مات عليه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقسته - أو قال فأوقسته - فقال النبي ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا»^(٢). ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله لكي يموت على التوحيد ثم يبعث يوم القيامة وهو ينطق بها^(٣).

الأمر الثاني: الوعيد بإظهار ما كان في صدورهم:

قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: «ظهر وبان ما فيها، وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر؛ فصار السر علانية، والباطن ظاهرًا، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم»^(٤).

قال الألوسي: «أي: جُمع ما في القلوب من العزائم المصممة وأُظهِر كإظهار اللب من القشر، وجمعه، أو ميز خيره من شره. فقد استعمل: حُصِّلَ الشيء بمعنى: ميزه من غيره. وأصل التحصيل: إخراج اللب من القشر، كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبر من التبن. وتخصيص ما في القلوب: لأنه الأصل لأعمال الجوارح ولذا

(١) أخرجه مسلم باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب الكفن في ثوبين (١٢٦٥)، ومسلم باب ما يفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦).

(٣) القيامة الكبرى للأشقر ٢٥١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

كانت الأعمال بالنيات، وكان أول الفكر آخر العمل، فجميع ما عمل تابع له، فيدل على الجميع صريحاً وكناية»^(١).

قال الرازي: «اعلم أن الصدر يجيء والمراد منه القلب:.. كما في قوله: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر]»^(٢) فالقلب يحتوي الكثير من العبادات كالحب والبغض، والإيمان والنفاق، والرضا والسخط، والإخلاص والرياء، حتى ولو ظهر على الجوارح خلاف ما في القلب، فإن هذا يظهر يوم القيامة.

يقول الشيخ ابن عثيمين: «﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ما في القلوب من النيات، وأعمال القلب: كالتوكل، والرغبة، والرغبة، والخوف، والرجاء وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله ﷻ العمدة ما في الصدور كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ بُدِيَ السَّرَائِرُ﴾ فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ [الطارق]. لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر؛ حتى المنافق يعامل كما يعامل المسلم حقاً، لكن في الآخرة: العمل على ما في القلب. ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء - قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة»^(٣).

والذي يوضح هذا ما ورد عن النبي ﷺ: «أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد؛ فأُتي به فعرفه نِعَمه فعرفها؛ قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت!! ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن؛ فأُتي به فعرفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت!! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ،

(١) روح المعاني ٢٣/ ١٠٠.

(٢) مفاتيح الغيب ١٠/ ٣٩٧.

(٣) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ص ٢٩٤.

فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله؛ فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت!! ولكن يقال إنه جواد فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه فألقي في النار»^(١).

فهذه الأمور التي كشفها الله تعالى وأظهرها يوم القيامة لم تكن معلومة عند الناس في الدنيا، ولكن الله تعالى يعلمها ويكشفها يوم القيامة.

يقول الشيخ ابن عثيمين عند تقسيم الشرك الخفي والجلي: «والخفي: ما كان في القلب، مثل: الرياء، لأنه لا يبين، إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمى أيضًا: «شرك السرائر» وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿يَوْمَ بُلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۗ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾^(٢)، وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعلُه وينهى عن المنكر ويفعله: أنه «يلقى في النار حتى تندلق أقتاب بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعلُه، وينهى عن المنكر ويفعله»^(٢)»^(٣).

«ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض . وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور . مما تكنه الصدور .

(١) أخرجه النسائي في سننه كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٣١٣٧)، والترمذي (٢٣٨٢)، وأحمد ٢/ ٣٢١ (٨٢٦٠)، ومسلم كتاب الإجارة باب من قاتل للرياء والسمعة (١٩٠٥)، وصححه الألباني، صحيح سنن النسائي (٣١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار (٣٢٦٧)، ومسلم كتاب الزهد باب عقوبة من يأمر بمعروف ولا يفعلُه (٢٩٨٩).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٩٤ / ١٠ عند شرح كتاب التوحيد.

فالبعثة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر»^(١).

تنبية:

وليس المقصود من الآية أن الناس يحاسبون على الخواطر والهواجس وما يدور في الذهن والنفس من إرادة المعصية لقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل»^(٢)، فإذا تكلمت أو عملت حصل لها الوعيد.

ومن فضل الله على العباد أن كتب لهم أجر العمل الصالح إذا همت به النفس ولم تعمله فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه ﷻ قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»^(٣).

الأمر الثالث: بيان الجزاء والحساب بالإشارة إلى علم الله تعالى وخبرته بهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: «إن ربهم بأعمالهم، وما أسروا في صدورهم وأضمره فيه، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ»^(٤). فالمرجع إلى ربهم، وهو لخبير بهم وبأحوالهم وأسرارهم، فإن الله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال، ولكن هذه الخبرة

(١) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٤.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الطلاق باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون.. (٥٢٦٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب من هم بحسنة أو سيئة (٦٤٩١)، ومسلم باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (٢٠٦).

(٤) جامع البيان ٥٩١/٢٤.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم القيامة؛ هي التي تثير الآية انتباههم لها في هذا المقام لأنها خبرة وراءها عاقبة وحساب وجزاء.

وهنا أمور يجدر التنبيه إليها:

أولاً: معنى ﴿خَيْرٌ﴾ وعلاقته بـ ﴿شَهِيدٌ﴾:

الخير: «يرجع إلى العلم بالأمور الخفية التي هي في غاية اللطف والصغر، وفي غاية الخفاء»^(١)، «فهو العليم بسرائر عبادته وضمائر قلوبهم»^(٢).

فعندما بين الله تعالى أنه يوم القيامة يُظهِر ما في القلوب مما كان مستوراً عن أعين الناس في قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، بين الله تعالى أنه خير بهذا المستور فقال: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾

أما الشهيد فهو: «المطلع على جميع الأشياء، الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والخفيات والجليات، والمستقبلات، وسمع جميع الأصوات خفيها والجليات، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، وصغيرها وكبيرها، وأحاطه علمه بجميع الموجودات»^(٣).

«فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد»^(٤).

ولذلك عندما ذكر الله تعالى: جحود الإنسان في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُودٌ﴾ وهذا الجحود أمر يظهر عليه في كلامه وتصرفاته وحاله قال: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾^(٥).

(١) فتح الرحيم الملك العلام ٣٤.

(٢) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ١ / ٤٤١.

(٣) فتح الرحيم الملك العلام ٢٩.

(٤) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ١ / ٤٤١.

ثانياً: اسم الله الخبير وأثره التربوي في تركية النفوس المؤمنة:

«الله تعالى العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عن علمه شيء، أحاط علمه بالواجبات والمستحيلات والجائزات، وبالماضيات والحاضرات والمستقبلات قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام].

فهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧]. ويعلم ما أكتته الصدور وما توسوس به النفوس، وما فوق السماوات العلى، وما تحت الثرى، الخبير الذي أدرك علمه السرائر، واطلع على مكنون الضمائر، وعلم خفيات البذور، ولطائف الأمور، ودقائق الذرات في ظلمات الدجور.

وكثيراً ما يأتي ذكر العليم والخبير في سياق الأعمال وجزائها؛ ليوظ القلوب، وينبها على: إكمالها وإحسانها وإتقانها وإخلاصها، وليرغبهم ويرهبهم^(١).

«فالله تعالى خبير عليم بأعمال عباده وأقولهم، وما يجول في صدورهم من خير أو شر قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء]. وقال تعالى: ﴿الَّا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك]. ولذلك أمرنا ﷺ: أن نتقيه ونعمل بما يحب، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه؛ فقال تعالى محرضاً على التقوى والإحسان: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء]^(٢) فهذا حث على التقوى التي في القلب، والإحسان الذي هو أعلى مراتب الدين، الذي يصل فيه القلب إلى درجة عالية جداً من الإيمان، والذي يعلم وصول العبد إلى درجة التقوى والإحسان هو الله تعالى.

(١) فتح الرحيم الملك العلام ٣٣-٣٤ بتصرف يسير.

(٢) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ١/ ٢٧٠-٢٧١.

المطلب الثالث: وقفات إيمانية مع السورة:

في هذه السورة ذكر الله تعالى فيها أموراً غيبية، وعرض الله هذه الأمور بأسلوب وعظي عظيم، فما أثر الإيمان بالغيب والآخرة على السلوك الإنساني؟ وما دور ذلك الأسلوب الوعظي التربوي في القرآن في تركية النفوس وبناء الأمم؟

﴿أولاً: أثر الإيمان بالغيب عموماً وبالآخرة خصوصاً في تهذيب النفس المسلمة:﴾

قال الله تعالى عن صفات المتقين: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي رَحْمَتِنَا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة]. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة]. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي رَحْمَتِنَا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة].

«الإيمان بالغيب هو من الصفات التي كرم الله بها بني آدم، فلم يشأ لهم أن تكون حياتهم محصورة في دائرة ما تدركه حواسهم فحسب، بل شاء لهم - فضلاً منه ومنه وكرماً - أن تكون حياتهم أوسع من ذلك وأرحب، وأن تكون في أرواحهم القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس وإن كانت تستطيع أن تدرك آثاره. ومن عجب أن يأتي من يريد أن يطمس هذا الإيمان في روح الإنسان فيعيب عليه أن يؤمن بالغيب ويقول: هذه خرافة وتخلف ورجعية. وإن الإنسان يجب أن يؤمن بالعلم لا بالغيبيات!! إن وضع هذه الصفة في مقدمة صفات المتقين تنبيه على أنهم لن يتقوا إذا لم يكونوا يؤمنون بالغيب وبالوحي وبالثواب والعقاب.

إن قاعدة حياة المؤمن الرئيسية هي إيمانه بالغيب، الذي يتم عن طريقه إيمانه بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين والقدر خيره وشره، ومن ثم يتقرر عن طريق إيمانه خط سلوكه كله في الحياة الدنيا.

ثم يقول تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ومن المعلوم أن الإيمان بالآخرة داخل ضمن الإيمان بالغيب، ولكن السياق يبرزه ليعطيه أهمية خاصة.. فالإيمان بالآخرة هو

الذي يعين على الاستقامة في الدنيا ويحثها على العطاء والبذل»^(١).

ومن هنا يعلم أن الإيمان بالغيب واليوم الآخر يحقق أموراً:

١- يحقق الإيمان بالدين كله: وذلك «لأن الإيمان بالغيب: اعتقاد ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي. فإذا آمن به المرء تهيأ لسماع دعوة الرسل، وللنظر فيما يبلغون عن الله تعالى، فسهل عليهم إدراك الأدلة»^(٢).

٢- يحقق الارتفاع عن مرتبة الحيوانية التي لا تؤمن إلا بما تشاهده.

٣- يحقق التقوى: قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ لِكِتَابِ اللَّهِ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنِتَلُوا ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۚ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [البقرة].

٤- الإيمان بالغيب يحقق الهداية والفلاح والفوز: قال تعالى عن عباده المؤمنين بالغيب: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ لِكِتَابِ اللَّهِ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنِتَلُوا ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۚ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [لقمان].

﴿ثانياً: الوعظ أسلوب تربوي مهم في تهذيب النفس المسلمة:

الموعظة: كلام مصحوب بزجر. وقيل: النصح والتذكير بالعواقب. وقيل: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب^(٣).

(١) دراسات قرآنية ٢٧٩-٢٨١ باختصار وتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٢٣٠ بتصريف.

(٣) لسان العرب ١٥/ ٣٤٥.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالعظة، فقال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعَظُهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

فإذا كان عند بعض المدعويين شيء من الجفاء والإعراض والصدود، مع معرفته بالحق وعلمه به، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة.

وهذا مسلك الأنبياء، يقول تعالى عن نبيه هود ﷺ وقومه يردون عليه موعظته: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء].

والقرآن أغلبه عظة؛ ففيه: الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، وقصص الأولين وما حصل عليهم من المثالات، والتوعد للظالمين بأن لهم أمثالها. وأساليب الوعظ كثيرة، ومن أفضلها وأعمقها أثرًا: الوعظ بالتذكير بالآخرة، والجنة والنار، والقيامة، والبعث والنشور، والقبر. وكذلك التذكير بنعم الله تعالى.

فالواجب على المرين:

أ- أن يلتزموا ذلك المنهج القرآني النبوي في تذكير الناس بالله تعالى، وتهذيب نفوسهم.

ب- وأن يجمعوا بين الخطاب العلمي والخطاب الوعظي، ولا يجعلوا الخطاب العلمي معلومات جافة من غير وعظ وتذكير.

ج- وأن تصطبغ دروس العلم وحلقات التربية بما يزيد الإيمان، ويرقق القلوب، ويزيد طلبة العلم -الذين هم دعاة المستقبل- بل والناس جميعًا؛ قربًا من الله تعالى.



تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ⑩ نَارُ حَامِيَةٍ ⑪ ﴾

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: اسمها:

اتفقت المصاحف وكتب التفسير والسنة على تسميتها بسورة «القارعة»^(١)، وسميت بذلك لأنها تفرع القلوب والأسماع بهولها^(٢).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

اتفق المفسرون على أنها مكية^(٣).

أما عدد آياتها (١١) آية، وكلماتها: (٣٦) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٩.

(٢) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١٠.

(٣) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٢، ولم يذكرها السيوطي في السور المدنية ولا السور المختلف فيها، انظر:

الإتقان ١/٢٨-٣٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٥.

مناسبتها لما قبلها:

«ختمت سورة «العاديات» بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝۱ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝۲ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝۳﴾. وفيها دعوة إلى الناس أن يحاسبوا أنفسهم في الدنيا، قبل يوم الحساب والجزاء في الآخرة.. وجاءت سورة القارعة تفرع الناس بهذا اليوم، يوم الجزاء، وتدعوهم إلى الحساب والجزاء، بعد أن أخذوا الفرصة الممكنة لهم من حساب أنفسهم، وإعدادها لهذا اليوم..»^(١).

ثالثاً: موضوعها:

«إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأحوال والشدائد، وما يكون فيها من أحداث عظام: كخروج الناس من قبورهم، وانتشارهم كالفراش المتطاير على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم، وكذلك نسف الجبال وتطايرها حتى تكون كالصوف المتطاير في الهواء، وإثبات الجزاء على الأعمال، وأن أهل الأعمال الصالحة المعتمدة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم»^(٢).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿الْقَارِعَةُ ۝۱﴾ فهو وصف الساعة التي تفرع قلوب الناس بأهوالها. ﴿مَا الْقَارِعَةُ ۝۲﴾ أي شيء هذه القارعة؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝۳﴾ أي شيء أعلمك بها؟

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝۴﴾ أي: في ذلك اليوم يكون الناس في كثرتهم وتفرقهم وحركتهم كالفراش المنتشر، وهو الذي يتساقط في النار.

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٠-٥١١ باختصار.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ وتكون الجبال كالصوف متعدد الألوان الذي يُنَفَّس باليد، فيصير هباءً ويزول.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٦ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ فأما من رجحت موازين حسناته، فهو في حياة مرضية في الجنة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ ﴿فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وأما من خفت موازين حسناته، ورجحت موازين سيئاته، فمأواه جهنم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ وما أدراك -أيها الرسول- ما هذه الهاوية؟ إنها ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: قد حَمِيت من الوقود عليها..

* * *

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول: وصف يوم القيامة:

المحور الأول: يوم القيامة هو يوم القارعة:

﴿الْقَارِعَةُ ۝۱ مَا الْقَارِعَةُ ۝۲ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ أي: «الساعة التي يقرع قلوب الناس هولها وعظيم ما ينزل بهم من البلاء عنها وذلك صبيحة لا ليل بعدها»^(١)، فالقارعة من أسماء يوم القيامة؛ كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية.. وغير ذلك.

«والقارعة: وصف؛ من القرع وهو: ضرب الجسم بآخر بشدة لها صوت. وأطلقت ﴿الْقَارِعَةُ﴾ على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١].

والتقدير: القارعة قريبة أو أتت القارعة. وقوله تعالى: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾: استئنافا للتهويل، و﴿مَا﴾ استفهامية، والاستفهام مستعمل في التهويل؛ لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه»^(٢).

ثم يزيد الله تعالى في تهويل النفوس معظمًا أمرها ومهولًا لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ أي: «وما أشعرك يا محمد أي شيء القارعة»^(٣)، فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك وأن يلتمس بها التصور!

(١) جامع البيان ٢٤/٥٩٢.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٠ مختصرًا.

(٣) جامع البيان ٢٤/٥٩٣.

وهذا التركيب نظير قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة]، وفائدته جذب الانتباه وشد النفس للتطلع للجواب والاهتمام به مع قيام عظمتة وهوله في النفس حتى كأنه بين يديها الآن.

المحور الثاني: من أهوال يوم القيامة:

ثم فسر ذلك اليوم بأن وصف بعض أهواله، فابتدأها بوصفين:

الوصف الأول: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝١﴾

الفراش هو: طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها، ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق^(١).

﴿الْمَبْثُوثِ ۝٢﴾: أي: المتفرق^(٢).

﴿فيكون معنى الآية أن الناس﴾ (في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومجيئهم؛ من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبعوث)^(٣) قال تعالى: ﴿حُشْحَا بَصْرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر].

«والناس أول قيامهم من القبور كالفراش المبعوث، لأنهم يجيئون ويذهبون، على غير نظام، ثم يدعون فيتجهون إلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر، لأن الجراد إنما توجُّهه إلى ناحية مقصودة»^(٤).

وجملة ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ إجابة عن السؤالين في قوله: ﴿مَا الْقَارِعَةُ ۝١﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢﴾.

(١) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٣.

(٢) جامع البيان ٢٤/٥٩٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٦٨.

(٤) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٣.

والملاحظ أن الله تعالى أجابهم عن القارعة بقوله ﴿يَوْمٌ﴾، ووصف ذلك اليوم بأهواله، ولم يذكر متى ذلك اليوم!! وهذا زيادة للتحويل. كأن الله تعالى يقول لنا: لا تشغلوا بوقته، ولكن انشغلوا بما سيحصل فيه لكم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌ، فاعملوا قبل أن يحل بكم ذلك اليوم. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ آتَتْ مِنْ ذِكْرِنَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِمَّنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات].

الوصف الثاني: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ يعني: «قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق»^(١). فالعهن هو: الصوف^(٢).
 ﴿أما وصف العهن بأنه منفوش، أي: المفرق بعض أجزائه عن بعض؛ ليغزل أو تحشى به الحشايا^(٣)﴾.

«وقد قرنت الجبال وما سيكون من حالها بينها وبين الناس؛ تنبيهًا على تأثير تلك القارعة في الجبال، حتى صارت كالصوف المندوف، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب؟!»^(٤).

وخصت الجبال في ذلك لأنها أقوى وأرسى الأشياء التي يعايشها الإنسان على ظهر الأرض، ولذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَكُنتَ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٦٠﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة]. وقال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُمِعَ إِلَهَهُ أَلَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل]. وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٦٨.

(٢) جامع البيان ٢٤/ ٥٩٤.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥١٢.

(٤) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١٠.

فهذا مشهدٌ للقيامة تطير له القلوب شعاعاً، وترتجف منه الأوصال ارتجافاً، ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباءً، فلا نافع لها، ولا مدرك له، ولا منقذ، إلا الله سبحانه، حتى أقوى قوى الأرض جميعاً من جبال الأرض الرواسي التي تُثبَّت الأرض كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٧] وقال: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، هذه الجبال تصبح لا تملك من أمرها شيئاً حتى أنها تطير في الهواء.

لمسة بيانية:

قال في سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، وقال في سورة المعارج: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩]. فزاد كلمة ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ في سورة القارعة فما فائدة ذلك؟

والجواب والله أعلم: «أنه لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من (القرع)، وهو الضرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفس؛ لأن من طرائق نفس الصوف أن يُقرعَ بالمقرعة. كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقرع - وهو من القرع - وهو فأس عظيم تحطم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر النفس أيضاً.

فلفظ القارعة أنسب شيء لهذا التعبير. كما ناسب ذكر القارعة ذكر الفراش المبتوث في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أيضاً؛ لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر. ولم يحسن ذكر (الفراش) وحده كما لم يحسن ذكر (العهن) وحده^(١).

المطلب الثاني: أقسام الناس يوم القارعة وجزائهم:

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ جمع الله تعالى بين كل الخلق؛ أهل الصلاح وأهل الفساد، أهل السعادة وأهل الشقاء. ولكن أهل الصلاح في هذا اليوم لهم مميزات

(١) لمسات بيانية ١١٠.

تميزهم عن غيرهم من جهة الجزاء، بل ومن جهة هول الموقف والإحساس به؛ فأهل الصلاح والسعادة لا يقاسون ما سيقاسيه أهل الشقاء في هذا اليوم فلهم: ظل عرش الرحمن، وحوض النبي ﷺ، تيسير الحساب. إلى غير ذلك من حسن الجزاء الذي يخفف عنهم فزع ذلك اليوم وشدته.

فهذه الآيات تفصل بين الناس في الجزاء، وتبين أن الناس في هذا اليوم سيكونون على قسمين:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ۖ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]. فهما قسمان لا ثالث لهما:

◉ القسم الأول: من ثقلت موازينه:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ هنا عدة وقفات:

أولاً: معنى الموازين:

قال ابن عطية: «قال جمهور العلماء والفقهاء والمحدثين: ميزان القيامة بعمود وكفتين، ليبين الله تعالى أمر العباد بما عهدوه وتيقنوه، وجمعت الموازين للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغايرة»^(١).

قال الشيخ ابن عثيمين: «قال بعض أهل العلم: إنه واحد وإنما جمع باعتبار الموزون، لأنه يوزن فيه الحسنات والسيئات، وتوزن فيه حسنات فلان وفلان، وتوزن

فيه حسنات هذه الأمة والأمة الأخرى، فهو مجموع باعتبار الموزون لا باعتبار الميزان، وإلا فالميزان واحد.

وقال بعض أهل العلم: إنها موازين متعددة، لكل أمة ميزان، ولكل عمل ميزان فلهذا جمعت.

◉ والأظهر - والله أعلم - أنه ميزان واحد، لكنه جمع باعتبار الموزون على حسب الأعمال، أو على حسب الأمم، أو على حسب الأفراد^(١).

ثانياً: ما الذي يوزن في الميزان:

للعلماء في ذلك أقوال:

١ - الأعمال نفسها توزن وأنها تجسم:

يقول الشيخ ابن عثيمين: «الأعمال تقلب أعياناً فيكون لها جسم يوضع في الكفة فيرجح أو يخف، وقد ضرب العلماء لذلك مثلاً بما صح به الحديث عن النبي ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد: يا أهل الجنة. فيشربون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادى يا أهل النار، فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة؛ خلود فلا موت. ويا أهل النار؛ خلود فلا موت»^(٢). ونحن نعلم جميعاً أن الموت صفة ولكن الله - تعالى - يجعله عيناً قائماً بنفسه وهكذا الأعمال تجعل أعياناً فتوزن والله أعلم»^(٣).

وقد دلت نصوص كثيرة أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله أعلم بها،

(١) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ (٤٧٣٠)، ومسلم كتاب الجنة باب

النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين - اليوم الآخر ٢ / ٣١.

كما قال ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف؛ تحاجان عن أصحابهما»^(١). والشواهد في هذا كثيرة.

٢- الذي يوزن هو العامل نفسه:

فقد دلت النصوص على أن العباد يوزنون يوم القيامة، فيثقلون في الميزان ويخفون بمقدار إيمانهم، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال اقرأوا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف]»^(٢).

وورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ، أنه كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ: «م تضحكون» قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه!! فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»^(٣).

٣- الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال:

كما ورد في حديث البطاقة، فقد ورد في السنة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟ فيقول: لا يا رب فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة،

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ٨٠٤.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾ (٤٧٢٩). ومسلم أول كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٢٠ (٣٩٩١)، وابن حبان ١٥/ ٥٤٦ (٧٠٦٩) قال شعيب الأرنؤوط:

فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات!! فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء»^(١).

🔷 **والراجع:** قال الشيخ حافظ حكيمي: «العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك ولا منافاة بينهما. ويدل لذلك ما روي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فيمايل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار. قال: فإذا أدبر إذا صائح من عند الرحمن ﷻ يقول: لا تعجلوا فإنه قد بقي له؛ فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان»^(٢).

فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع: هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى. وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن والله الحمد والمنة والله أعلم»^(٣).

ثالثاً: الذي ينقل الميزان:

أعظم شيء ينقل ميزان العبد يوم القيامة توحيد الله تعالى، وحديث البطاقة أعظم دليل في ذلك، وحديث «فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله. بيتغى»

(١) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء فيمن يموت ويشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩)، وابن ماجه كتاب الزهد باب ما يرجي من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠)، وأحمد في المسند ٢/٢١٣ (٦٩٩٤) والحاكم ١/٥٢٩ وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد ٢/٢٢١ (٧٠٦٦)، قال شعيب الأرنؤوط: هذا إسناد حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٥ (١٦٨٠٥). رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) معارج القبول ٢/٢٧٢، وانظر: للإستزادة حول هذه المسألة كتاب القيامة الكبرى للأشقر ٢٥١-٢٥٥.

بذلك وجه الله^(١)، وكل طاعة لله تعالى هي رفعة لميزانه يوم القيامة، وهناك أعمالٌ بينَ رسول الله ﷺ أنها تثقل الميزان، ومنها:

١- حسن الخلق: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»^(٢).

٢- التسييح: وقد وردت صيغته في قول رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده»^(٣).

٣- الذكر والاحتساب: وفيه قال رسول الله ﷺ: «بخ بخ!! وأشار بيده بخمس، ما أثقلهن في الميزان سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه»^(٤).

٤- الطهارة والحمد: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن- أو تملأ- ما بين السماوات والأرض..»^(٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت (٤٢٥) ومسلم كتاب المساجد باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٢٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب حسن الخلق (٤٨٩٩)، وجامع الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢)، وصححه الألباني في الصحيحة ٨٧٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ (٦٠٤٣)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسييح والدعاء (٢٦٩٤).

(٤) أخرجه ابن حبان ٣/ ١١٤ (٨٣٣) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وأحمد في المسند ٢٩/ ٦١٨ (١٨٠٧٦) و٢٤/ ٤٣٠ (١٥٦٦٢) و٣٨/ ١٨٨ (٢٣١٠٠) وصححه شعيب الأرنؤوط، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ١٣٦ (٩٧٥٥).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣).

٥ - تجهيز وإعداد فرس للجهاد: قال ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله؛ إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شِبعه وريته وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»^(١).

رابعاً: معنى عيشة راضية:

العيشة الراضية هي: الجنة^(٢) ووصف العيشة بأنها راضية وصفٌ يدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم.

فالعيشة الراضية وصفت جمع كل النعم التي في الجنة، وأعظمها رضى الله الرحمن الرحيم، ففي الحديث قال النبي ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(٣).

وكذلك العيشة الراضية في قوله ﷺ: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].
فقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ «هي تضعيف ثواب الأعمال، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحُور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلِهِ ورحمته»^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب من احتبس فرساً في سبيل الله (٢٨٥١).

(٢) جامع البيان ٣٠/٥٩٥.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦١٨٣)، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٢٦٢.

فعن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال - يقول الله صلى الله عليه وسلم: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟! - قال - فيكشف الحجاب؛ فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم صلى الله عليه وسلم»^(١).

القسم الثاني: من خفت موازينه:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾

أولاً: معنى خفة الموازين:

أي: رجحت سيئاته على حسناته^(٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يِظْمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف]. ثم قال: إن الميزان يخفّ بمثقال حبة ويرجح. قال: فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف..»^(٣).

ثانياً: المقصود بـ ﴿فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ﴾:

معناه: فهو ساقط هاو بأمر رأسه في نار جهنم، وعبر عنه بأمه يعني دماغه. أو: ﴿فَأَمَّهُ﴾ التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها.

﴿هاوِيَةٌ﴾: اسم من أسماء النار^(٤)، قال ابن زيد: «الهاوية: النار، هي أمه ومأواه

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم صلى الله عليه وسلم (١٨٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٦٨/٨.

(٣) جامع البيان ٤٥١/١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٦٨/٨.

التي يرجع إليها ويأوي إليها وقرأ: ﴿وَمَا أَوْلَهُمُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١]»^(١).

قال الطبري: «وإنما جعلت النار أمه لأنها صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لم يكن له مأوى غيرها له بمنزلة الأم له»^(٢).

وهذا «تمثيل لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا، لأن الناس يكونون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر - لشدة محبتها ابنها - فهي أشد سرورا بسروره، وأشد حزنا بما يحزنه»^(٣).

ثالثاً: وصف الهاوية بأنها نار حامية:

قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ فالهاوية هي النار.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ سؤال تهويل لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك! وفائدته جذب الانتباه وشد النفس للتطلع للجواب والاهتمام به، مع قيام عظمتة وهوله في النفس حتى كأنه بين يديها الآن. ثم يجيء الجواب كنبرة الختام: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾^(٤).

هذه النار الحامية هي أم الذي خفت موازينه! أمه التي يفيء إليها ويأوي! -والأم عندها الأمن والراحة- فماذا هو واجدٌ عند أمه: الهاوية النار الحامية!! إنها مفاجأة تمثل الحقيقة القاسية جداً لمن يعتبر!.

فوصف الله النار بأنها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير^(٤).

(١) جامع البيان ٥٩٦/٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التحرير والتنوير ٥١٤/٣٠ بتصرف يسير.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦٧/٢٠.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ناركم جزء من سبعين جزء من نار جهنم». قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: «إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرّها»^(١).

وفي رواية: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»^(٢). وفي رواية: «هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم»^(٣).

وفي رواية: «أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً»^(٤).

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي الرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥)، ومسلم كتاب الجنة باب في شدة حر النار جهنم وبعد قعرها وما تأخذه من المعذبين (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٤٤ (٧٣٢٣) وابن حبان (٢٦٠٨) والحميدي في المسند (١١٢٩) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٦٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٧٩ ح (٨٩١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٠٦) وقال الأرنؤوط إسناده قوي.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط / ١٥٥ وفي الكبير ١٩/ ١٢٣ (٢٨٢) قال الهيثمي ٣٣٣/ ١٠: رجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦١٩٣) و(٦١٩٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب أهون أهل النار عذاباً كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٢١٣) واللفظ له.

الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها»^(١). وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»^(٢).

﴿ذَارِحَامِيَّةٌ﴾: وحماها هنا مطلق فيشمل:

١- لظاها: وقد وصف الله به النار كلها فقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلظَىٰ ۖ نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ ۖ﴾ [المعارج].

٢- دخانها: وقد وصف الله به النار فقال: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ۖ﴾ [المرسلات].

٣- لهيبها: وقد وصف الله به النار كما في قصة أبي لهب فقال: ﴿سَيَصَلَّىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣].

٤- طعامها وشرابها: وقد وصف الله به النار فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۖ﴾ [الدخان].

٥- عذابها: وقد وصف الله به النار فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا فَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء: ٥٦].

٦- وقودها وزبانيتها: قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۖ﴾ [التحريم].

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٠)، ومسلم كتاب المساجد باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر.. (٦١٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٣) ومسلم كتاب المساجد باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٥).

٧- استمرار ذلك الحميم: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر].

فهذه بعض أوصاف ذلك الحميم الذي سيلاقيه أولئك الذين خفت موازينهم نسال الله السلامة والعافية.

﴿لمسة بيانية:﴾

«ناسب ذكر العهن المنفوش قوله: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ لأن النار الحامية هي التي تذيب الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة: في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَبُ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج]، والشوى هو: جلد الإنسان، والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تذيب الجبال، وتجعلها ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، فناسب زيادة ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ في القارعة من كل ناحية.

كما أن ذكر النار الحامية مناسب للقارعة من ناحية أخرى، ذلك أن ﴿الْقَارِعَةَ﴾ - وهي من لفظ القارعة - هي القداحة التي تقدح بها النار.

فناسب ذكر القارعة؛ ذكر الصوف المنفوش، وذكر النار الحامية، فناسب آخر السورة أولها.

﴿وبهذا نرى أن ذكر القارعة حسنَ ذكر ﴿الْمَبْثُوثِ﴾ مع الفراش، وذكر ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ مع الصوف، وذكر النار الحامية في آخر السورة»^(١).

و﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي نار حامية، والمجيء بالجملة الاسمية: ليفيد الدلالة على الثبوت وال لزوم.



تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَدْيُ الْتَكَاثُرُ ١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ ﴿كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ ٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ ٤ ﴿كَلَّا لَوْ نَعْمُونَ عَلِمَ الْيَقِينِ ٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧﴾ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨ ﴿

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونها «المغيرة»^(١)، وذكر ابن حجر أن الصحابة يسمونها «المقبرة»^(٢).

وسميت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير وعند الترمذي في جامعه «سورة التكاثر»^(٣)، وسميت في بعض المصاحف والتفاسير وترجم لها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه «سورة ألهاكم»^(٤).

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣٤٥٩/١٠ برقم (١٩٤٥٢).

(٢) فتح الباري ٦٠٠/٨.

(٣) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة التكاثر.

(٤) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة «ألهاكم»، وانظر: التحرير والتنوير ٥١٧/٣٠.

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

١- وهي مكية عند الجمهور، وقيل: إنها مدنية^(١). قال ابن عطية: هي مكية لا أعلم فيها خلافاً^(٢).

٢- قال مقاتل والكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبدمناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو، كان بينهم تفاخر، فتعادَّ السادة والأشراف أيهم أكثر عدداً؟ فقال بنو عبدمناف: نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر عدداً. وقال بنو سهم مثل ذلك. فكثرهم بنو عبدمناف. ثم قالوا: نعد موتانا. حتى زاروا القبور فعدوهم، فقالوا: هذا قبر فلان!! وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً. فأنزل الله هذه الآية^(٣).

قال ابن عاشور: «والذي يظهر من معاني السورة وغلظة وعيدها أنها مكية وأن المخاطب بها فريق من المشركين لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين في ذلك الوقت»^(٤).

وقال السيوطي في الإتقان: «سورة ألهاكم الأشهر أنها مكية، ويدل لكونها مدنية وهو المختار أنها نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور. فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبر - ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٦٨، التحرير والتنوير ٣٠/٥١٧.

(٢) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٦.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٥٣٧)، وذكره البغوي ٨/٥١٥.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٨.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٤٥٩ برقم ١٩٤٥٣. تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٧.

وعن قتادة أنها نزلت في اليهود^(١)، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «كنا نرى هذا من القرآن يعني لو كان لابن آدم واد من ذهب حتى نزلت ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰكَ﴾»^(٢).

وعن علي رضي الله عنه قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰكَ﴾»^(٣) وعذاب القبر لم يذكر إلا بالمدينة كما في الصحيح في قصة اليهودية^(٤) «أ.هـ»^(٥).

أما عدد آياتها: (٨) آيات، وكلماتها: (٢٨) كلمة، وحروفها: (١٢٠) حرفاً^(٦).

مناسبتها لما قبلها:

«الحديث في هذه السورة، متصل بما قبلها من الحديث عن القيامة، وعمّا يذهل الناس عنها، ويشغلهم عن الإعداد لها.. وهو المال والتكاثر منه»^(٧).

ثالثاً: موضوعها:

هذه السورة نذيرٌ يصيح بقومٍ غافلينٍ مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية

(١) قال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضللاً، أخرجه الواحدي في أسباب النزول ١٦١. وهذا إن صح فلا يعارض أنها نزلت بمكة لأن مرادهم بالنزول هنا ما يشمله الحكم.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰكَ﴾ (٣٣٥)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

(٤) الحديث الذي يشير إليه السيوطي هو ما ورد عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت: لها أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال: «نعم عذاب القبر». قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٢)، ومسلم كتاب المساجد باب استحباب التعوذ من عذاب القبر (٥٨٦) مطوياً وبلغظ مختلف.

(٥) الاتقان ١/ ٣٦-٣٧.

(٦) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٨٦.

(٧) المصدر السابق.

وعيونهم مغمضة، وحسهم مسحور، وذلك لانشغال الناس بالدنيا وشهواتها عن طاعة الله تعالى، وتكالبتهم على جمع حطام الحياة حتى ييغتهم الموت ويقطع عليهم متعتهم وينقلهم من القصور إلى القبور.

نذيرٌ يحثهم على التدبير فيما ينجيهم من الجحيم، وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم.

سورةٌ تشغل القلب بهم الآخرة عن سفاسف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون! وتنشئ في القلب محاسبة العبد نفسه على الصغير والزهيد. ففيها توضيح خطر الغفلة، وتبيين أهمية التفكير والتذكر للآخرة، وخصوصاً أول طريق لها وهو القبر.

مع التأكيد على تعدد نعم الله على الإنسان، ومحاسبة النفس على القيام بشكرها.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾: أي: «شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، قال الحسن البصري: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾: في الأموال والأولاد. وقال قتادة: «كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم!! والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم»^(١)، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَكْتُرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾ [سبأ]

قال ابن سعدي: «ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون؛ من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، ولم يقصد به وجه الله تعالى»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٧٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قال ابن كثير: «الصحيح أن المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها»^(١)، فقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعود، فقال: «لا بأس طهور إن شاء الله». فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: «فَنَعَمْ إِذَا»^(٢).

«ودلت الآية على أن البرزخ دارٌ مقصودٌ منها النفوذ إلى الدار الآخرة. وأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين، ليدل ذلك على البعث والجزاء على الأعمال في دار باقية غير فانية»^(٣).

وعن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال: كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ التَّكَاثُرِ﴾^(١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلى منزله^(٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ﴾^(٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ ﴿٣﴾ أي: «ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يُلْهِيكُمْ التكاثر.

وقوله: ﴿سَوْفَ نَعْمُونَ﴾ أي: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألْهَاهُم التكاثر، غبّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ﴾ أي: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يُلْهِيكُمْ التكاثر بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧٣/٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المرضى باب ما يقال للمريض وما يجيب (٥٦٦٢)

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٣٤٥٩/١٠ برقم (١٩٤٥٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧٤/٨.

مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر. وكرّر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ نَعْمُونَ﴾ مرتين، لأن العرب إذا أرادت التخليط في التخويف والتهديد كرّروا الكلمة مرتين^(١).

وقال الفراء: «وتكراره على وجه التأكيد والتخليط»^(٢).

وقال الصابوني: «وهذا التكرار في الزجر والوعيد لبيان خطأ الناس في اشتغالهم بالفانية عن الباقية، ونسيانهم لما أمامهم من المخاطر والأهوال، التي لا يجوزها ولا ينجوا منها إلا من قدم صالح الأعمال»^(٣).

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ نَعْمُونَ عَلِمَ الْيَقِينُ﴾ أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر^(٤).

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: لترون أيها المشركون جهنم يوم القيامة، ثم لترونها عياناً لا تغيبون عنها^(٥).

والفرق بين الرؤيتين:

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن قوله تعالى حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين فما معنى كل مقام منها وأي مقام أعلى؟

فأجاب: «للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة: منها أن يقال علم اليقين ما علمه بالسمع والخبر والقياس والنظر، وعين اليقين ما شاهده وعينه بالبصر وحق اليقين ما باشره ووجدته وذاقه وعرفه.

(١) جامع البيان ٢٤/٦٠٠١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٧٠.

(٣) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١١.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٧٤.

(٥) جامع البيان ٢٤/٦٠٠٢.

فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلا وصدق المخبر أو رأى آثار العسل فإستدل على وجوده، والثاني مثل من رأى العسل وشاهده وعينه وهذا أعلى. والثالث مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله»^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنْسَأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٨) أي: «ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته»^(٢).

﴿النعيم﴾: «الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به، على معاصيه، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل. أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبَتْهُمُ طَبِيبَتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف]»^(٣).

* * *

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٦٤٥-٦٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٧٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

المبحث الثاني

وقفات مع السورة

المطلب الأول: التحذير من الغفلة والانهماك في الدنيا:

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «أَلَهَّنَاكَ التَّكَاثُرُ؟» يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟!^(١). وفي زيادة لمسلم: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: طول الحياة وحب المال»^(٣).

رأى الأحنف بن قيس رضي الله عنه في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقتة في أجر أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أَنْتَ لِمَالٍ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ^(٤)

وهذا يدل على أن الغفلة والتكاثر بكل أنواعه وأشكاله؛ داء عضال لا يعالجه إلا الإيمان بالله وتذكره في كل حين، وعند كل نعمة. التذكر الذي يجلب الطمع في نعيمه وجزاءه الأوفى يوم القيامة.

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفائق باب (٣) برقم (٢٩٥٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفائق باب (٤) برقم (٢٩٥٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٤٢١) ومسلم كتاب

الزكاة باب كراهية الحرص على الدنيا (١٠٤٧).

(٤) تاريخ دمشق ٢٤/٣٤٣.

أما التكاثر فيجلب الطمع في الدنيا والغفلة عن الدار الآخرة، والإنسان لن يكون معه في قبره إلا عمله كما قال ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»^(١).

فلن ينفع الإنسان عند زيارته للمقابر ينتظر يوم القيامة - في قبره - إلا عمله الصالح الذي ينور له قبره. أما الأولاد والمال فسيتخلون عنه في القبر ويوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا كُنَّا أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا كُنَّا بِمُعَدِّينَ﴾^(٢) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٣) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا قُلْ لِيَكْ لَكُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ ءَامِنُونَ^(٤) [سبأ].

والنبي ﷺ يحذر من الغفلة عن الآخرة، والاستكثار من المال والدنيا على حساب الآخرة وأنها سبب للبغضاء والهلاك في الدنيا والآخرة، فقال ﷺ: «.. فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(٥).

المطلب الثاني: تذكر الآخرة وأول دار فيها:

المسألة الأولى: أهمية زيارة المقابر:

قال النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»^(٦)، وفي رواية: «فإنها تذكر الموت»^(٧)، وفي رواية: «فإن

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب سكرات الموت (٦٥١٤)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب (٥) برقم (٢٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٥١٤)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب (٦) برقم (٢٩٦١).

(٣) جامع الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور (١٠٥٤) وصححه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي. مسند أحمد ٥ / ٣٥٥ ح (٢٣٠٥٥) قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوي رجاله ثقات رجال الشيخين غير عطاء الخراساني وهو ابن مسلم فقد أخرج له مسلم متابعة.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب استئذان النبي ربه في زيارة قبر أمه (٩٧٧).

فيها عبرة»^(١) وفي رواية: «فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجرا»^(٢).

قال القرطبي: «زيارة المقابر من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على: قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها. فينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه:

أولاً: أن يكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وموتم البنين والبنات.

وثانياً: أن يواظب على مشاهدة المحتضرين.

وثالثاً: زيارة قبور أموات المسلمين.

فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت فذاك، وإن استحكمت فيه دواعي الذنب فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور أموات المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأنه معاينة ومشاهدة فلذلك كان أبلغ من الأول»^(٣). فالأول من علم اليقين، والثاني من عين اليقين.

وهناك أمر آخر يبرز أهمية زيارة القبور وهو ما ينتفع به الميت من السلام عليه، والدعاء والاستغفار له، -وهو خاص بالمسلم- فقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا مر أو دخل مقبرة: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإن شاء

(١) مسند أحمد ٣/٣٨ (١١٣٤٧)، وأخرجه: الحاكم ١/٥٣٠ (١٣٨٦)، قال الهيثمي عن رواية أحمد

(٢/٥٨) رجاله رجال الصحيح، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٢٣٧ (١٣٥١٢) قال شعيب الأرنؤوط: صحيح بطرقه وشواهد، وقال الألباني في

صحيح الترغيب والترهيب حسن صحيح (٣٥٤٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٧٠-١٧١.

الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»^(١). وقد اتفقت المذاهب الأربعة على مشروعيتهما، بل نقل النووي عن الطيبي الإجماع على استحباب زيارتها.

المسألة الثانية: حكم زيارة القبور للنساء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ «لعن زوارات القبور»^(٢).

قال الترمذي: «وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخص دخل في الرخصة الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلّة صبرهن وكثرة جزعهن»^(٣).

قال القرطبي: «زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء: أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: «زوروا القبور» عامًا. وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز. فبينما الرجل يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتتن؛ وبالعكس فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. والله أعلم»^(٤).

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب، لهذا الحديث.

(١) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٥).

(٢) الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء (١٠٥٦)، وابن ماجه كتاب الجنائز باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء للقبور (١٥٧٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٢٧٩).

(٣) جامع الترمذي في كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء عند حديث (١٠٥٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٧٠-١٧١.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطية: «نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا»^(١).

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور، لحديث المرأة: التي مر النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري». فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبتني. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ. فجاءت إليه تعتذر، فيم يقبل عذرها، وقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٢)، فالنبي ﷺ شاهدا عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

ولما ثبت من حديث عائشة ﷺ الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لها ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مخفياً عن عائشة، وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر، فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...»^(٣) الخ.

قالوا: فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ورأيت قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال، لقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة»^(٤)، وهذا عام للرجال والنساء.

(١) البخاري: كتاب الجنائز باب اتباع النساء للجنائز (١٢١٩)، ومسلم: كتاب الجنائز باب نهي النساء عن اتباع الجنائز (٩٣٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب زيارة القبور (١٢٨٣). ومسلم كتاب الجنائز باب في الصبر على المعصية عند الصدمة الأولى (٩٢٦).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٤).

(٤) سبق تخريجه.

ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبدالله بن أبي مليكة، أليس النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك ^(١). وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، وقد أجاب عنها أهل العلم بالتفصيل ^(٢).

قال الشيخ محمد الشنقيطي: «والناظر في القولين وأدلتهم يرى أن من قال بالتحريم له وجهٌ بالترجيح من جهة الأصول، والقائل بالجواز له وجهٌ وقوة من جهة الأدلة. أما الذين قالوا بالتحريم؛ فإن القاعدة في الأصول: إذا تعارض حاطر ومبيح، يقدم الحاطر على المبيح. ولذلك يقوى قول من قال بالتحريم على قول من قال بالجواز من جهة وجود هذا الأصل؛ لأنه لو قلنا للمرأة الآن: لا تزوري المقابر. فإنه في هذه الحالة يفوتها فضل الزيارة الذي يمكن أن تعوضه بالدعاء والاستغفار للميت والترحم عليه؛ لكننا لو قلنا لها: زوري المقابر. فإننا لا نأمن أن تكون قد أصابت المحذور، أو على الأقل شيئاً مكروهاً؛ ولذلك يكون تغليب باب الحظر من هذا الوجه أقوى وأولى.

ثم إذا نظرنا إلى واقع الناس وحالهم اليوم، وعدم انضباط كثير من النساء بالحدود والضوابط الشرعية؛ فإنه يقوى قول من قال بالحظر. واتفق العلماء على أنه لا تجوز زيارة المقابر إذا كانت المرأة ضعيفة أو لا تتمالك نفسها أو غلب على الظن أنها تفعل المحذور عند القبر، وإذا كانت شابةً فاتنةً وذهبت إلى القبر فتنت غيرها أو فتنت نفسها أو جمعت بين الفتنتين فلا تجوز بالإجماع، فليست هذه مسألة خلافية، إنما الخلاف يكون في امرأة عاقلة حكيمة الغالب على الظن أنها تضبط نفسها، وتريد

(١) أخرجه الحاكم ١/ ٥٣٢ (١٣٩٢)، والبيهقي في السنن ٤/ ٧٨ (٦٩٩٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٣/ ٢٣٤.

(٢) انظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢٤/ ٣٤٣. وابن عثيمين في القول المفيد شرح كتاب التوحيد. وكلام الإمام ابن جبرين في شرح عمدة الأحكام. وغيرها من كتب أهل العلم.

أن تتعظ؛ فهذا هو الذي يجيزه جمهور العلماء لها من الزيارة، لأن النبي ﷺ لما مر على المرأة وهي تبكي عند القبر لم يقل لها: لعن الله زائرات القبور، ولم يحظر عليها ذلك، قالوا: فقد أقرها ﷺ؛ لكن الناظر في حال الناس اليوم قد يجد أغلب النساء -إلا من رحم الله- أنهن لا يطقن الزيارة، مع أنه بإمكانهن أن يعوضن هذا الأمر المشتبه فيه إلى أمر لا شبهة فيه بالدعاء والاستغفار للموتى^(١).

تنبيه: «ولا شك أن المرأة إذا مرت بالمقبرة غير قاصدة للزيارة فسلمت على أهل القبور فإن ذلك جائز، ولا يدخل في النهي، وعلى هذا فيحمل حديث عائشة ؓ المذكور على من مرت بالمقبرة، ويبقى النهي محكمًا لا معارض له»^(٢).

ولا يجوز لهن الإكثار من زيارة القبور والتردد عليها - حتى عند من أجازه - لأن ذلك قد يفضي بهن إلى مخالفة الشريعة، من مثل الصياح والتبرج واتخاذ القبور مجالس للنزهة، وتضييع الوقت في الكلام الفارغ، كما هو مشاهد اليوم في بعض البلاد الإسلامية^(٣).

المسألة الثالثة: آداب زيارة القبور:

ينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها:

- ١- يحضر قلبه في إتيانها ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداد فقط، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه أو نفع الميت بالدعاء.
- ٢- ذكر دعاء دخول المقابر، وقد تقدم.
- ٣- أن لا يقول عند المقابر ما يغضب الرب ﷻ، كدعاء المقبور أو طلب

(١) مذكرة شرح الزاد - مواد صوتية مفرغة.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٧/٣٢٦.

(٣) هذا الكلام منقول عن الشيخ الألباني من كتاب أحكام الجنائز ص ٧٨-٨١ باختصار وتصرف.

الشفاعة منه والاستغاثة به من دون الله تعالى، أو تركيته والقطع له بالجنة، ونحو ذلك.

٤- لا يستقبل القبور حين الدعاء لها، بل الكعبة، لأن الدعاء صلاة.

٥- ويتجنب المشي على المقابر والجلوس عليها، ولا يمشي بين قبور المسلمين في نعليه، فعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أمشي على جمرة أو سيف، أو أخصف نعلي برجلي؛ أحب إلي من أن أمشي على قبر مسلم، وما أبالي أوسط القبور قضيت حاجتي أو وسط السوق»^(١).

وقد ذكرها القرطبي وأتبعها بقوله: «ثم يعتبر بمن صار تحت التراب وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه». فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه ودرج من أقرانه، الذي بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم!! ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاءهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتيم أولادهم، واقتسم غيرهم أموالهم. وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتة الأسباب وركونهم إلى الصحة والشباب.

وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم. وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه؛ وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله، وقد سألت عيناه!! ويصول ببلاغه نطقه، وقد أكل الدود لسانه!! ويضحك لمواتة دهره، وقد أبلت التراب أسنانه!! وليتحقق أن حاله كحالهم ومآله كمآله، وعند هذا التذكر

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الجنائز باب ما جاء في النهي عن المشي على القبور والجلوس عليها (١٥٦٧) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٢٧٣).

والاعتبار، تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخضع جوارحه»^(١).

المطلب الثالث: تعدد نعم الله على الإنسان:

أولاً: من المسؤول يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٢):

قال الماوردي: «وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وسؤال الكافر تقرير أن قابل نعم الدنيا بالكفر والمعصية. ويحتمل أن يكون ذلك تذكيراً بما أوتوه، ليكون جزاء على ما قدموه»^(٣).

«وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة إنما يكون في حق الكفار»^(٤).

«والجمع بين الأخبار: أن الكل يُسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة»^(٤).

ثانياً: تذكّر النبي ﷺ نعم الله تعالى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما هاهنا؟» قالوا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره». فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من شيء

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٧١-١٧٠.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٧٧.

(٤) تفسير جزء النبأ ابن عثيمين ٣٠٥-٣٠٦ مختصراً.

زارني اليوم. فعلق قربته بكرب نخلة وانطلق فجاءهم بعدق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتيت؟» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «إياك والحلوب؟» فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبي ﷺ: «لتسألن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم»^(١) فرضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

٦ ثالثاً: النعيم الذي نسأل عنه يوم القيامة:

«قال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا - قال ابن كثير-: قول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال»^(٢).

قال أبو جعفر الطبري: «والصواب: أن يقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عم بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض»^(٣).

ونسوق بعض أقوال العلماء تذكيراً بنعم الله تعالى التي سنسأل عنها:

١- ملاذ المأكول والمشروب: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً، وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه»^(٤). وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي^(٥).

(١) أخرجه مسلم كتاب الأشربة باب جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك... (٢٠٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧٨/٨.

(٣) جامع البيان ٦١١/٢٤.

(٤) أخرجه أحمد ٣/٣٣٨ (١٤٦٧٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) انظر: هذه الأقوال في تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧٨/٨.

٢- الصحة والأمن: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه -يعني يوم القيامة- العبد من النعيم أن يقال له: ألم أصح لك جسمك، وأزوك من الماء البارد؟»^(١).

روى علي بن أبي طلحة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ثُمَّ لَتَسْتَعْلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيم استعملوها؟ وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء] ^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَعْلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: «الأمن والصحة»^(٣).

٣- طيب النفس: قال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم»^(٤).

٤- الوقت: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^(٥).

(١) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة ألهاكم التكاثر برقم (٣٣٥٨)، وصحيح ابن حبان (٧٣٢٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٧٤).

(٢) جامع البيان ٦٠٢/٣٠، وأخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد (١٥٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن المنذر ٦/٣٨٨.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ١/٣٩٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/٣٤٦٠ (١٩٤٦١). والثعلبي بسنده ٢٧٩/١٠ وزاد السيوطي نسبه لابن مردويه في الدر المنثور ٨/٦١٢ (٢٩٣١٨)، وروي موقوفاً أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٤/٥٨٢، وهناد في الزهد ٢/٣٦٤ (٦٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦١٥).

(٤) أخرجه أحمد ٥/٣٧٢ (٢٣٢٠٦)، وابن ماجه كتاب التجارات باب الحث على المكاسب (٢١٤١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٤١).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (٦٤١٢).

قال ابن كثير: «ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون»^(١).

٥- العمر والمال والعلم: فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفق؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟»^(٢).

٦- نعمة إرسال النبي ﷺ: قال محمد بن كعب رضي الله عنه: النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبُرِّكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران] ^(٣).

٧- نعمة الاصطفاء لتكون من أمة محمد ﷺ وتخفيف الشرائع وتيسير القرآن: قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ [القمر].

◉ فهذه الأمور من نعم الله تعالى، ونعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا تَنكُرُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧٨ / ٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧٨ / ٢٠.

(٣) جامع الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤١٧)، وصححه الألباني في السلسلة

الصحيحة (٩٤٦).

الْإِنْسَانَ لظَلُومًا كَفَّارًا ﴿٣٤﴾ [إبراهيم] وقال تعالى: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

المطلب الرابع: كيف نقوم بواجب نعم الله علينا:

لا سبيل إلى القيام بواجب نعم الله تعالى إلا بشكرها، ولا شك أن شكر الله تعالى على نعمه العظيمة التي لا تحصى ولا تعد واجب على العباد، وتتضح تلك الأهمية في: - أن الأمر به والحث عليه أمر ظاهر في نصوص القرآن الكريم فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿وَلِيْتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة].

﴿وأخبر أن الشاكر لله هو العابد له سبحانه فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة]

﴿وبين سبحانه جزاء الشاكرين وعقاب الكافرين، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم].

﴿وقال تعالى منبهاً أن الله لا يعذب عباده إذا شكروه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٦٧﴾﴾ [النساء].

﴿وقد قسم الله تعالى الناس إلى كفور وشكور، وبين مصير هؤلاء وهؤلاء، فقال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر]

﴿وقد مدح الله الشاكرين وجعل جزاءهم إليه قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام].

﴿وبين الله تعالى أن المستفيدين من آياته هم أهل الشكر قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ

نُصِرْفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ [الأعراف]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم].

﴿ ودم وتوعد المتخلفين عن وعدهم له بالشكر فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَحَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجِئْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَامَّا أَنْجَلُهُمْ إِذَا هُمْ يَجْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نَمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنَبَيِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس].

﴿ وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فيقال له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول رسول الله ﷺ: «أفلا أكون عبدا شكورا»^(١).

﴿ و«أخبر الله سبحانه أن عدو الله إبليس جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عن الشكر، وذلك لما عرف عظم قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آعُوبْتَنِي لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف]^(٢). «أي: لا تجد أكثرهم عابدين، ولا تجد أكثرهم متبعين لما أنزل الله.

فليس الشكر كلمة تقال باللسان، كما أن الإيمان بالله ليس كلمة تقال، فهي كلمة تحتاج إلى عمل، كما أن الإيمان يحتاج إلى عمل؛ ومن هنا نفهم خطورة التهديد الشيطاني لبني آدم^(٣)، ولذلك فإن الذين يشكرون الله تعالى قليل، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [سبأ].

(١) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل حتى تتورم قدماه (١١٣٠)، ومسلم، كتاب الجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٢) فقه الأديمة والأذكار ١/ ٢٧٢.

(٣) دراسات قرآنية ١٩٨ بتصرف.

﴿ حقيقة الشكر ﴾

«الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة»^(١)، وقيل: «ألاً ترى معه شريكا في نِعَمِهِ، وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر»^(٢).

قال ابن القيم: «وبهذا يتبين أن الشكر مبني على خمس قواعد:

الأولى: خضوع الشاكر للمشكور.

الثانية: حبه له.

الثالثة: اعترافه بنعمته.

الرابعة: ثنائه عليه بها.

الخامسة: أن لا يستعملها فيما يكره»^(٣).

وَمَحَلُّ الشُّكْرِ: «يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً ومحبةً، وباللسان ثناءً واعتزافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً»^(٤).

﴿ ثمار الشكر ﴾

إن الشكر عبادة لا نهاية لها، وثمارها يانعة في العاجل والآجل، علمية وعملية ولعل أهم تلك الثمار نوجزه في ثلاث نقاط:

١- أن الله يعطي الشاكر المزيد ويبارك له، ويقيه من العذاب الشديد كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم]. وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران].

(١) فقه الأدعية والأذكار ١/ ٢٧٥.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي ٤/ ١٣٠.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٤ مختصراً.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٦.

٢- بالشكر يتحقق رضا الله تعالى، وتؤمن عقوبته بذلك، قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى عن قوم سبأ حينما أعرضوا عن شكر الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْآكْفُورُ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

٣- ومن ثمار الشكر: السرور والطمأنينة والرضا: قال النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).



(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفائق باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

«سميت في كثير من المصاحف وفي معظم كتب التفسير بسورة «العصر»، وسميت في بعض التفاسير وفي صحيح البخاري^(١) «سورة والعصر» بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها»^(٢).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي مكية في قول جمهور المفسرين^(٣)، وهي أول ثلاث سور - مع الكوثر والنصر - هنَّ أقصر السور في عدد آياتهن.

أما عدد آياتها (٣) آيات، وكلماتها: (١٤) كلمة، وحروفها: (٦٨) حرفاً^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة والعصر.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٧ بتصرف.

(٣) ورد ذلك عن ابن عباس، انظر: الدر المنثور ٦/٣٩٠.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٧.

مناسبتها لما قبلها:

«الإنسان الذي ألهاه التكاثر بالأموال، والتفاخر بالجاه والسلطان، دون أن يتزود للأخرة بزيادة الإيمان والتقوى، هو هذا الإنسان الخاسر.. وأي خسران أكثر من أنه اشترى الدنيا بالأخرة؟ وهذا ما جاءت سورة العصر لتقرره»^(١).

ثالثاً: موضوعها:

هذه السورة تمثل منهجاً كاملاً للحياة البشرية كما أرادها الله تعالى، وتبرز معالم الإيمان بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة، وتصف الأمة المسلمة في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة، وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله.

والحقيقة العظمى التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي: أنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار والدهور ليس له إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج، وهو المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وتصف معالمه، وأن كل ما وراء ذلك ضياعٌ وخسارة. إنه الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

رابعاً: فضلها وأهميتها:

يبرز فضل وأهمية سورة العصر في أمرين:

⊞ الأمر الأول: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتخذونها شعاراً لهم في ملتقاهم:

فعن عبدالله بن حصن رضي الله عنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم أحدهما على الآخر»^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) المعجم الأوسط (٥٠٩٧)، والبيهقي في الشعب ٥٠١/٦ (٩٠٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزائد ١٢٢/١١ (١٧٧٢٣)، رجاله رجال الصحيحين وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٤٨).

قال ابن كثير: «وهذا الصنيع من أصحاب رسول الله ﷺ يدل على عظم شأن هذه السورة، وما تحمله من وصايا عظيمة يتعاهدون عليها، من الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر»^(١).

◉ الأمر الثاني: شمولها لجميع أسس الحياة:

قال الشافعي: «لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس، وقال غيره: لأنها شملت جميع علوم القرآن»^(٢)، وقال وفي رواية: «لو تدبر الناس هذه السورة، لو سعتهم»^(٣)، وفي رواية: «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم»^(٤). وفي رواية: «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم»^(٥). وفي رواية «الناس في غفلة عن هذه السورة: والعصر....»^(٦).

وذلك «لعظم شأنها مع غاية اختصارها، لو فكر الناس فيها لكفتهم؛ لجمعها للخير بحذافيره، فإنها دلت على العلم والعمل، والدعوة إلى الحق والصبر على الأذى فيه، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني. فهي حقيقة بأن يقال فيها ما قاله هذا الإمام الجليل»^(٧).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وبيان كلام الشافعي هو: أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

- (١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٧٩.
- (٢) روح المعاني ٣٠ / ٢٢٧.
- (٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٢٠٣ و ٨ / ٤٧٩.
- (٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٨ / ١٥٢، وإغاثة اللهفان ١ / ٢٥، ومسألة السماع ص ٤٠٤، مفتاح دار السعادة ١ / ٥٨.
- (٥) ثلاثة الأصول ص ١٨٥، وحاشية الثلاثة الأصول ص ٧.
- (٦) تهذيب الأسماء للنووي ص ٦٣، ورياض الصالحين ص ٢٢٠.
- (٧) حاشية الثلاثة أصول ص ٧.

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه شافيا من كل داء هاديًا إلى كل خير^(١).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمته الله: «اعلم رحمك الله، أنه يجب علينا تعلم

أربع مسائل:

الأولى: العلم، وهو: معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العمل به.

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

والدليل قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَالْعَصْرِ ﴿٢﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٣﴾
إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾^(٢).

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

أقسم الله بالدهر على أن بني آدم لفي هلكة ونقصان. إلا الذين آمنوا بالله وعملوا عملاً صالحاً، وأوصى بعضهم بعضاً بالاستمسك بالحق، والعمل بطاعة الله، والصبر على ذلك^(٣).

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٥٨ - ٥٩.

(٢) هذا نص كلام الإمام رحمته الله، وانظر: حاشية الثلاثة أصول ص ٧.

(٣) التفسير الميسر ص ٦٠١.

المبحث الثاني

وقفات مع المقسم به والمقسم عليه

المطلب الأول: وقفات مع المقسم به:

المقسم به: ﴿وَالْعَصْرِ﴾:

افتتح الله تعالى هذه السورة بالمقسم بمخلوق من مخلوقاته وهو العصر، وفائدة هذا القسم: تأكيد الخبر كما هو شأن أقسام القرآن، والمقسم به من المظاهر الدالة على عظيم قدرته وسعة علمه^(١).

فما معنى العصر هنا؟

«أيا ما كان المراد من معنى العصر هنا؛ فإن القسم به باعتبار أنه زمن يُذكَرُ بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة، وعلى هذا فأشهر إطلاق لفظ العصر:

١- أنه عِلْمٌ لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين إصفرار الشمس:

فذلك وقت يُؤذِنُ بقرب انتهاء النهار، ويُذَكِّرُ بخلق الشمس والأرض ونظام حركة الأرض والشمس وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم. وهو من هذا الوجه كالمقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر.

وخصّ لأن ذلك الوقت يتهيأ الناس فيه للانقطاع عن أعمالهم في النهار، كالقيام على حقولهم وجناتهم وتجاراتهم في أسواقهم، فيُذَكِّرُ بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب عن عمل ونظام لا بدائه وانقطاعه.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٨.

وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم، وهو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

٢- ويطلق العصر على الصلاة الموقوتة بوقت العصر:

وهي صلاة معظمة. قيل: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ﴾ [البقرة].

وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»^(١). «وذلك لأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم وتحاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعاشهم»^(٢).

٣- ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس، أو ملك، أو نبي، أو دين، ويعين بالإضافة فيقال: عصر إبراهيم، وعصر الجاهلية.. فيجوز أن يكون مراداً هذا الإطلاق هنا، ويكون المعني به عصر النبي ﷺ^(٣).

«فهو تعالى أقسم بزمانه ﷺ في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ حِلَّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد]، وبعمره في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر]»^(٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب إثم من فاتته صلاة العصر (٥٥٢)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب التغليظ في تفويت العصر (٦٢٦).

(٢) البحر المحيط ٨/٥٠٧.

(٣) التحرير والتنوير مختصراً ٣٠/٥٢٨-٥٣٠.

(٤) التفسير الكبير ٣٢/٨٦.

٤- «ويجوز أن يراد عصر الإسلام كله، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم:

ومناسبة القسم بالعصر لغرض السورة ظاهرة، فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام: بين من كفر به، ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويعرف منه حال من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت. أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع؛ متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام بنسخه مثل اليهودية والنصرانية.

٥- ويجوز أن يفسر العصر في هذه الآية بالزمان كله»^(١).

قال ابن جرير: «الصواب أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر، وهو: اسم للدهر، وهو: العشي والليل والنهار، ولم يخص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكل ما لزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به»^(٢).

قال ابن كثير: «العصر هو الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير أو شر»^(٣).

﴿فالعصر هو: الزمان. وهذا هو الأصح، أقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر ومتحدث عنه في الغائب﴾^(٤).

(١) التحرير والتنوير مختصراً ٣٠١/٥٢٨-٥٣٠.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٨٠.

(٤) تفسير جزء عم لابن عثيمين ٣٠٧.

﴿فلو ضيعت ألف سنة ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآبدين، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في اللمحة الأخيرة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَدْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان] (١).

المطلب الثاني: وقفات مع المقسم عليه:

﴿الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾:

﴿الْإِنْسَانَ﴾: «الإنسان هنا عام، لأن المراد به الجنس، وعلامة الإنسان الذي يراد به العموم أن يحل محل (أل) كلمة (كل)، فهنا لو قيل: كل إنسان في خسر لكان هذا هو معنى الآية» (٢).

﴿لِفِي خُسْرٍ﴾: الخسران: «مصدر، وهو ضد الربح في التجارة، وهو هنا لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه عاقبة حسنة» (٣)، وعلى هذا فالخسران المقصود في الآية هو: «ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله» (٤).

والظرفية في قوله: ﴿لِفِي خُسْرٍ﴾ «بيان ملازمة الخسر بإحاطة الظروف بالمظروف فكانت أبلغ من أن يقال إن الإنسان لخاسر» (٥).

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ٨٤.

(٢) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٣١ باختصار.

(٤) معالم التنزيل ٨ / ٥٢٢.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٣١ باختصار.

قال شيخ الإسلام: «إن الله أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً، ومع غيره موصياً بالحق، موصياً بالصبر»^(١).

«والخسارة مراتب متعددة متفاوتة:

- ١- قد يكون خسارة مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.
- ٢- وقد يكون خسارة من بعض الوجوه دون بعض»^(٢)، فإن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد من الخير والإحسان.

قال القرطبي: «إن الإنسان إذا عمّر في الدنيا وهرم لفي نقصٍ وضعفٍ وتراجعٍ، إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم»^(٣).



(١) الاستقامة ٢/ ٢٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٨٠.

المبحث الثالث

صفات الناجين عن الخسران

﴿ بعد أن أقسم الله تعالى بالعصر على أن كل فرد من أفراد الناس في خسارة، استثنى الله تعالى بعض الناس الذين لهم صفات معينة تقيهم من هذا الخسران، وهذه الصفات كما يأتي:﴾

﴿المطلب الأول: الإيمان بالله تعالى﴾

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: وستعرض لهذه الصفة من عدة محاور:

﴿المحور الأول: الإيمان وحقيقته﴾

لغة: مأخوذ من الأمن وهو طمأنينة النفس، وهو التصديق. قال أخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف]. أي وما أنت بمصدق لنا. إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن^(١) أي: طمأنينة. وقيل الإيمان هو: الثقة وإظهار الخضوع^(٢).

واصطلاحًا: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان^(٣).

ويشمل الإيمان بالأركان المذكورة في حديث جبريل ﷺ المشهور، عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. قال: صدقت.....»^(٤).

(١) المفردات في غريب القرآن ٢١ مادة (أمن).

(٢) القاموس المحيط ١٥١٨.

(٣) كتاب الإيمان لشيوخ الإسلام ص ٢٤٩.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان(٨). وللفائدة راجع شرح ابن رجب =

ويشمل الإيمان كذلك سائر شعب الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(١).

فالإيمان وصفٌ يشمل أعمالاً ظاهرة وباطنة، وهو درجة أعلى من الإسلام، فتدخل أعمال الإسلام فيه. مع التنبيه إلى أنه: «لا يكون الإيمان بدون العلم - بما أمر الله به من الإيمان-، فهو فرع عنه لا يتم إلا به»^(٢)، وعند انتفاء العلم بكيفية العبادات التي تزيد وتقرب إلى الله يحصل الخلل في الإيمان، بل قد يصل الأمر إلى الخروج من الإسلام كمن يعبد أو يصلي لقبر زعمًا أو اعتقاداً منه أنه يعبد الله تعالى بعبادته صاحب ذلك القبر.

المحور الثاني: مراتب الإيمان:

وعلى هذا فإن الإيمان بالله مراتب يرتقي فيها العبد:

«المرتبة الأولى: الإيمان المانع من الخلود في النار، ويسمى: [أصل الإيمان أو مطلق الإيمان].»

وحقيقته: التزام العبودية لله تعالى وحده، وإفراده بالطاعة والانقياد - وإن أخل بالواجبات، وقارف السيئات - مادام مجتنبًا للمكفرات.

المرتبة الثانية: الإيمان المانع من دخول النار، ويسمى: [الإيمان الواجب أو الإيمان المطلق].»

= له في جامع العلوم والحكم الحديث الثاني، وشرح النووي على صحيح مسلم، وشرح الأربعين النووية للشيخ ابن عثيمين.

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب شعب الإيمان (٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

وحقيقته: يتضمن مطلق الإيمان وزيادة فعل جميع الواجبات وترك المحرمات، وهذا كماله الواجب.

المرتبة الثالثة: وهي أعلى المراتب: الإيمان المرقّي لصاحبه في درج الجنان، ويسمى: [الإيمان المستحب، أو الإيمان الكامل].

وحقيقته: تحقيق الإيمان المطلق مع الازدياد من فعل المستحبات وتمام اجتناب المكروهات.

◉ ودليل هذه المراتب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣١﴾ [فاطر] (١).

يقول الشيخ السعدي رحمته الله: «ولما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيم على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي، التي هي دون الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو: المؤدي للفرائض، المكثّر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان؛ وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بوراثته الكتاب: وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه» (٢).

(١) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة ٢٤ - ٢٧ باختصار.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٦٨٩.

المحور الثالث: أثر الإيمان في عدم الخسران:

إن الإيمان هو:

- ١- أصل الحياة الكبير، الذي يتفرع منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف.
- ٢- وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة، وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء، ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات.
- ٣- وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون، وتنسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم.
- ٤- إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله.

﴿فكل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يرجع إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج، ولا يستند إلى هذا الدليل فهو هدرٌ. والأدلة صريحةٌ في هذا الأمر، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور]، وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بالله ﷻ، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات]. وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة تردُّ الأمور كلها إلى الله. فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه.

المحور الرابع: علاقة الإيمان بصفة الإنسانية:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي حُسْرٍ ١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ما يدل على أن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة ويبرز ذلك من خلال الآتي:

١- التحرر الحقيقي للإنسان من العبودية:

فالتعبد لإله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد؛ فلا يذل لأحد، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار، قال تعالى: ﴿يَصْحَبِي السَّجَنُ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ٣١﴾ [يوسف].

٢- الربانية هي مصدر التلقي:

فهي التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان عقيدته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه، فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة، وتحل محلها الشريعة والعدالة. وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه، وتمده بالاستعلاء على تصورات العقائد المختلفة وقيمتها واعتباراتها، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢١﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ١٧٣﴾ [الأنعام].

٣- وضوح الصلة بين الخالق والمخلوق من غير واسطة:

فبيان الإيمان لمقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتها الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا واسطة في الطريق. ويودع القلب نوراً، والروح طمأنينة، والنفس أنساً وثقة. وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير

الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء! قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

٤- الاستقامة على المنهج الذي يريده الله هو الطريق لعزة الإنسان:

فلا يكون الخير فلتة عارضة، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة. إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة. وتتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين. قال تعالى بعد ذكره لعدد من الأنبياء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥- الاعتقاد بكرامة الإنسان على الله:

وهذا الأمر يرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويشير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها. وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه، أنه كريم عند الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه، ويرده إلى منبت حقير، ويفصل بينه وبين الملاء الأعلى، هو تصور أو مذهب يدعو إلى التدني ولو لم يقل له ذلك صراحة! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٦- الحاسة الأخلاقية:

فهي ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حلیم، يكره الشر ويحب الخير، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

المطلب الثاني: عمل الصالحات:

قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾:

نعرض لهذه الصفة من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: ربط الفوز بالإيمان والعمل الصالح:

هذا الربط بين الإيمان والعمل الصالح له شواهد كثيرة جداً في القرآن تربو على خمسين موضعاً وستقتصر على بعضها لبيان أهمية هذا الربط:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ [يونس].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي الْقُرْآنِ﴾ [الرعد].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف].

ف نجد أن الله ﷻ في هذه الآيات وغيرها ربط البشرى لمن أتبع العمل الصالح بالإيمان، وتلك البشرى مما يسعى له العبد ويتحقق له به النجاح والفوز الكبير؛ لأنه دخول الجنان، ونيل رضی الرحمن، والتنعم بما لذ وطاب مما تشتهي النفس وتلذ الأعين، ويصفو به خاطر، ويأمن به الناجي على مستقبله، فهو خالد، ونعيمه

مخلد له، بل ومتجدد، مع تمام اللذة بالأزواج الطاهرات المطهرات، وكمال المسرات بالخدم والأنهار، وجمع ما يخطر على قلب بشر من الملمات، بل وما لا يخطر على قلب بشر.

وذلك كله بسبب إيمانهم، وجزاء عملهم الصالح؛ الذي كان موصلاً لرحمة الله وعفوه ومغفرته، ولهذا جاء وعداً من الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات فكان وعداً مستقبلياً، ووعداً ناجزاً في الحياة الدنيا بالنصرة والتوفيق والسعادة والزيادة من العمل الصالح، لتكون درجاتهم أرفع ومقاماتهم أسمى.

﴿المحور الثاني: أهمية العمل لتحقيق الإيمان﴾

إنَّ العمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان، والتي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في القلب حتى تسعى إلى تحقيق دلالتها في صورة عمل صالح. فالإيمان الصحيح لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في أعمالٍ وأقوالٍ حيةٍ خارج قلب المؤمن. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو إيمانٌ مزيفٌ أو قلبٌ ميتٌ، فشأن قلب المؤمن شأن الزهرة لا تمسك أريجها؛ بل ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً، وإلا فهو غير موجود!

فالإيمان عملٌ وبناءٌ وتعميرٌ بالصلاح، يُتجه به إلى الله. وليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير. ولا مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في الجوارح، وهذا هو الإسلام الذي يجعل من المكلف قوة بناء فضلى في الحياة.

﴿المحور الثالث: الربط بين العمل وصلاح العمل﴾

من الملاحظ أن الله تعالى وصف العمل الذي يقي من الخسران بقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أن العمل منه أعمال غير صالحة وأعمال صالحة، وهذه تبني على الصفة التي قبلها فإذا كانت حقيقة الإيمان واضحة في قلب الإنسان فستكون أعماله موافقة لذلك الإيمان، أما إذا كان في الإيمان خللٌ في التصور أو في الحقيقة فإن العمل

سيكون غير صالح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].
وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [المالك: ٢].

ولذلك لا يكون العمل صالحاً بقي من الخسران إلا بشرطين وهما:

◉ الشرط الأول: الإخلاص لله تعالى في العمل:

وهو أن يكون العمل لله تعالى وحده، لا يريد به الإنسان رياءً ولا سمعةً ولا منصباً، ولا أي أمر من أمور الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

قال سفیان الثوري: «ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي»^(٢).

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدأ وحي النبي ﷺ (١)، ومسلم كتاب الإمارة باب

قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...» (١٩٠٧) باختلاف يسير.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم ٦٨.

فلا شك أن أمر الإخلاص عظيم، وخطر الرياء جسيم في حياة الإنسان. وآفات الإخلاص كثيرة، والشهوات والمطامع لا تنقطع، فكم ممن عمل مخلصاً ولكن تحولت النية وتقلبت به الأهواء^(١).

◉ الشرط الثاني: متابعة سنة النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة].

«والمتابعة لا تتحقق إلا إذا كانت موافقة للشرع في أمور ستة وهي: السبب، والجنس، والقدر، والصفة، والزمان، والمكان»^(٢)، جمعها الله تعالى في قوله تعالى لنبية ﷺ: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَكَ فَادْعُ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ لَأَحْجَبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك]. قال الفضيل بن عياض أي: «أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟! فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل؛ حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لله. والصواب أن يكون على السنة»^(٣).

(١) للاستزادة عن الإخلاص انظر: كتاب طوق النجاة للأستاذ فيصل البعداني.

(٢) انظر: هذه الأمور في مجموع فتاوى ابن عثيمين ٧/ ٢٦٢.

(٣) شرح نونية ابن القيم ١/ ٢٥٣، وللإستزادة حول الموضوع انظر: مقدمة كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم.

المحور الرابع: الأعمال الصالحة التي تقضى الإنسان من الخسران:

الأعمال الصالحة عامة في كل شي، ويمكن أن نقسمها إلى ثلاثة:

أولاً: أعمال صالحة لا تجوز إلا لله تعالى: ويأثم من صرفها لغير الله ولا تقبل؛ كالصلاة والزكاة والحج، والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة والحلف..

ثانياً: أعمال صالحة في العادات: كالسعي لطلب الرزق، والنوم، والنكاح، وملاعبة الأهل وملاطفة الأولاد، والأكل. وهذه الأعمال -بالإخلاص والمتابعة- تصبح عبادة للمرأة وتُصلح أهدافه، وتحول عمله من عادات ورغبات إلى طاعة وعبادة يتقرب بها إلى ربه ومولاه.

ثالثاً: أعمال صالحة في الترك: كمن يترك الكذب أو الغيبة أو السرقة أو الزنا، أو أي أمر محرّم أو مكروه فهذا مع النية يؤجر عليه.

قال تعالى مبيّناً أن حياة الإنسان كلها لله تعالى إذا أخلص النية له وحده واتبع سبيل المرسلين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأنعام].

وعن أبي ذر رضي الله عنه: أن ناساً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟! إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(١).

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

قال الإمام النووي: «وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به: قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف زوجته، ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه أو الهمّ به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة»^(١) وبعد دراستنا للصفيتين السابقتين نعلم أنه يجب على الإنسان أن يصلح نفسه أولاً لينجوا من الخسران، وصلاح النفس لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح. ثم يأتي دور الإنسان في إصلاح غيره وذلك بالتواصي بالحق والصبر كما سيأتي.

المطلب الثالث: التواصي على الحق:

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾.

نعرض لهذه الصفة من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: معنى التواصي بالحق:

قال ابن جرير: أي: «وأوصى بعضهم بعضاً بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه؛ من أمره، واجتناب ما نهى عنه فيه»^(٢).

وبكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ تقرر «أن على أهل الإسلام أن يتعاضدوا ويتكاتفوا ويكونوا جماعة واحدة، بل أمة واحدة متماسكة مترابطة. فتواصوا تفيد لغة التفاعل والاشتراك في الفعل بين الطرفين. ثم إن هذه الصيغة تتحدث عنهم بصيغة -الجمع بل السورة كلها ﴿ءَامِنُونَ﴾ و﴿عَمَلُونَ﴾ و﴿تَوَاصَوْا﴾- وهكذا معظم الخطاب في القرآن الذي وجه إلى هذه الأمة بصيغة الجماعة»^(٣).

(١) شرح صحيح مسلم ٦٩٧/٢.

(٢) جامع البيان ٦١٤/٢٤.

(٣) تفسير سورة العصر - عبدالعزيز قارئ ٦١.

فمن التواصي بالحق: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، والتعليم، والتدريب، والتربية ولذلك وسائل متعددة ووجوه متنوعة.

المحور الثاني: أهمية التواصي بالحق:

أمَّا التواصي بالحق فبرز من خلاله صورة الأمة المسلمة ذات الطبيعة الخاصة، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة. فتكون أمةً تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها. وتعرف حقيقة ما هي مقدمةً عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذي يشمل - فيما يشمل - هداية البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح؛ فتواصي فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى.

فمن خلال: لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة المتضامّة المتضامنة، الأمة الخيرة، الواعية، القيّمة في الأرض على الحق والعدل والخير.

قال تعالى مادحًا الأمة التي تتواصي بالحق: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى أمرًا بالتواصي بالحق، ومحذرا من إغفال هذا الأمر: ﴿ وَتَلْكَنَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١٤] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ [آل عمران].

فنص الله تعالى على الأمر بالتواصي بالحق، وبين أن عدم التواصي بالحق يجلب الفرقة والنزاع بين الناس.

وبين الله تعالى أن الذين لا يتواصون بالحق ملعونين فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [٧٨] كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة].

وقارن الله تعالى في القرآن بين من يتواصى بالحق وبين غيره، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل].

والتواصي على الحق يؤدي إلى عمل الإنسان بالحق قبل أن يدعو إليه فبذلك يعينه على إصلاح نفسه:

قال ابن عاشور: «وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر: أن يكون شأن حياة المؤمنين قائماً على شيوخ التآمر بهما ديدنا لهم. وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق، وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمتهم، لما يقتضيه عرف الناس من أن أحداً لا يوصي غيره بملازمة أمرٍ إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقاً بالملازمة، إذ قل أن يُقدم أحدٌ على أمرٍ بحق هو لا يفعله، وقد قال تعالى توبيخاً لبني إسرائيل ومن سلك طريقهم وفعل مثلهم واستن بهم: ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]» (١).

فالتواصي بالحق ضرورة، والنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة، وعلى هذا فالتواصي: تذكيرٌ وتشجيعٌ وإشعارٌ بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتضاعف. وهذا الدين - وهو الحق - لا يقوم إلا في حراسة جماعة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

﴿ المحور الثالث: من صور التواصي بالحق:﴾

أولاً: الأمر بالمعروف:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة].

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دل على خيرٍ فله مثل أجر فاعله»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

ثانياً: النهي عن المنكر:

وهو من أخطر مجالات التواصي بالحق، وأهماها قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فإن استطاع أن يغيره بيده فليفعل فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها مثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير (١٨٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص (٤٩).

بعضهم أسفلها وأوعرها فإذا هم استقوا الماء آذوا من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في موضعنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإذا هم تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا»^(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونني فلا يستجاب لكم»^(٢).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، إنكم لتقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّوهُم مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»^(٣).

ثالثاً: دعوة غير المسلمين للإسلام:

قال بعض مشايخنا: «فمن عجائب هذه السورة أنه بكلمة ﴿وَوَاصُوا﴾ قررت أن أهل هذه الملة - ملة الإسلام - يجب أن يحملوا الرسالة إلى الآخرين، فبعد أن عرفوا الحق عليهم أن يبلغوه غيرهم؛ دعوةً وتعليماً وإرشاداً»^(٤).

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أرسل علي رضي الله عنه لفتح خيبر أنه قال له: «فوالله لأن يهدي بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»^(٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (٢٤٩٣)

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف جامع الترمذي.

(٣) جامع الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣).

(٤) تفسير سورة العصر - عبدالعزيز قارئ ٦٠.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة =

رابعاً: رفع الظلم عن المظلومين. والأخذ على يد الظالم:

قال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟! قال: «تحجزه عن الظلم - ذلك نصره»^(١). وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»^(٢).

قال ابن حجر: «(لا يسلمه) أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه. وهذا أخص من ترك الظلم. وقد يكون ذلك واجبا، وقد يكون مندوباً؛ بحسب اختلاف الأحوال»^(٣).

وقال ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه ويتهك من حرمة إلا نصره الله في موطن يحب نصرته»^(٤).

خامساً: التواصي بالرد عن أعراضهم:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور].

وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ (٢٤٠٦).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٩٥٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢). ومسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم (٢٨٥٠).

(٣) فتح الباري ١١٧/٥.

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبته (٤٨٨٤). والبيهقي في شعب الإيمان باب التعاون على البر والتقوى ٦/١١٠ (٧٦٣٢). وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد باب فيمن قدر على نصره مظلوم أو إنكار منكر ٧/٢٦٧، وضعفه الألباني ضعيف سنن أبي داود (٤٨٨٤).

«هذا عتاب من الله تعالى لأهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة رضي الله عنها. بما أرجف به. فيقول لهم تعالى: هلا أيها الناس إذا سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾»^(١) وذلك لأن المؤمنين بعضهم من بعض.

فإن «الإيمان رحم بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكف عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم كما يمنعونهم على أنفسهم»^(٢).

فقد ورد أن الآية هذه نزلت في أبي أيوب الأنصاري وزوجته رضي الله عنهما، وذلك أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب؛ أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها. قال: نعم؛ وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا؛ والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك^(٣).

وعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»^(٤).

وورد «أن سفيان الواسطي ذكر رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر إليه وقال: أغزوت الروم؟ قال: لا. قال: السنّد والهند والترك؟ قال: لا. قال: أفسلم منك الروم والسنّد والهند، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟! قال: فلم أعد بعدها»^(٥).

(١) جامع البيان للطبري ١٧ / ٢١٢.

(٢) موضوعات سور القرآن - سورة النور - عبد الحميد طهماز ٣١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٨ / ٧٧، وابن كثير في البداية والنهاية ٨ / ٦٠. وفي التفسير ٦ / ٢٦. والواحد في أسباب النزول (٢٧٠). وذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٣ / ٣١٥.

(٤) جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم (١٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

(٥) البداية والنهاية ٩ / ٣٥٠.

سادساً: الإصلاح بين الناس:

قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

فنحن بحاجة إلى الفرد الصالح الذي يتربى في بيئة تترف عليها السعادة؛ بلا نزاع وشقاق، وهنا ينشأ الأفراد في جو نفسي رائع بعيد عن التوتر والقلق، وفي مثل هذه البيئة يتخرج الدعاة والمصلحون والمبدعون في كل مجالات الحياة الدينية والدنيوية. ولقد أدرك العدو أن فك الرابطة الاجتماعية بين المسلمين معناه: انهيار المجتمع الإسلامي بكامله. فمتى وجدت الفلاقل والمشكلات في بيئة؛ فلا تنتظر أن يتخرج منها جيل صالح ناصح مبدع يخدم دينه وأمه وبلده.

فحاجة الأمة الإسلامية -اليوم خاصة، وفيما يستقبل من الأيام عامة- إلى التواصي على إصلاح ما انصدع من كيانها بسبب الشقاق والنزاع أمر مطلوب شرعاً؛ تأثم الأمة لو لم تقم به.

سابعاً: التواصي بمساعدة الناس في جميع أمورهم:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(١).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب اسم الصدقة يطلق على كل معروف (١٠٠٩).

قال أحد السلف: «من شرط الأخوة أن لا تحوج أذاك إلى الاستعانة بك والتماس النصرة منك، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك»^(١).

ومجالات التواصي بالحق كثيرة، وهذه صورٌ منها فقط.

المحور الرابع: التجرد في التواصي بالحق:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس].

بقد بين الله تعالى في هذه الآية أن الوصول للحق هو الغاية من الهداية، أن على الإنسان إذا جاءه الحق أو دعي للحق أن يلتزم به ويتجرد في سامعه.

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بقوله: «أما بعد فالزم الحق، ينزلك الحق منازل أهل الحق، يوم لا يقضى إلا بالحق»^(٢).

ولما ولي الصديق رضي الله عنه الخلافة خطب فقال: «أيها الناس إنما أن متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني»^(٣).

وأوصى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاً فقال: «ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً، ومن أتاك بباطل فأردده وإن كان حبيباً قريباً»^(٤).

ويكفيينا في ذلك ما جعله الله سبحانه منهباً لنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه على دينه إلى يوم القيامة فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبَّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف].

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٥٧/٨.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٦٩/٧ رقم (١١٩).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/٨١-٨٢.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٥٣٧).

وكان من مقالة الأنبياء كلهم لأقوامهم عندما يوصونهم بالحق: ﴿وَيَقُولُوا لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

المطلب الرابع: التواصي بالصبر:

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

نعرض هذه الصفة من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: معنى التواصي بالصبر:

قال ابن جرير: أي «وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على العمل بطاعة الله»^(١).

وقال ابن كثير: «أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي - ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر»^(٢).

﴿فالصبر يكون على أداء الطاعة على الوجه المشروع وبإخلاص للباري ﷻ، ويكون على الأذى من المدعويين، ويكون على المشقة والتعب في تبين الحق لهم، والصبر على عدم الاستجابة منهم.

﴿والتواصي بالصبر مفاعلة بين طرفين لا بد للإنسان منها، ويكون بوسائل وأساليب متعددة كالتعليم والقدرة والوعظ والتذكير والوصية وعرض واستعراض سيد الصابرين، ومعالجة نواقض الصبر، والأخذ بالأسباب ونحو ذلك.

المحور الثاني: أهمية التواصي بالصبر:

إن القيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والأمة. ولا بد من الصبر، إذ لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد

(١) جامع البيان ٢٤/٦١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨٠.

الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل والشر، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعْدُ النهاية!

﴿ والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة؛ بما يعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتعاون الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار.﴾

﴿ والقيادة في الدنيا والدين لا تنال إلا بالصبر واليقين بالله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة].﴾

﴿ والعاقبة للمتقين الصابرين: قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود].﴾

﴿ المحور الثالث: نموذج من التواصي بالصبر في القرآن:﴾

أولاً: وصية الله للرسول ﷺ بالصبر كما صبر الأنبياء ﷺ قبله:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل].﴾

فهذا توجيه لنبينا محمد ﷺ، وهو الذي احتمل ما احتمل، وعانى من قومه ما عانى. وهو الذي نشأ يتيماً، ضَعَفَ عنه الولي والحامي - ومن كل أسباب الأرض؛ واحداً بعد واحد، كما هو مجرد من كل سند أو ظهير. وهو الذي لقي من أقاربه المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين. وهو الذي خرج مرات ومرات يستنصر القبائل والأفراد؛ فَرَدَّ في كل مرة بلا نصره.

﴿فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبراً لم يصبره أحدٌ قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا كل ما يمكنهم من المعادة والمحاربة﴾^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧٨٤ بتصرف.

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه من ربه بالصبر، ألا إنه لطريق شاق، حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ في تجردها وانقطاعها للدعوة؛ وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفائها وشفافيتها- تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر، وعدم الاستعجال،... إن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر.

ثانياً: وصية الله المؤمنين وأمرهم بالصبر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران]. «أمرُوا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم؛ وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء ولا لشدّة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم»^(١).

فالصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة، لأنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة مما يصادف السالك في هذا الطريق. وإنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها؛ انفعالات وتجارب ومرارات.

ثالثاً: لقمان الحكيم يوصي ابنه بعدة وصايا ومنها الصبر:

قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان].

أي «واصبر على ما أصابك من الشدائد والمحن، لاسيما فيما أمرت به من إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالصبر على إقامة الصلاة: لأن إتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْآخِشَعِينَ﴾ [البقرة]، وإذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذى وشدة فاصبر عليها»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٩٥.

(٢) روح المعاني ٢١/ ٨٨.

ثم قال تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. «أي: أن الأمور التي وصى بها لقمان ابنه، والصبر على أدائها، من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم»^(١).

المحور الرابع: الصبر ثلاثة أنواع:

١- صبر على طاعة الله: قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. والصبر في الطاعة يكون بالصبر على الإخلاص فيها. والصبر على المجاهدة أثنائها. والصبر على الثبات عليها.

٢- صبر عن معصية الله: ولذلك كان من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»^(٢). وليبيان عظم الصبر عن معصية الله وصعوبة ما ابتعد عنه؛ التزاماً بما نهاه الله عنه، وبخوفه من الله، استحق أن يكون تحت ظل عرش الله تعالى.

٣- صبر على أقدار الله: قال ﷺ: «ما يصيب العبد من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم؛ حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^{(٣)(٤)}.

(١) تيسير الكريم الرحمن - السعدي ٥٩٧.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المرض، باب ما جاء في كفارة المرضى. ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٣).

(٤) للاستزادة حول الموضوع يمكن الرجوع إلى إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ومدارج السالكين لابن القيم، وكتاب الصبر لابن أبي الدنيا.

﴿ وَأَخِيرًا: بالإيمان والعمل الصالح، يكمل الإنسان نفسه، وبالتواصي بالحق والصبر يكمل غيره، وبتكميل هذه الأمور، يكون الإنسان قد سلم من الخسارة وفاز بالربح العظيم كما دلت عليه هذه السورة الكريمة.

﴿ خاتمة: لمسة بيانية في السورة:

أولاً: قال تعالى في سورة التين: ﴿ تَمْرٌ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢﴾ [التين]: فإنه استثنى من الرد أسفل سافلين من آمن وعمل صالحاً ولم يزد على ذلك، فلم يقل مثل ما قال هنا في سورة العصر: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ وذلك لاختلاف الموطنين، فإن سورة العصر في بيان الخسران الذي يصيب الإنسان، وسورة التين فيما يُنجي من دركات النار، فتبين لنا أن الإيمان والعمل الصالح يمنع من الرد أسفل سافلين. ولكن لا يمنعه من الخسران الذي يفوته فيما لو تواصى بالحق والصبر فإن كل من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله.

ثانياً: وتأمل حكمة الله في لغة القرآن لما قال: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ولما قال ﴿ تَمْرٌ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿١﴾ وسع الاستثناء وعممه فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢﴾ ولم يقل ﴿ وَتَوَّصُوا ﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضاً على الأعيان، وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبة.

• والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يُستحب،
والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يُستحب. فهؤلاء إذا تواصوا بالحق
وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في
أنفسهم ولم يأمرُوا غيرهم به^(١).



(١) انظر: لمسات بيانية ص ٢٦١-٢٦٢.

تفسير سورة الهزمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ﴿٣﴾ كَلَّا لَئِن بَدَأَتْ فِي الْخَطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾.

المبحث الأول

مقدّمة حول السورة

أولاً: تسميتها:

سميت في المصاحف ومعظم التفاسير «سورة الهزمة» بلام التعريف^(١). وعنوانها البخاري وبعض أصحاب التفاسير «سورة ويل لكل همزة»^(٢)، وسميت «سورة الحطمة» لوقوع هذه الكلمة فيها^(٣).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

وهي مكية بالاتفاق^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. وانظر: جامع البيان ٢٤/٩٥٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٨١.

(٣) إملأ ما مَنَّ به الرحمن للعكبري ٢/٢٩٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨١، التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٥.

قيل: أنها نزلت في جماعة من المشركين أقاموا أنفسهم لئلمز المسلمين وسبهم، واختلاق الأحداث السيئة عنهم، وسمي منهم: الأخنس بن شريق؛ وكان يلمز الناس ويعيبهم مقبلين ومدبرين، والوليد بن المغيرة؛ وكان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدهح فيه في وجهه، وأبي بن خلف، وجميل بن عامر الثقفي.

وقيل: إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص، وهو قول الأكثرين^(١).

أما عدد آياتها: (٩) آيات، وكلماتها: (٣٣) كلمة، وحروفها: (١٣٠) حرفاً^(٢).

مناسبتها لما قبلها:

«في سورة العصر أقسم الحق ﷻ «بالعصر» على أن الإنسان في خسر، مستثنيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر.

وفي هذه السورة «سورة الهمزة» عرض للإنسان الخاسر، ومن أين كان خسارانه، وإلى أين يكون مصيره»^(٣).

ثالثاً: موضوعاتها:

١- وعيد من جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضرباً من ضروب أذاهم طمعاً في أن يلجئهم الملل من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك^(٤).

٢- بيان خطر الاستهزاء والانتقاص من الآخرين وخصوصاً أهل الخير والصلاح.

(١) جامع البيان ٢٤/٦١٦ - ٦١٨، تفسير القرآن العظيم ٨/١٨١، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨١، التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٥.

- ٣- ذم من يجمع المال ويبخل به.
 ٤- ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة، ووعيد من هذه صفاتهم.
 ٥- ذكر صفة النار وحال الكفار فيها.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي: شر وهلاك لكل مغتاب للناس، طعان فيهم، ﴿الَّذِي﴾ الذي كان همُّه جمع المال وتعداده، يظن أنه صَمِنَ لنفسه بهذا المال الذي جمعه، الخلود في الدنيا والإفلات من الحساب، ولكن ليس الأمر كما ظن، لِيُطْرَحَنَّ فِي النَّارِ التي تهشم كل ما يُلقَى فيها.

ثم يخاطب الله نبيه ﷺ ويقول له وما أدراك -أيها الرسول- ما حقيقة النار؟ إنها ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التي من شدتها تنفذ من الأجسام إلى القلوب، وليس هذا فحسب بل ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ أي: مطبقة ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: في سلاسل وأغلال مطوّلة؛ لئلا يخرجوا منها^(١).



(١) أيسر التفاسير ص ٦٠١.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول: خطر الغيبة والاستهزاء والانتقاص من الآخرين:

قال تعالى: ﴿وَيَلُّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾.

﴿وَيَلُّ﴾ دعاء عليهم بالخزي والعذاب والهلكة. وقيل: وادٍ في جهنم^(١)، وهذا الوادي يسيل من صديد أهل النار ويحهم^(٢). وكلمة ﴿وَيَلُّ﴾ تشمل ذلك كله فهي وعيد وشديد لا يقدر قدره إلا الله ﷻ. ويراد به التنفير من الفعل المذكور بعده لعظم وزره عند الله ﷻ.

وكلمة ﴿لِكُلِّ﴾ تُشعر بأن المهديين بهذا الوعيد جماعة، وهم الذين اتخذوا همز المسلمين ولمزهم ديدناً^(٣). وفيه إشارة إلى أن كل من ارتكب هذا الجرم فهو متوعد كائناً من كان، وأن من استمرأ هذا النوع من قبائح الأفعال والسلوك استساغته وأكثر منه حتى يصير عادة له، فلا يستهان بقليله.

وقوله تعالى: ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾ «الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل. يعني: يزدري بالناس وينتقص بهم. وقيل: طعان معياب. وقيل: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعن عليهم، وقيل باليد والعين، واللمزة: باللسان. وقيل هُمَزَةٌ لحوم الناس^(٤). وهذا كقوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَمَّاءٍ بَنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨١.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦١٦.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٦.

(٤) ذكر هذه الأقوال بأسانيدها ابن جرير في جامع البيان ٢٤/٦١٦-٦٢٠، وابن كثير في تفسير القرآن

العظيم ٨/٤٨١.

وقيل: هم المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب^(١)، قال النبي ﷺ: «شرار عباد الله تعالى المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت»^(٢).

وقيل: الهامز: الذي يهزم الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم^(٣).

وقيل: الهمزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه إذا غاب^(٤)، واختار هذا القول النحاس^(٥)، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الْوَدَعَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال أحدهم:

تدلى بودي إذا لاقيتني كذبا وإن أغيب فأنت الهامز للمزه
وقال آخر:

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنى وإن تغيت كنت الهامز للمزه^(٦)

(١) انظر: جامع البيان عن ابن عباس ﷺ ٢٤/٢١٧.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٢٧ (١٨٠٢٧)، قال في مجمع الزوائد ٧/٨ «وفيه شهر بن حوشب وبقية رجاله رجال الصحيحين»، وقال الأرئوط: «حسن الشواهد وهذا إسناد ضعيف»، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغيره (٢٨٢٤).

(٣) جامع البيان ٢٤/٦١٩، معالم التنزيل ٤/٥٢٣.

(٤) جامع البيان ٢٤/٦١٧-٦١٨، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨١ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٨١/٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/٢٨٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٢.

والأولى أن يقال: «إن الله عمّ بالقول كل همزة لمزة، كل من كان بالصفة التي وصف هذا الموصوف بها سبيله، كائناً ما كان من الناس»^(١).

و﴿هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ﴾ على وزن فُعْلة: صيغة تدل على كثرة صدور الفعل المصاغ، وأنه صار عادة لصاحبه^(٢).

ومن هنا يظهر أن الهمز واللمز والانتقاص يكون بالقول والفعل وبالإشارة، وهو أمر واقع - وقد يقع من بعض أهل الخير والصلاح - وكلها مؤاخذ به العبد، فالقاعدة الفقهية تقول: «الإشارة مُنْزَلة مُنْزَلة العبارة»^(٣)، و«دلالة الفعل كدلالة القول»^(٤).

إن الله تعالى يصف في القرآن أحداث الدعوة ويوجهها في الوقت ذاته، فجعله الله السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين ويفضح المعاندين والجاحدين، ويزلزل قلوب الظالمين، ويثبت الله به أرواح المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَاهُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء].

وإنا نرى في عناية الله سبحانه بالرد على الهمزة اللمزة معنيين كبيرين:

الأول: تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس.

والثاني: المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم.

(١) جامع البيان ٢٤/٦٢٠.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٧.

(٣) انظر: نهاية الإقدام في علم الكلام ١/١٦٦، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١٤/١٨٢، شرح زاد المستنقع للشنقيطي ١٣/١٩٧.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية ٢/٩٠٩٥، وشرح زاد المستنقع للشنقيطي ٦/١٦٢.

المطلب الثاني: خوارم العلاقات بين الناس عامة:

من خلال أقوال العلماء في الآيات يتبين لنا عدة أمور نهي الشارع الحكيم عنها تنبيهًا على أنها من خوارم العلاقات بين الناس، ومنها:

أولاً: الغيبة:

وهي من أعظم الهمز واللمز، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات].

وقد نبهنا رسول الله ﷺ على معنى الغيبة وحقيقتها، فقد قال ﷺ يوماً لأصحابه: «أندورن ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أرايت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(١).

فالغيبة هي: أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان فيه^(٢).

ولقد شبه الله سبحانه الذي يغتاب أحداً من المسلمين بالذي يأكل لحم أخيه ميتاً، وهذا دليل على شناعة ما يفعله ذلك المغتاب، «وهذا من أحسن القياس التمثيلي؛ فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، لما كان المغتاب عاجزاً عن دفعه بنفسه بكونه غائباً عند ذمه؛ كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها- من الذم والعيب والظعن- كان ذلك نظير تقطيعه لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانتته والذب عنه، ولما كان المغتاب متفكها بغيبته وذمه

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلوة باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٩٩.

متحليا بذلك شُبِّهَ بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شُبِّهَ بمن يحب أكل لحم أخيه ميتا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه، فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه للمحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحب مثل أعمال الكفار أحدهم ذلك!! فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره!! فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم؛ وهم أشد شيء نفرة عنه. فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه. وبالله التوفيق»^(١).

«ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه!! حتى يُرى الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة - وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالألّا يزلُّ بالكلمة الواحدة أبعد ما بين المشرق والمغرب»^(٢)، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفرّ في أعراض الأحياء والأموال ولا يبالي بما يقول»^(٣).

﴿ فينبغي التدقيق في ضابط الغيبة النبوي للحذر والتباعد عنها، فكل ما يكرهه أخوك من ذكر المعاييب والصفات والأحوال فهو غيبة.﴾

(١) أمثال القرآن لابن القيم ص ٣٣.

(٢) إشارة لحديث (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب حفظ اللسان، ومسلم في كتاب الزهد والرفائق باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

(٣) الداء والدواء ص ٢٤٤، والجواب الكافي لابن القيم ص ١١١.

٥ ثانياً: البهتان:

وهو الكذب والافتراء^(١) وهو من أعظم أبواب الهمز بل أشدها، وهو أن تذكر أخاك بما يكره مما ليس فيه، وهو كما قال رسول الله ﷺ «وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ف«البهتان بالضم: الكذب الذي يبهت سامعه. أي: يدهشه لفظاعته، إذا كذب عليه بما يبهته من شدة نكره. وإذا رماه في وجهه أو من ورائه بما لم يكن. والبهات: الذي يعيب الناس بما لم يفعلوا.

فالبهت والبهتان: استقبالك بأمر تقذفه به وهو منه بريء لا يعلمه. وأيضاً: الحيرة.

والبهتان: الكذب الذي يُتَحَيَّرُ من عِظْمِهِ وشأنه، وقد بهته إذا كذب عليه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] قال الخطابي معناه ههنا: قذف المحصنات، وهو من الكبائر، ويدخل فيه الاغتياب لهن، ورميهن بالمعصية. وقال أيضاً: لا تبهتوا الناس بالمعائب كفاحاً ومواجهة. وهذا كما يقول الرجل فعلت هذا بين يديك أي بحضرتك^(٢).

«وقال الحسن: ذكُرُ الغير ثلاثة: الغيبة والبهتان والإفك، وكلُّ في كتاب الله ﷻ، فالغيبة: أن تقول ما فيه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه، والإفك: أن تقول ما بلغك^(٣)».

وفي الحكمة: «البهتان على البريء أثقل من السموات»^(٤).

(١) النهاية في غريب الحديث ١/ ١٦٥.

(٢) عمدة القارئ ١/ ١٥٤-١٥٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٤.

(٤) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٥.

ثالثاً: النميمة:

قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم].

والنميمة هي: قال العلماء: «النميمة نقل كلام الناس على جهة الإفساد بينهم»^(١).
عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»^(٢)،
وفي رواية: «لا يدخل الجنة نام»^(٣). وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ، من
بعض حيطان المدينة، فسمع صوت رجلين يعذبان في قبريهما، فقال: «أما إنهما
ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان
يمشي بالنميمة...»^(٤).

«قال الغزالي ما ملخصه: ينبغي لمن حملت إليه نميمة؛ أن لا يصدق من نم له،
ولا يظن بمن نم عنه ما نقل عنه، ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له، وأن ينهأه ويقبح له
فعله، وأن يبغضه إن لم ينزجر، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى المنام عنه فينم هو على
النام فيصير ناماً»^(٥).

قال النووي: «وهذا كله إذا لم يكن في النقل مصلحة شرعية، وإلا فهي مستحبة
أو واجبة، كمن اطلع من شخص أنه يريد أن يؤذي شخصاً ظلماً فحذره منه، وكذا من
أخبر الإمام أو من له ولاية بسيرة نائبة مثلاً فلا منع من ذلك»^(٦).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١١٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة (٦٠٥٦). ومسلم كتاب الإيمان باب غلظ
تحريم النميمة (١٠٥).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب النميمة من الكبائر (٦٠٥٥). ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل
على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢) مع وجود اختلاف في اللفظ.

(٥) فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠، وانظر: إحياء علوم الدين ١٥٦/٣.

(٦) شرح صحيح مسلم ١١٣/٢، وانظر: فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠.

«وقال الغزالي ما ملخصه: النميمة في الأصل نقل القول إلى المقول فيه، ولا اختصاص لها بذلك، بل ضابطها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو غيرهما، وسواء كان المنقول: قولاً أم فعلاً، وسواء كان: عيباً أم لا، حتى لو رأى شخصاً يخفى ما، له فأفشى كان نميمة.

❖ واختلف في الغيبة والنميمة هل هما متغايرتان أو متحدتان؟ والراجح: التغاير

وأن بينهما عمومًا وخصوصًا وجيهًا، وذلك لأن النميمة نقل حال الشخص لغيره على جهة الإفساد بغير رضاه، سواء كان بعلمه أم بغير علمه. والغيبة ذكره في غيبته بما لا يرضيه. فامتازت النميمة بقصد الإفساد، ولا يشترط ذلك في الغيبة، وامتازت الغيبة بكونها في غيبة المقول فيه، واشتركتا فيما عدا ذلك. ومن العلماء من يشترط في الغيبة أن يكون المقول فيه غائباً^(١) والله أعلم.

❖ رابعاً: احتقار المسلمين والسخرية منهم:

وهو أشد أبواب الهمز واللمز وأنواعه ضرراً على الفرد والمجتمع. قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان] وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْحَرُونَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ عَنَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَنَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

السخرية هي: «احتقار الناس والاستهزاء بهم، وهذا حرام لأنه قد يكون المحققر أعظم قدرًا وأحب إلى الله من الساخر»^(٢).

والاحتقار هو: من الحَقَّرَ أي الذلَّة تقول: حقر يحقر حقراً واستحققره: رآه حقيراً، وتحقير الكلمة: تصغيرها^(٣). وهو: الاستخفاف والاستهانة^(٤).

(١) فتح الباري لابن حجر ١٠/٤٧٣، إحياء علوم الدين ٣/١٥٥-١٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/٣٧٦.

(٣) تهذيب اللغة ١/٤٥٢.

(٤) معجم لغة الفقهاء ص ٦٠.

فكل ما أشعر بالاحتقار والاستهزاء والوسم بالجهل أو قلة الفهم أو التبسمات والضحكات التي تدل على السخرية؛ كل هذا مما يفسد العلاقة الأخوية بين المسلمين.

قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١). وقال ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويتليك»^(٢). وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله»^(٣).

ومن صور الاحتقار التكبر على الناس، قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٤)، وغمطُ الناس: الاحتقارُ لهم والازدراءُ بهم^(٥).

خامساً: التعبير وإظهار الشماتة لهم:

وهو من أكثر صور الهمز واللمز إيلاماً فعن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر ﷺ وعليه بُردٌ، وعلي غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلَّة؟ فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخوتي كلام، وكانت أمه أعجمية، فغيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية» قلت: يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه!! قال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»^(٦).

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ٥٤ (٢٥٠٦) وقال حديث حسن. وقال الألباني حسن الإسناد مقطوع.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٥) الصحاح في اللغة ٢/٢٦.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب =

وقال ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويبتليك»^(١).

والناس يكرهون أن تُبرَزَ أخطاؤهم وعيوبهم أمام الآخرين. فالتعير والتشهير والنصيحة في العلن، أو ذكر الخطأ في الملاء؛ من أسرع ما يزيل المحبة ويزرع العداوة بين الإخوان، لما يشعر به المنصوح من الفضيحة والتوبيخ بين الناس، وقد يؤلِّد هذا أيضاً العناد والرغبة في الانتقام من الأخ.

وقد أحسن الشافعي عندما قال^(٢):

تعمدني بنصحك في انفراد وجنبي النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

و«ينبغي أن تكون النصيحة سرّاً لا يطلع عليها أحد، فما كان على الملاء فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، قال الشافعي: من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه، ومن وعظه علانية فقد فضحه»^(٣).

﴿سادساً: التناجي بين اثنين بحضور ثالث:﴾

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْآثِرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا التَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المجادلة].

= إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١).

(١) سبق تخريجه.

(٢) ديوان الشافعي ص ٩٠.

(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٤٠٠.

وقال ﷺ: «إذا كتتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»^(١).

و«لا فرق في المعنى بين الاثنين والجماعة لوجود المعنى في حق الواحد، زاد القرطبي: بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأشد، فليكن المنع أولى، وإنما خص الثلاثة بالذكر لأنه أول عدد يتصور فيه ذلك المعنى، فمهما وجد المعنى فيه ألحق به في الحكم.

قال بعضهم: وكلما كثر الجماعة مع الذي لا يتناجى كان أبعد لحصول الحزن ووجود التهمة، فيكون أولى. واختلف فيما إذا انفرد جماعة بالتناجى دون جماعة.

وأرشد هذا التعليل إلى أن المناجى إذا كان ممن إذا خص أحدا بمناجاته أحزن الباقين امتنع ذلك، إلا أن يكون في أمر مهم لا يقدر في الدين.

❖ وإذا تناجى اثنان فلا يدخل معهما غيرهما حتى يستأذنها قال ابن عبد البر: لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجيين في حال تناجيهما. قلت -أي ابن حجر- ولا ينبغي لدخول القعود عندهما، ولو تباعد عنهما -إلا بإذنها، لما افتتحا حديثهما سرا؛ وليس عندهما أحد دل على أن مرادهما ألا يطلع أحد على كلامهما، ويتأكد ذلك إذا كان صوت أحدهما جهوريا لا يتأتى له إخفاء كلامه ممن حضره، وقد يكون لبعض الناس قوة فهم بحيث إذا سمع بعض الكلام استدل به على باقية، فالمحافظة على ترك ما يؤذي المؤمن مطلوبة وإن تفاوتت المراتب»^(٢).

المطلب الثالث: ذم من يجمع المال ويبخل به:

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي: جمعه بفضه على بعض، وأحصى

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة (٦٢٩٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (٢١٨٤).

(٢) فتح الباري ١١/٨٤ مختصرا.

عدده كقوله: ﴿وَمَجْمَعٌ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج]. وقيل: ألهاه ماله بالنهار، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة^(١). ولعل هذا من الأسباب التي تجعله يتحدث بالناس ويحقرهم.

والمقصود: الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة، كما قال تعالى: ﴿مَتَاعَ الْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّرِيبٍ﴾ [ق]^(٢) وإنما ينشأ ذلك عن بخل النفس، والتخوف من الفقر، وضعف الإيمان بالله الرزاق.

وهذه الآية تبين الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدنا الأول، وهي نموذج يتكرر في كل بيئة، إنها صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يُؤْتَى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأخلاق، وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب!

كما يظن ويعتقد أن هذا المال إله قادر على كل شيء؛ لا يعجز عن فعل شيء! حتى دفع الموت وتخليد الحياة، ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه - إن كان هناك في نظره حساب وجزاء - والعياذ بالله من حاله.

وقد توعد الله تعالى من يكتنز المال ولا يؤدي حق الله تعالى فيه بأشد العذاب فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يوم يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة].

المطلب الرابع: ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة:

وقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟^(٣)

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٨١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٨٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٨١.

ويبقية حيا لا يموت^(١). فحين يملك الإنسان المال يشعر أنه يملك كل شيء؛ فهو يشتري ما يريد، ويسافر أين ما يريد، ويفعل ما يريد، بل ويسعى الناس عموماً لرضاه، ولذا فإنه يصبح مغروراً متكبراً؛ ومن هنا يصبح همّه الأول هو المال، فهو يسعى لجمعه، وينشغل في عده وحسابه؛ حتى يخيل إليه أنه سيكون خالداً في هذه الحياة الدنيا وينسى الآخرة.

وما أكثر الناس الذين يعثرون بالمال ويتمنون أن يجمعه، وأن يكون لهم النصيب الأوفر منه، كما في قصة قارون - وهو الرجل الذي أعطاه الله المال الكثير - حيث قال الله عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِيَلْبِتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْرُونَ إِنَّهُ لَدُوْحَضٍ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص]. هذه نظرة أصحاب الدنيا، أما الفريق الآخر فقد حكى الله عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَدَّكُم تَوَّابٌ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّادِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص]، ثم خسف الله الأرض بقارون وعذبه ليكون عبرة لكل من يعرض عن الله بسبب انشغاله بالمال ونسيانه ربه، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ وَهُوَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص].

وهو كذلك ينشغل بعده بعد جمعه، فحياته كلها بين جمع وعد، ونسي الهدف الأسمى الذي خلِق من أجله^(٢).

هذا في الدنيا أما في الآخرة فيتبرأ منه ماله الذي كان يعده ويكنزه ولا يؤدي حقه قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَبِشْمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْبِغْتَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي ﴿٥٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي ﴿٥٦﴾ يَلْبِغْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٥٧﴾ مَا عَنَى عَنَى مَالِيَةَ ﴿٥٨﴾ هَلَاكَ عَنَى سُلْطَانِيَةَ ﴿٥٩﴾ نَعَمْ. لم ينفعه ماله ولا سلطانه فكان جزاءه ﴿حُدُوهُ فَعَلُوهُ ﴿٦٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ ﴿٦١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٦٢﴾﴾ لماذا كل هذا العذاب: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَلَا بَحْضٌ عَلَى طَعَامِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحاقة].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٨٣.

(٢) تفسير قصار السور للهميلي (٢٤).

فالمال يوم القيامة لن ينفع من لا يقوم بحقه ومن يكنزه من أجل الفرار من العذاب قال تعالى عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) [الشعراء]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَنَّ لَهُمْ مَتَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ وَلِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) [المائدة].

المطلب الخامس: عقاب من هذه صفاتهم وصفة ذلك العقاب:

أولاً: عقاب من هذه صفاتهم:

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب. فهو رد لما توهمه الكافر. أي: لا يخلد، ولا يبقى له مال (١).

ثم قال تعالى: ﴿يُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي: ليلقين هذا الذي جمع مالا فعدده ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ وهي اسم من أسماء النار، صفة: لأنها تحطم من فيها (٢).

والنبذ: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُكُمْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص] فشبهم استحقاقا لهم بحصيات أخذهن آخذ بكفه فطرحهن (٣)، وكلمة النبذ تفيد التحقير والتصغير والإهانة لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة (٤).

وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء ونوع العقاب. فصورة الهمزة اللمزة، الذي يدأب على الهزاء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٢٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٨١/٨، والجامع لأحكام القرآن ١٨٤/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير ٤٧٤/٣٠.

(٤) مفاتيح الغيب ٨٨/٣٢.

يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تقابلها صورة المنبوذ المهمل المتردي في ﴿الْحُطْمَةِ﴾ التي تحطم كل ما يلقى إليها، فتحطم كيانه وكبرياءه.

﴿ثانياً: من صفات النار:﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها^(١).

ثم بينها أكثر ببعض صفاتها:

الصفة الأولى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾ أي: التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام، فهي غير خامدة، أعددها الله للعصاة^(٢) لقول جبريل ﷺ حين سأله رسول الله ﷺ: «يا جبريل صف لي النار. وانعت لي جهنم؟ قال جبريل: إن الله ﷻ أمر بجهنم، فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يطفأ لهبها»^(٣).

والتوقد: ابتداء التهاب النار فإذا صارت جمراً فقد خفَّ لهبها، أو زال، فوصف النار بالموقدة يفيد أنها لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها^(٤).

وإضافتها لله وتخصيصها يوحي بأنها نارٌ فذَّة، غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة مرعبة. وكذلك للترويع بها بأنها نار خلقها القادر على خلق الأمور العظيمة^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٨٤.

(٢) المصدر السابق ٢٠/ ١٨٥.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب صفة جهنم، باب ٨ (٢٥٩١) وقال «حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح»، والطبراني في الأوسط ٣/ ٨٩ (٢٥٨٢)، والبيهقي في الشعب ١/ ٤٨٩ (٧٩٩)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٣٩. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة ٣/ ٤٧٠ (١٣٠٥).

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٧٥.

(٥) المصدر السابق.

الصفة الثانية: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ﴾ (٧) أي: تحرقهم إلى الأفتدة وهم أحياء^(١)، أو: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقًا جديدًا، فرجعت تأكلهم^(٢).

وخص الأفتدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه. أي إنه في حال من يموت؛ وهم لا يموتون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ وَجْهَةً لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٥) [طه] فهم إذا أحياء في معنى الأموات^(٣).

«والاطلاع يجوز أن يكون بمعنى الإتيان مبالغة في طلع، أي الإتيان السريع بقوة واستيلاء، فالمعنى: التي تنفذ إلى الأفتدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد»^(٤).

فإن من أهم صفات تلك النار أنها تتجاوز الجلد الخارجي ليصل عذابها إلى القلب، القلب الذي كان فيه حب المال الطاغي على كل محبة، فأصبح هو السيد المطاع في هذا القلب^(٥)، فخصصت الأفتدة التي هي القلوب بالذكر، لأنها ألطف ما في الأبدان وأشدّها تألماً بأدنى أذى يصيبها، أو لأنها محل العقائد الزائفة، والنيات الخبيثة، ومنشأ الأعمال السيئة، التي استحق هذا الهمزة اللمزة بسببها العقاب الشديد^(٦).

الصفة الثالثة: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ أي: مطبقة^(٧). أي: مغلقة، ومنه: آصدت الباب إذا أغلقتة^(٨). فهي مغلقة عليه، لا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد!

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٨ / ٤٨١.

(٢) الدر المنثور ٦ / ٣٩٣، الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٨٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٨٥.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٧٥.

(٥) تفسير قصار السور للهميلي (٢٤).

(٦) تفسير الوسيط للطنطاوي ٣٠ / ٤٥٦٥.

(٧) جامع البيان ٢٤ / ٤٤٧ عن ابن عباس.

(٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٠٩.

وقيل: مسدودة الجوانب لا يفتح منها جانب^(١). ولا ضوء فيها ولا فُرج، ولا خروج منها آخر الأبد^(٢).

الصفة الرابعة: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ عمد من حديد، ومن نار. أو: الأبواب الممدودة.

وقيل: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب.

أو: هي: القيود الطوال^(٣). موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام! وذلك العمود من نار، قد أغلقت ووصدت عليه الأبواب حتى لا يمكنه النفاذ منها بحال.



(١) النكت والعيون ٦ / ٣٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٠٩.

(٣) المصدر السابق ٨ / ٤٨١.

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ الَّذِي يَجْعَلُ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

المطلب الأول: مقدمات حول السورة:

أولاً: تسميتها:

ورد تسميتها في كلام بعض السلف سورة «ألم تر»^(١)، وكذلك عنوانها البخاري^(٢).
وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير «سورة الفيل»^(٣).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي مكية بالاتفاق^(٤)، وعدد آياتها: (٥) آيات، وكلماتها: (٢٣) كلمة، وحروفها: (٩٣) حرفاً^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفيل (١١٧/٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠، التحرير والتنوير ٣٠/٥٤٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/٥٢٣، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٧، زاد المسير ٩/٢٣١، التحرير والتنوير

٣٠/٥٤٣.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٩.

مناسبتها لما قبلها:

«في سورة «الهمزة» عرض لمن جمع المال، واتخذ منه سلاحا يغمز به الناس، ويهمزهم، ويمزق أديمهم، ويزيل وجودهم الإنساني بين الناس.. وسورة «الفيل» تعرض لجماعة من تلك الجماعات، التي اجتمع ليدها قوة من تلك القوى المخيفة -هي الفيل- الذي يشبه قوة المال في طغيانه، حين يجتمع ليد إنسان جهول غشوم، طاغية، فيتسلط على الناس، كما يتسلط صاحب الفيل على صاحب الحمار، أو الحصان، مثلا.. فكان عاقبة صاحب هذا الفيل الهلاك والدمار، كما كان عاقبة صاحب هذا المال، الذل والخزي، والخسران»^(١).

٦ ثالثاً: موضوعها:

- ١- التذكير بأن الكعبة بيت الله، وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءاً، وأظهر غضبه عليهم فعذبهم، لأنهم ظالمون بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم ﷺ - الكعبة، وهو عندهم في كتابهم.
- ٢- وليكون ما حل بهم تذكرة لقريش: بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، فلا حظ للأصنام التي نصبوها حوله في حفظه، وتنبية قريش؛ وتذكير لهم بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند الله، إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته.
- ٣- ومن وراء ذلك تثبيت النبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين، فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه.
- ٤- والتذكير بأن الله غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم ولا يوهن النبي ﷺ تألب قبائلهم عليه، قال تعالى في قصة قارون: ﴿أُولُو يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمَجْرُمُونَ﴾ [٧٨] [الفصل].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ -أيها الرسول- ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي: أبرهة الحبشي وجيشه الذين أرادوا تدمير الكعبة المباركة؟ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: ما دبّروه من شر في إبطال وتضييع؟ حيث بعث عليهم ﴿طَيْرًا أَبَائِيلَ﴾ أي: في جماعات متتابعة، ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: تقذفهم بحجارة من طين متحجّر. ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا أُكُولُ﴾ أي: محطمين كأوراق الزرع اليابسة التي أكلتها البهائم ثم رمت بها^(١).

* * *

(١) التفسير الميسر ٦٠١.

المبحث الأول

قصة أصحاب الفيل

قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار تتلخص في أن أبرهة الأشرم - وكان من ملوك اليمن النصارى - بنى كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمّتها العرب القُلَيْس لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها.

فلما فرغ من بنائها عزم على أن يصرف حجّ العرب إليها كما يُحجّ إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك، حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحدث فيها وكرّاً راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، فأقسم أبرهة ليسيرون إلى بيت مكة، وليخربنه حجراً حجراً.

وقيل: أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقتة، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وسار بجيش كبير، واستصحب معه فيلاً عظيماً لم ير مثله، يقال له: محمود - وقيل: كان معه ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلاً - والله أعلم. وذلك ليهدم بها الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عنق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملةً واحدة.

فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجة دون البيت، ورَدّ من أرادته بكيد. وفي طريقه تصدّى له بعض قبائل العرب فهزمهم أبرهة لما يريد الله ﷻ من كرامة البيت وتعظيمه.

فلما انتهى أبرهة إلى مكان قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة أحد قواده إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم ينجى لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت. فجاء الرسول فدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال.

فذهب عبد المطلب مع الرسول إلى أبرهة، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتي حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني! قال: أنت وذاك.

وقيل: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرفة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال. وذكر أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق، فينتقم الله منه.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل، فضربوا

الفيل ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك!! وأرسل الله عليهم طيرا من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وخرجوا هاربين، وقريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة.

وقال عطاء بن يسار: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل سهل وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

وذكر أن قريشاً أصابوا ما لا جزيلاً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة.

وكان ذلك في شهر محرم الموافق لشهر شباط-فبراير- سنة ٥٧٠ بعد ميلاد عيسى ﷺ، وبعد هذا الحادث بخمسين يوماً ولد النبي ﷺ على أصح الأخبار، وفيها اختلاف كثير^(١).



(١) هذه القصة مختصرة من رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٠-٥٤، وجامع البيان للطبري ٢٤/٦٣٥-٦٤٢ وابن كثير ٨/٤٨٣-٤٨٦ وقد ذكر د. أكرم العمري أسانيد الروايات والحكم عليها عند العلماء في السيرة النبوية الصحيحة ١/٩٧.

المبحث الثاني وقفات مع الآيات

المطلب الأول: حادثة الفيل من نعم الله على قريش:

قال تعالى: ﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١)

استفهام تقريرى^(١)، يقول تعالى ذكره لنبىه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١) الذين قَدِموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم^(٢).

ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الواقعة^(٣)، وعلى هذا فيجوز أن تكون الرؤية بصرية بالنسبة لمن تجاوز سنه نيفاً وخمسين سنة عند نزول الآية ممن شهد حادث الفيل غلاماً أو فتى مثل أبي قحافة وأبي طالب وأبي بن خلف^(٤).

وجيء في تعريف الله سبحانه بوصف (رب) مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ إيماء إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ إرهاباً لنبوته إذ كان ذلك عام مولده^(٥)، وأن الله تعالى هو وحده الرب الحامي القائم على أحوال العباد المستحق وحده للعبادة.

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٤٤.

(٢) جامع البيان ٢٤ / ٦٢٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٩٥.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٤٥ - ٥٤٦ مختصراً.

(٥) المصدر السابق.

قال ابن كثير: «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، وكانوا قومًا نصاري، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ»^(١).

قال ابن إسحاق: «ولما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشًا وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم»^(٢).

وهذا التقرير على الإجمال يفسره ما بعده من الآيات في ذكر عاقبتهم ومآل أمرهم.

المطلب الثاني: الكيد عاقبته التضليل:

قال تعالى: ﴿الْمَيِّجَعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

أي: «ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل في تخريب الكعبة ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ يعني: في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها»^(٣).

وسمى حربهم كيدًا؛ لأنه عمل ظاهره الغضب من فعل الكناني الذي قعد في القليس، وإنما هو علة تعللوا بها لإيجاد سبب لحرب أهل مكة، وهدم الكعبة لينصرف العرب إلى حج القليس في صنعاء فيتصرفوا.

أو أُريدَ بكيدهم بناءهم القليس، مظهرين أنهم بنوا كنيسة، وهم يريدون أن يبطلوا الحج إلى الكعبة، ويصرفوا العرب إلى صنعاء^(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٨٣.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٧٥. والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨١.

(٣) جامع البيان ٢٤/٦٢٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب ٣٢/٩٤. التحرير والتنوير ٣٠/٥٤٨.

والكيد: الاحتيال على إحقاق ضرر بالغير ومعالجة إيقاعه.

والتضليل: جعل الغير ضالاً. أي: لا يهتدي لمراده^(١).

وهذه إشارة إلى «إبطال وعدم نوال المقصود- لأن ضلال الطريق يلزم عدم وصول السائر. والمعنى: أن الله أبطله إبطالاً شديداً، إذ لم ينتفعوا بقوتهم، مع ضعف أهل مكة وقلة عددهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر] أي: ضياع وتلف. وقد شمل تضليل كيدهم جميع ما حل بهم من أسباب الخيبة وسوء المنقلب^(٢).

فيعلم بهذا أن كل صاحب كيد لهذا الدين أو لأولياء الله فإن الله تعالى جاعل كيده في نحره.

المطلب الثالث: عذاب أصحاب الفيل:

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: «وأرسل عليهم ربك طيراً متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من نوح شتى»^(٣). ومهمة هذه الطيور: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال بعض أهل العلم: «حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات]»^(٤). وعلى هذا فهي «نفس الحجارة التي نزلت على قوم لوط»^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٥٤٨/٣٠.

(٢) المصدر السابق ٥٤٩/٣٠ بتصرف.

(٣) جامع البيان ٦٢٧/٢٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩٨/٢٠، وعمدة القارئ ٢٩١/١٨.

(٥) جامع البيان ٦٣٥/٢٤.

فإذا أصاب أحدهم حجراً منها خرج به الجذري وهو لم يُرَ قبل ذلك^(١)، وكان الحجر كالحمصمة وفوق العدسة^(٢). وجيء بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، بحيث تُخَيَّلُ للسامع كالحادث في زمن الحال^(٣).

فكانت نهايتهم ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ﴾ والعصف: ورق الزرع، وهو جمع عصفة. لأن العصف إذا دخلته البهائم فأكلته: داسته بأرجلها، وأكلت أطرافه، وطرحتة على الأرض^(٤).

وهذا تمثيل لحال أصحاب الفيل بعد تلك النظرة والقوة، كيف صاروا متساقطين على الأرض هالكين^(٥).

المطلب الرابع: فوائد تربية من سورة الفيل:

أولاً: بيان حرمة الكعبة ووجوب تعظيم حرمان الله تعالى:

فمع أن الخطاب مُوجَّه للنبي ﷺ إلا أنه مُوجَّه للأمة جميعها بأنها إن لم تحترم حرمان الله تعالى فسيحصل لهم ما حصل لأصحاب الفيل.

«فلم نصركم -يا معشر قريش- على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد -صلوات الله وسلامه عليه- خاتم الأنبياء»^(٦)، «فقصة أصحاب الفيل هي إحدى آيات قدرة الله وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمة»^(٧).

(١) جامع البيان ٢٤/٦٣٣، وأبو نعيم في الحلية ٣/٣٣٣، والبهقي في الدلائل ١/١٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٩٨.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٩٩، التحرير والتنوير ٣٠/٥٥١.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥١.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٨٣.

(٧) محاسن التفسير للقاسمي ١٧/٢٦٢.

ولذلك ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام الذي تكفل بحفظه وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين، وأعظمت العرب قريشًا وقالوا هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو^(١).

وزاد الإسلام ذلك التعظيم مهابة وإجلًا فهذا رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الشية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته. فزجروها فألحَّت. فقالوا: خلأت القصواء. أي: حرنت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم حُطَّةً يُعَظَّمون فيها حُرْمات الله إلا أجبتهم إليها». ثم زجرها فقامت^(٢).

وقال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب»^(٣).

◉ ثانيًا: حكم من أراد الإحَاد في البيت:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يُطْلَمِ نُدُقُهُ مِن عَذَابِ إِلِيِّ ۗ﴾ [الحج].

قال القرطبي: «ذهب قوم من أهل التأويل إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقب على ما ينويه من المعاصي بمكة وإن لم يعملها، وقد روي نحو ذلك عن ابن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٧٦، وتاريخ الطبري ١/ ٤٤٤، والسيرة للندوي ص ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ليليل العلم الشاهد الغائب (١٠٤)، ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها (١٣٥٤).

مسعود وابن عمر رضي الله عنهما، قالوا: «لو أن رجلا بعدن أبين همّ أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم»^(١).

قال القرطبي: هذا صحيح وقد جاء هذا المعنى في سورة (ن والقلم) في قصة أصحاب الجنة الذين بيتوا نية عدم إعطاء الفقراء حقهم من الزكاة، فأنزل الله الهلاك على جنتهم.

والظلم يجمع جميع المعاصي - من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة، هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم^(٢).

قال ابن حجر: «واستثنى جماعة ممن ذهب إلى عدم مؤاخذه من وقع منه الهم بالمعصية ما يقع في الحرم المكي ولو لم يصمم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاِمْ يُظَلِّمْ نَذْفَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾».

ويؤيد ذلك أن الحرم يجب اعتقاد تعظيمه فمن هم بالمعصية فيه خالف الواجب بانتهاك حرمة.

وتعقب هذا البحث بأن تعظيم الله أكد من تعظيم الحرم ومع ذلك فمن هم بمعصيته لا يؤاخذه فكيف يؤاخذه بما دونه؟

ويمكن أن يجاب عن هذا بأن انتهاك حرمة الحرم بالمعصية تستلزم انتهاك حرمة الله، لأن تعظيم الحرم من تعظيم الله، فصارت المعصية في الحرم أشد من المعصية في غيره وإن اشترك الجميع في ترك تعظيم الله تعالى، نعم من هم بالمعصية قاصدا

(١) أخرجه الإمام أحمد ٧/١٥٥ (٤٠٧١)، والبخاري ١٦/٥٠٨، وابن أبي حاتم ٨/٢٤٨٣

عن ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه ابن كثير ٥/٤١١ وذكر آثاراً أخرى. وانظر: الدر المنثور ١٠/٤٥٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٣١. باختصار.

الاستخفاف بالحرم عصى، ومن هم بمعصية الله قاصدا الاستخفاف بالله كفر، وإنما المعفو عنه من هم بمعصية ذاهلاً عن قصد الاستخفاف»^(١).

وعلى هذا فالآية مخصصة لقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(٢).

﴿ثالثاً: عظم حسد النصارى وحقدهم على البيت ومن يعظمون البيت:﴾

فإن هجومهم على مكة لم يكن بسبب فعل الأعرابي، وإنما جعلوا فعله حجة للاعتداء على الكعبة، وهذا الحسد والبغض فيهم لأهل الإسلام قائم لازم منهم إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿رابعاً: أن خونة الأمة مخذولون:﴾

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة وصاروا عيوناً له وجواسيس وأرشدوه إلى بيت الله العتيق ليهدمه، لعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهم الناس، ولعنهم الله ﷻ، وأصبح قبر أبي رغال^(٣) رمزاً للخيانة والعمالة، وصار ذلك الرجل مبعوضاً في قلوب الناس.

﴿خامساً: حقيقة المعركة مع أعداء الله:﴾

في قول عبدالمطلب في القصة: (سنخلي بينه وبين البيت فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة) «وهذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوة العدو وحشوده فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحدة أمام قدرة الله وبطشه ونقمته، فهو سبحانه واهب الحياة، وسالها أي وقت شاء»^(٤).

(١) فتح الباري ١١/٣٢٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الطلاق باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران (٥٢٦٩). ومسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس (١٢٧).

(٣) حيث ورد أنه هو الذي وجه أهل الطائف ليدل أبرهة على طريق الكعبة. انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٠-٥٤، وجامع البيان ٢٤/٦٤٠-٦٤٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٨٣-٤٨٦ وقال الشيخ أكرم العمري: وأما إسناد الطبري إلى قتادة فحسن.. السيرة النبوية الصحيحة ١/٩٧.

(٤) السيرة النبوية لأبي فارس ص ١١٢.

تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

عنونها البخاري في صحيحه سورة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾^(١)، وسميت سورة قريش في المصاحف وكتب التفسير لوقوع اسم قريش فيها ولم يقع في غيرها^(٢).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

السورة مكية عند جماهير العلماء^(٣)، قال ابن عطية: بلا خلاف^(٤).
أما عدد آياتها: (٤) آيات، وكلماتها: (١٩) كلمة، وحروفها: (٧٣) حرفاً^(٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠.

(٤) المحرر الوجيز ١٥/٥٧٤.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩٠.

مناسبتها لما قبلها:

«أشارت سورة «الفيل» إلى هذه المنّة العظيمة التي امتن بها الله ﷻ على «قريش» إذ دفع عن بلدهم الحرام، وعن بيته الحرام هذا المكروه، وردّ عنهم هذا البلاء، وأخذ المعتدئ على حرمة هذا البيت أخذ عزيز مقتدر.. وبهذا وجدت قريش في هذا البلد أمنها، ووجدت في جوار البيت الحرام حماها، وصار لها في قلوب العرب مكانة عالية، وقدر عظيم، لا يستطيع أحد أن يحدث نفسه بسوء ينال به أحدا من أهل هذا البلد الحرام، وقد رأى ما صنع الله بمن أراد به أو بأهله سوءا..»

وجاءت سورة «قريش» بعد هذا، وكأنها تعقيب على حادثة الفيل، ونتيجة لازمة من نتائج هذه الحادثة.. ولهذا وصل كثير من العلماء هذه السورة بسورة الفيل، وجعل اللام في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ لام تعليل، متعلقا بقوله تعالى: ﴿جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.. أي جعلهم كعصف مأكول لا يلاف قريش»^(١).

ثالثاً: موضوعها:

١- الأمر بتوحيد الله تعالى صراحة ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ وبالإشارة إلى أثر نعم الله تعالى على العباد.

٢- أن عادة الناس مع طول إلفهم للنعم ينسونها، كما نسيت قريش أمنها في بيت الله وفي رحلاتها حيث كانوا يلقبون بآل الله فلا يُمسُون بسوء في أسفارهم.

٣- الامتنان على قريش بنعمة الأمن والرزق.

﴿وهذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى، يقول: أهلكت أصحاب الفيل لتألف أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتها﴾^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۖ إِ إِلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ﴾ أي: اعجبوا لإلف قريش، وأمنهم، واستقامة مصالحتهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، وتيسير ذلك؛ لجلب ما يحتاجون إليه، وعليه ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أي: فليشكروا، وليعبدوا ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ وهو الكعبة - الذي شرفوا به، وليوحدوه ويخلصوا له العبادة، لأنه ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (١).



المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول: نعم الله تعالى على قريش:

قال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾.

عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خلال: أي منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابه، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله ﷻ عشر سنين لا يعبد غيره، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن. ثم تلاها رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ (١).

فمكة منطقة لا زرع فيها ولا ماء فمن باب أولى ألا يكون فيها تجارة ولا حركة اقتصادية، ومع ذلك فقد جعل الله لأهل هذا البيت - وهو الكعبة - تجارة يكتسبون فيها، حيث كانت لهم رحلتان: رحلة إلى اليمن في الجنوب في الشتاء، ورحلة إلى الشام في الشمال في الصيف، ولولا تيسير الله لهم هاتان الرحلتان لم يكن بالبيت مقام، ولولا تثبيت الله للأمن بجوارهم للبيت - لم يستطيعوا العيش.

فقد مكن الله لهم السير في الأرض للتجارة برحليتي الشتاء والصيف، لا يخشون عاديًا يعدو عليهم، وبذلك أمنهم من المجاعات، وأمنهم من المخاوف، لِمَا وَقَرَّ فِي نفوس العرب من حرمتهم، لأنهم سُكَّانُ الْحَرَمِ وَعُمَّارُ الْكَعْبَةِ.

(١) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي ١/ ٣٤ وهو في المستدرک ٢/ ٥٣٦ وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وللشيخ الألباني مبحث حول هذا الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤) وذهب إلى تحسينه، والله أعلم.

وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة؛ كبلاد الحبشة، ورد القبائل عنهم فلا يغير على بلدهم أحد، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت] فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفاً منهم.

ولقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة عن طريق القوافل إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف.

ومع ما كان عليه حال الأمن في شعاب الجزيرة من سوء، وعلى ما كان شائعاً من غارات السلب والنهب، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغربية، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان وسلام وطمأنينة، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الربحتين فصارتا لهم عادة وإلفاً.

وهذا الفضل كان بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة].

المطلب الثاني: إلف نعم الله تعالى:

قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ] والإيلاف: مصدر أألف بهمزتين بمعنى أألف^(١)، أي: أن قريشاً كانت لهم عادةً يَلْزَمُونَهَا وهي رحلة الشتاء والصيف.

(١) جامع البيان ٢٤/٢٤٠ - ٢٥١.

وقريش: لقب الجد الذي يجمع بطوناً كثيرةً وهو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وجميع أهل مكة هم قريش، وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم.

وقوله ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عطف بيان من ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ وهو من أسلوب الإجمال فالتفصيل للعناية بالخبر ليتمكن في ذهن السامع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ [غافر]. حكاية لكلام فرعون^(١).

وهذا افتتاح مبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل حيث أن فيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور. فيتعلق ﴿لِإِيلَافِ﴾ بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾

قال الطبري: «إن هذه اللام بمعنى التعجب، وإن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»^(٢).

«وتقديم هذا المجرور للاهتمام به إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام، وهذا التقديم كذلك جعله شرطاً لعامله فاقرن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط»^(٣) قال في الكشاف: «أي: أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة»^(٤).

«والمراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدتهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترامهم، بل من سافر إليهم وسار معهم

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٥-٥٥٦ باختصار.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦٤٩.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٤.

(٤) الكشاف ٤/٢٣٥ باختصار.

أمن بهم، هذا حالهم في أسفارهم، ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيَتَحَفَّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَ الْبَطْلِ يُؤْفُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: (١)].

وهذا الإلف وهذه العادة جعلتهم ينسون الله تعالى ولا يعبدونه حق العبادة بل كانوا يشركون معه غيره. ولذلك أمرنا الله دائماً بالتفكير وتذكر نعمه سبحانه، فنعم الله لا تحصى ولا تعد، فكل ما في الإنسان من خير فهو من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْمُرُ مِنَ نِعْمَةٍ فَنِنُ اللَّهُ﴾ [النحل: ٥٣] فالإنسان إذا أمعن التفكير والتذكر يعيش دائماً مع الله وحمده وشكره بكل أنواع الحمد والشكر.

المطلب الثالث: قصة الرحلة:

وكان الذي سن لهم هاتين الرحلتين: هاشم بن عبد مناف، وقصة ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أصحاب الإيلاف هاشم وإخوته الثلاثة عبد شمس والمطلب ونوفل، وأن كل واحد منهم أخذ حبلاً - أي عهداً - من أحد الملوك الذين يمرون في تجارتهم على بلادهم - وهم: ملك الشام وملك الحبشة وملك اليمن وملك فارس. فأخذ هاشم هذا من ملك الشام وهو ملك الروم، وأخذ عبد شمس من نجاشي الحبشة، وأخذ المطلب من ملك اليمن، وأخذ نوفل من كسرى ملك فارس.

وكانوا يجعلون جُعللاً لرؤساء القبائل وسادات العشائر التي يمر بها طريق تجارتهم - يُسمى الإيلاف أيضاً - يُعطونهم شيئاً من الربح، ويحملون إليهم متاعاً، ويسوقون إليهم إبلاً مع إبلهم، ليكفوهم مؤونة الأسفار، وهم يكفون قريشاً دفع الأعداء، فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن وإلى الشام (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٩١.

(٢) المنمق في أخبار قريش ٨ / ١، الأوائل للعسكري ٢ / ١، وانظر: الجامع للقرطبي ٢٠ / ٢٠٥. والتحرير والتنوير ٣٠ / ٥٥٦ - ٥٥٧.

وقيل: أنهم كانوا يعتریهم خصاصة، فإذا لم يجد أهل بيت طعامًا لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباء، وبقوا فيه حتى يموتوا جوعًا، ويسمى ذلك الاعتفار^(١)، فحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة فهِمُّوا بالاعتفار، فبلغ خبرهم هاشمًا - لأن أحد أبنائهم كان تربيًا لأسد بن هاشم - فقام هاشم خطيبًا في قريش، وقال: إنكم أحدثتم حدثًا؛ تَقْلُونَ فيه وتكشر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم، ثم جمع كل بني أبي علي رحلتين للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم، ولم تزل الرحلتان من إيلاف قريش حتى جاء الإسلام وهم على ذلك^(٢).

❖ ولذا ذكّرهم الله الرحلتين على سبيل الامتنان والالتزام فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۖ﴾. ولا يمتنع اجتماع ذلك كله - بل وغيره - من الأسباب، وأيًا ما كان الأمر فالرحلة آية عظيمة من الله لقريش على وجوب إفراده بالربوبية والإلوهية دون ما سواه من الأصنام والأنداد التي لا تنفعهم بل تضرهم.

❖ **المطلب الرابع: وجوب شكر الله تعالى على نعمه بإخلاص العبادة له:**

قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۖ﴾

أي: «أمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت، وكفاهم المؤونة، وكانت رحلتهم في

(١) قال ابن فارس: «بالراء من العفر، وهو التراب، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحدا بعد واحد». نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٥، وانظر: تاج العروس ٣٢١٦، واللسان ٥٨٣/٤.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/٢٥٨، وذكرها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٥، والتحريير والتنوير ٣٠/٤٩٠.

الشتاء والصيف فلم يكن لهم راحة في شتاء ولا في صيف ﴿أَطْعَمَهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿مِن جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ أو ألفوا الرحلة، فكانوا إذا شاءوا ارتحلوا وإذا شاءوا أقاموا، فكان ذلك من نعم الله عليهم (١).

أما الأمن الذي آمنهم الله منه هو: الأمن من العدو والأمن الصحي، وجميع أنواع الأمن التي يطمئن إليها الإنسان (٢). فأمرُوا أن يَألفوا عبادة رب مكة والمنعم عليهم برحلة بالإطعام والأمن كالفهم رحلة الشتاء والصيف (٣).

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ إذ هو الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة، وتنال من ورائها ما تنال، فهو ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ﴾ وكان الأصل بحسب حالة أرضهم أن يجوعوا، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع ﴿وَأَمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾، وكان الأصل بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئته من حولهم أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف! فهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس، ويشير الخجل في القلوب.

فالذي يستحق أن يعبد هو ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الذي برحمته استطعت المعيشة من الرحلات والأمن، والشكر يجب أن يكون لـ ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ لا إلى الأصنام والأوثان والأحجار، فلا ينبغي للعاقل أن يصرف أعماله - سواءً قلبية أو ظاهرة - إلا للخالق سبحانه، فهو الذي خلق وربى وأعطى، وكل ما في الوجود فمنه سبحانه، فكيف نطلب من غيره!! أو نصرِف شيئاً من العبادة لغيره!! فهو خطاب للبشر جميعاً على مدار الزمان. فإن جزاء المنعم أن يشكر ولا يكفر، وأن يعبد ولا يشرك معه أحد، وأن يطاع ولا يعصى، هذه هي الحقيقة التي يذكرها الله لقريش وكل من يأتي بعدهم.

(١) جامع البيان ٢٤/٢٤٠-٦٥١.

(٢) المصدر السابق ٢٤/٦٥٦.

(٣) المصدر السابق ٢٤/٦٥٣.

﴿ إن ما نعيشه من نعمة الصحة والأموال والأولاد والأمن وغيرها.... كلها من الله وحده، جعل لها أسباباً على أيدي بعض البشر، فالمعطي الحقيقي هو الله، ومن المعروف أن مَنْ أعطى يجب أن يُشكر، وكلما زاد العطاء وجب أن يزداد الشكر، فكيف إذا كانت كل النعم من المعطي سبحانه ألا يستحق أن يشكر!! ﴾



تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِهِ
الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ
يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها ونزولها ومناسبتها:

تُسمى سورة أرايت الذي^(١)، وسورة اليتيم^(٢)، وسورة أرايت^(٣)، والدين^(٤)،
والتكذيب^(٥)، والماعون^(٦).
وهي مكية عند الجمهور^(٧).

- (١) اللباب لابن عادل ١٦ / ٤٦٥، تفسير أبي زمين ٢ / ٣٢٩، الجواهر الحسان للثعالبي ٤ / ٤٤٤.
- (٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٣، فتح القدير ٥ / ٧١١.
- (٣) جامع البيان ٢٤ / ٦٢٧، وفي بعض كتب التفسير.
- (٤) نظم الدر ١٠ / ٢٣، تفسير السراج المنير (٥٢٩٨).
- (٥) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٣.
- (٦) روح المعاني ٣٠ / ٣٠٩، وفي معظم المصاحف والتفاسير.
- (٧) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٣، جامع البيان ٢٤ / ٦٢٧، فتح القدير ٥ / ٧١١، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٤٩٣.

أما عدد آياتها: (٧) آيات، وكلماتها: (٢٥) كلمة، وحروفها: (١٢٥) حرفاً^(١).

مناسبتها لما قبلها:

«جاء في سورة «قريش» تنويه عظيم بشأن الشَّع من الجوع، والأمن من الخوف، حيث لا حياة بغير طعام، ولا طعم لحياة بغير أمن! وجاءت سورة «الماعون» لتضرب - والحديد ساخن - كما يقولون - على أوتار هذه القلوب الجافية، ولتهز تلك المشاعر الجامدة، التي عرفت طعم الشَّع بعد الجوع، وذات هناة الأمن بعد الخوف، حتى تندب بالمعروف، وتسخو بالخير، قبل أن تنسى لذعة الجوع، ورعدة الخوف»^(٢).

ثانياً: موضوعها:

- ١- التعجب من حال من كذبوا بالبعث.
- ٢- ذم أعمال وصفات الذين كذبوا بالبعث.
- ٣- ذم من منَع رعاية اليتيم والمسكين واحتقاره.
- ٤- ذم من يتأخر عن الصلاة ويسهو عنها.
- ٥- ذم من يمنع تبادل المنافع بين الناس عن طريق الإعارات أو التبرع.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي: أرايت حال ذلك الذي يكذب بالبعث والجزاء؟ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفع اليتيم بعنف وشدة عن حقه؛ لقساوة قلبه، وكذلك ﴿وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: ولا يحض غيره على إطعام المسكين، فكيف له أن يطعمه بنفسه؟

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩١.

(٢) المصدر السابق.

﴿قَوْلُ الْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: فعذاب شديد للمصلين الذين هم عن صلاتهم لاهون، لا يقيمونها على وجهها، ولا يؤدونها في وقتها. ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي: الذين هم يتظاهرون بأعمال الخير مراعاة للناس. ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: ويمنعون إعارة ما لا تضر إعارته من الأنية وغيرها، فلا هم أحسنوا عبادة ربهم، ولا هم أحسنوا إلى خلقه^(١).



المبحث الثاني

وقفات مع الصفات المذمومة في السورة

إنَّ المرء قد يتصف ببعض الصفات المذمومة المذكورة في السورة، وقد يتصف بها جميعاً، وكلُّ مذموم منهى عنه. فإنَّ المراد النهي عن السيئات بأنواعها والترهيب من فعلها أو مقارنة أسباب ذلك.

المطلب الأول: التكذيب بالدين:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾

أي: «أرأيت يا محمد الذي يكذب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه»^(١)، فهو مكذب بـ«المعاد والجزاء والثواب»^(٢).

والاستفهام يفيد «التشويق على تعرّف المكذب، وأن ذلك مما يجب على المسلم ليحترز عنه وعن فعله، وفيه تعجب منه»^(٣).

وهذا يفيد تشويه من أنكر إنكار البعث، بما ينشأ عن إنكاره من المذام ومن مخالفة للحق، وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الباعث الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة، حتى يصير ذلك لها حُلُقاً إذا شبت عليه، فزكت وانسقت إلى الخير بدون كلفة، ولا احتياج إلى أمر، ولا مخافة ممن يقيم عليه العقوبات بخلاف من إذا اختلّى بنفسه وآمن الرقباء جاء بالفحشاء والأعمال النكراء^(٤).

(١) جامع البيان ٢٤/٦٥٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٩٣.

(٣) روح المعاني ٣٠/٣٠٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٥.

وإن التكذيب بالدين - سواء بالكلية أو ببعضه - يقود المرء إلى المهالك الدينية والدينية ولذا جعل الله الإيمان باليوم الآخر وما فيه أساس من أسس الإيمان التي لا يقوم بدونها وربى عباده على الإيمان به وهذا ملاحظ في القرآن عمومًا وفي معالجة غرائز النفس خصوصًا، وكذلك في السور المكية عمومًا والمفصل خصوصًا.

المطلب الثاني: قهر اليتيم ومنعه الطعام وعدم الإحسان إليه:

بعد عرض الاستفهام يَنْتَظِرُ من يسمع الاستفهام أين تتجه الإشارة؟ وما هي النتيجة؟ ومن هو الذي يكذب بالدين؟

وإذا الجواب ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾﴾. والمعنى أشار إليه قوله تعالى: ﴿كَأَبَلٌ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر].

ومعنى ﴿يَدْعُ﴾ يدفع بعنف وقهر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾﴾ [الطور] (١).

«فهذا الذي يكذب بالدين، هو الذي يدفع اليتيم عن حقه، ويظلمه، ولا يحث غيره على إطعام المحتاج من الطعام» (٢).

ونسبة الطعام إلى المسكين إشعار بأن المسكين مالك لما يعطى له كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٤٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٥٥﴾﴾ [المعارج]، فهو بيان لشدة الاستحقاق، وفيه إشارة للنهي عن الامتنان» (٣).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٦ مختصرًا.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦٥٨-٦٥٩ مختصرًا.

(٣) روح المعاني ٣٠/٣١٠.

«وَكُنِّيْ بِنَفِي الْحِضِّ عَنِ الْإِطْعَامِ لِأَنَّ الَّذِي يَشْحُ بِالْحِضِّ عَلَى الْإِطْعَامِ هُوَ بِالْإِطْعَامِ أَشْحُ»^(١).

﴿فضل رعاية اليتيم والمسكين﴾:

وقد بين الله تعالى في مواضع أخرى من كتابة فضل رعاية المحتاج عمومًا، قال تعالى في وصف صفات عباد الله الأبرار وما أعد لهم في الجنة: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينَتِنَا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان].

وبين الرسول ﷺ فضل رعاية اليتيم خصوصًا فقال: «أنا وكافل اليتيم هكذا في الجنة» وأشار بالسبابة والوسطى^(٢).

و«اليتيم في الناس: فقد الصبي أباه قبل البلوغ»^(٣). ولا يطلق على الرجل بعد البلوغ لحديث «لا يتم بعد احتلام»^(٤).

بخلاف المرأة فاليتيمة تطلق في الشرع^(٥) حتى على «البكر البالغة التي مات أبوها قبل بلوغها، فلزمها اسم اليتيم، فدُعيت به وهي بالغة. وقيل: المرأة لا يزول عنها اسم اليتيم ما لم تتزوج فإذا تزوجت ذهب عنها»^(٦).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا (٦٠٠٥) واللفظ له، ومسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث ٥/٦٨٩.

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء متى ينقطع اليتيم (٢٨٧٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٠٩).

(٥) انظر: عون المعبود ٦/١١٧.

(٦) النهاية في غريب الحديث ٥/٦٨٩.

المطلب الثالث: السهو عن الصلاة:

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

ولبيان الموضوع أكثر نعرض للنقاط التالية:

﴿أولاً: خطورة تأخير الصلاة والغفلة عنها:﴾

فالويل هو: «الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم من المنافقين الذين يصلون، لا يريدون الله ﷻ بصلاتهم، وهم في صلاتهم ساهون إذا صلوا»^(١).

فالمقصود هم «المنافقون، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً، فيخرجها عن وقتها بالكلية، وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي»^(٢).

«والحمد لله الذي قال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم ساهون»^(٣).

إن السهو عن الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله، ويكفي أن الله وصف به هؤلاء المنافقين في هذه السورة وتوعدهم بأشد الوعيد قال الله تعالى:

﴿قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

(١) جامع البيان ٢٤/٦٥٩ مختصراً.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٩٣، وانظر: جامع البيان ٢٤/٦٦٣.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم عن عطاء ٨/٤٩٣.

وقال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة بأن تركهم للصلاة كان سبب من أسباب دخول النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصَلِّينَ ۚ﴾ [المدثر]، وقال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»^(١). وفي حديث جابر رضي الله عنه «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»^(٢).

وعن النبي ﷺ في الرؤيا التي رآها أنه قد رأى عذاب الذي يتكاسل عن الصلاة حيث قال: «أما الذي يثلغ^(٣) رأسه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة»^(٤).

﴿ثانياً: الواجب علينا تجاه الصلاة﴾

قال تعالى عن لقمان ووصيته لابنه: ﴿يَبْنِي أَقِيمِ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان: ١٧]

وأمر سبحانه بإقامة الصلاة فقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وإقامتها: تكون في وقتها، مع جماعة المسجد، والمشي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع. فإن «إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها»^(٥). سبب في تقويم حياة الناس وسلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف.

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الإمام الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١١٣)، وصحيح سنن ابن ماجه (١٠٧٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق أسم الكفر على من ترك الصلاة ١١٦ و ١١٧.

(٣) فيثلغ بها رأسه: يعني يشدخه يقال: ثلغت رأسه فأنا أثلغته ثلغاً إذا شدخته وهشمت جزءاً منه، انظر: غريب الحديث لابن سلام ٢٥ / ٢.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل (١١٣٤).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦ / ٣٣٨.

وإقامة الصلاة: دليل على صدق الإيمان. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿﴾ [الأنفال: ٣-٤].

وقد جعل الله تعالى الصلاة مدار قبول باقي الأعمال الأخرى كما قال رسول الله ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»^(١).

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون].

ولذا «كان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة، أو قام إليها: يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء، وأن يُحدِّث نفسه بشيء من الدنيا»^(٢). ولذا «قيل: الخشوع في الصلاة هو: جمع الهمة، والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر»^(٣).

«وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعتد له بها ثوابا لكان من المفلحين، وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا وسقوط القضاء فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً، وكانت السنن والأذكار عقيبتها جوابر ومكملات لنقصها، وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، واحتجوا بأنها: صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها ويسقط القضاء عنه كصلاة المرأى. قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولبها فكيف يعتد بصلاة فقدت

(١) أخرجه أبي داود، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه» ح (٨٦٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ح (١٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٠٣.

(٣) معالم التنزيل للبعوي ٥/٤٠٩، وينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي ٣/١١٦.

روحها ولبها وبقيت صورتها وظاهرها، قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه، وغايته أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدت روحها ولبها ومقصودها وصارت بمنزلة العبد الميت إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد يعتقه تقرباً إلى الله تعالى في كفارة واجبة فكيف يعتد بالعبد الميت^(١).

وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدي إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدي إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل!! أو مريضة أو دميمة أو قبيحة!! حتى يهدي إلى جارية ميتة بلا روح!! وجارية قبيحة!! فكيف بالصلاة التي يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى. والله «طيب لا يقبل إلا طيباً»^(٢) وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع؛ تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها وقد عُرِل ملكها وتعطل!!

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائماً بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنتى تصح عبودية رعيته وجنده، ومادتهم منه وعن أمره يصدرن وبه يأترون..

وقد قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(١) وليس السهو عنها تركها!! وإلا لم يكونوا مصليين. وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره. وإما عن الحضور والخشوع. والصواب: أنه يعم النوعين فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو

(١) وهذا على سبيل تصوير حال ذلك المصلي وتفكيراً من فعله، وجلباً لطلبه الخشوع في صلاته.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء، قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط؛ فهو تنبيه على التواعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى»^(١).

◉ ثالثاً: وما يعين على إقامة الصلاة وعدم السهو عنها:

١- الإخلاص لله تعالى في الصلاة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام].

٢- الإقلاع عن الذنوب: فإن العبد يحرم لذة الطاعة بالذنوب يصيبه^(٢).

٣- المحافظة على الصلاة في وقتها: قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء].

٤- الدعاء: قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

٥- الاستعداد للصلاة: كما قال ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(٣).

٦- فعل سنن الصلاة: كالترديد مع الأذان، والذكر بعد الأذان، والذكر بعد الوضوء، ولبس ثياب حسنة نظيفة، والذهاب إلى المسجد ماشياً بطمأنينة وسكينة، ودخول المسجد بالرجل اليمنى، ودعاء دخول المسجد، والصلاة في الصف الأول....

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٢٦.

(٢) انظر: ابن الجوزي في صيد الخاطر ص ٣٩٤، الجواب الكافي ١/ ٣٤ وفيض القدير ١/ ١١٩ ح (١٣٣) وفتاوى ابن إبراهيم ١٣/ ١٨٥ والدرر السننية ٢٠/ ٤٥٠ وفتاوى ابن باز ٦/ ٢٦٦ و٤٣٩ و٤٨/ ٢٣ والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١).

﴿ وإذا قام العبد المصلّي بهذا، وجاهد نفسه على القيام بكل أركان الصلاة وواجباتها وسننها وخشوعها؛ أحس بعد ذلك بمعنى قول الرسول ﷺ لبلال: «أرحنا بالصلاة يا بلال»^(١) وبقوله ﷺ «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٢). فلا يسهو عن الصلاة ولا يسهو في الصلاة.

المطلب الرابع: الرياء:

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾

«الذين هم يراؤن الناس بصلاتهم إذا صلوا، لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنونهم منهم، فيكفون عن سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، وهم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، يستبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام»^(٣).

﴿ والرياء هو: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها^(٤) .

قال الفضيل: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص الخلاص من هذين، وأن يعافيك الله منها»^(٥).

وهو ضد الإخلاص الذي هو: ألا تطلب لعملك شاهداً غير الله تعالى^(٦).

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب صلاة العتمة (٤٩٨٥)، مسند أحمد ٥ / ٣٦٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٣٩٤٠). وأحمد ٣ / ١٢٨ ح (١٢٣٥١). وصححه الحاكم على شرط مسلم ٢ / ١٧٤ ح (٢٦٧٦). سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤ / ٤٢٤ ح (١٨٠٩).

(٣) جامع البيان للطبري (٦٦٤ / ٢٤).

(٤) فتح الباري (٣٤٤ / ١١).

(٥) ومعالم التنزيل للبخاري ١ / ١٥٧، مدارج السالكين ٣ / ٩٥.

(٦) التعريفات للجرجاني (١٣-١٤).

﴿والفرق بين الرياء والسمعة: أن الرياء يكون في الفعل، والسمعة تكون في القول. وقيل: الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفي عمله ثم يحدث به الناس^(١). أو أن الرياء في كل ما يُرى، والسمعة في كل ما يُسمع. وهو أقرب إلى اللفظة: رياء، سمعة.

﴿والرياء اليسير من الشرك الأصغر الذي أخبر عنه النبي ﷺ حيث قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزئ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»^(٢).

ومن مضار الرياء:

١- من أعظم مضار الرياء ما ورد في قول النبي ﷺ: «من رآئى، رآئى الله به، ومن سمع؛ سمع الله به»^(٣) أي: «من رآئى بعمله وسمعه الناس - ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره - سمع الله به يوم القيامة الناس، وفضحه. وقيل معناه: من سمع بعيوب الناس وأذاعها؛ أظهر الله عيوبه. وقيل: أسمع المكروه. وقيل: أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه، ليكون حسرة عليه وقيل: معناه من أراد بعمله الناس؛ أسمع الله الناس، وكان ذلك حظه منه»^(٤).

(١) انظر: فتح الباري (١١/٣٤٤).

(٢) مسند أحمد ٥/٤٢٨/٢٣٦٨٠ قال: شعيب الأرنؤوط: حديث حسن رجاله رجال الصحيح، السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقائق، باب الرياء والسمعة (٦١٤٣). ومسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب من أشرك بعمله غير الله (٢٩٨٦).

(٤) شرح النووي على مسلم ١٨/١١٦.

٢- «الرياء محبط للأعمال المقترن بها مضيع لثوابها»، وقد يتعدى لغيرها من الأعمال فيرائي بها بعد أخلاصها.

٣- «الرياء سبب للمقت عند الله، والمرائي ملعون ومطرود من رحمة الله.

٤- «الرياء من كبائر المهلكات»^(١).

٥- الرياء غصن من شجرة في القلب، ثمرها في الدنيا: الخوف والغم وضيق الصدر وظلمة القلب. وثمرها في الآخرة: الزقوم والعذاب المقيم -أعاذنا الله منها.

٦- لا يسلم المرائي من أن يفتضح أمره في الدنيا فيسقط من أعين الناس وتذهب هيئته، ويسمع المكروه جزاء ما قدمت يداه^(٢).

ويكفي أن الرياء سبب لهلاك العبد يوم القيامة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت! ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت!! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

(١) ذكر هذه الثلاث ابن حجر في الزواجر ١/٤٧، والغزالي في الإحياء ٣/٣١٠ بتصرف.

(٢) نضرة النعيم ١٠/٤٥٦٧.

قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت!! ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار»^(١)»^(٢).

وتتلخص طرق معالجة الرياء وتجنبه في:

- ١- تذكر عظمة الله تعالى وحقارة العبد وضعف شكره لله وعبادته له.
- ٢- تذكر أن الجزاء من الله هو الجزاء الأوفى، وأن العبد لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً.
- ٣- مجاهدة النفس في دفع الرياء وتجنب أسبابه، ودعاء الله تعالى بذلك.

المطلب الخامس: منع الخير عن الغير:

قال تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٧)

«يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعة، يقال للماء الذي ينزل من السحاب ماعون»^(٣) «فالله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاونونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق؛ لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض»^(٤).

«أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ١٩٠٥.

(٢) انظر: الفوائد ص ٢٢٦.

(٣) جامع البيان ٢٤/٦٦٥-٦٦٦.

(٤) جامع البيان ٢٤/٦٧٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٩٥.

﴿فضل تبادل المنافع بين الناس عن طريق الإعارة أو التبرع﴾

لقد حث الإسلام على تبادل المنافع، وبهذا جاءت أحكام الشريعة مبنية على هذا الحق الإنساني العظيم ولذا قال الله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧).

وكان من صفات النبي ﷺ التي امتدحته بها أم المؤمنين خديجة ؓ واستنبطت من ذلك أنها من أسباب نجاته ونصرة الله له، والنجاة من الخزي: «والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» (١).

وقال ﷺ: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة؛ أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام» (٢).

وعن جابر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس» (٣).

وفي الآية نهي عن فعل ما يؤذي الناس ابتداءً من باب أولى، لأن من نهاهم عن ترك إسداء المعروف ابتداءً أوجب ترك الأذى ابتداءً، ومن تلك الصور:

(١) أخرجه مسلم، باب بدء الوحي للنبي ﷺ (١٦٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢ / ٤٥٣ / ١٣٦٤٦، والأوسط ٦ / ١٣٩، وقال الألباني حسن لغيره في صحيح الجامع (٢٦٢٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦ / ٥٨، ومسند الشهاب ١ / ١٠٨ (١٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٨٩)، والسلسلة الصحيحة (٤٢٦).

﴿نهى الشرع أن يمنع جاره من غرز خشبة في جداره أو ما في حكمها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره»^(١).

﴿وكذلك نهى عن كل ما يفسد الظن ومجالس الناس، ونهى عن الجلوس في الطريق لأنه يؤذي الناس إلا إذا قام بواجبها، عن حبس الماء فضل الماء.

وقد حث على ما يعين المجتمع على التلاحم والتآخي وحمل بعضهم بعضاً،
ومن أبرز تلك الصور:

﴿الحث على حقوق الجار، وحقوق الأخوة، والتبرع بالمنافع، وأداء الحقوق وافية، وحسن الظن، وبراءة الذمة.



(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره (٢٤٦٣)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب غرز الخشب في جدار الجار (١٦٠٩).

تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

المبحث الأول

مقدمته حول السور

﴿أولاً: تسميتها:﴾

سميت هذه السورة في جميع المصاحف والتفاسير «سورة الكوثر»^(١) وبذلك عنونها الترمذي^(٢). وعنونها البخاري في صحيحه سورة «إنا أعطيناك الكوثر»^(٣)، وعن البقاعي أنها تسمى «سورة النحر»^(٤).

﴿ثانياً: نزولها ومناسبتها:﴾

«وهي مكية عند الجمهور، واقتصر عليه أكثر المفسرين، قال ابن الجزري: أجمع من نعرفه على أنها مكية»^(٥)، وقيل مدنية في قول بعض أهل التفسير^(٦).

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٧٢.

(٢) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة الكوثر.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴿١﴾﴾.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٨ / ٥٤٧، والسراج المنير (٥٣٠٢). روح المعاني ٣٠ / ٣١٢.

(٥) النشر ١ / ١٩٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٢١٦، زاد المسير ٩ / ٢٤٧ وذلك اعتماداً على ذكر موضوع النحر فيها إن كان المقصود به الأضحية فإنما شرعت بالدينية. ولحديث أنس عن نهر الكوثر وسيأتي.

نزلت حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بئّر محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١)، وروي أن العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتّر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة^(٢).

وعندما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبور^(٣) المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٤).
أما عدد آياتها: (٣) آيات، وكلماتها: (١٠) كلمات، وحروفها: (٤٢) حرفاً^(٥).

مناسبتها لما قبلها:

«في سورة «الماعون»، توعّد الله الذين لا يقيمون الصلاة، ولا يؤدّون الزكاة لأنهم مكذبون بالدين، غير مؤمنين بالبعث والحساب، والجزاء - توعّد الله سبحانه هؤلاء، بالويل والهلاك، والعذاب الشديد في نار جهنم..
وفي مقابل هذا، جاءت سورة الكوثر تزفّ إلى سيد المؤمنين بالله واليوم الآخر،

(١) المحرر الوجيز عن عكرمة ٥/ ٥٣٠، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٢٣.

(٢) أخرجه ابن إسحاق بلاغا ١/ ٣٩٣ من سيرة ابن هشام. وانظر: جامع البيان للطبري ٣٠/ ٣٢٩، وابن كثير ٤/ ٥٦٠، والواحدي في أسباب النزول (٥٤١-٥٤٢)، والدر المنثور ٨/ ٦٥٢. ذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ١/ ٢١٩.

(٣) الصنبور والمنصبر والصنبيير: أي الضعيف الفرد الذي لا غناء عنده ولا امتناع. غريب الحديث ٢/ ٤٣٦.

(٤) غريب الحديث لإبراهيم الحربي ٢/ ٤٣٥، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٣)، وجامع البيان ٧/ ١٤٥ و١٤٢، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥) عن ابن عباس وعكرمة، وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ١/ ٢٢٥.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٢.

هذا العطاء الجزيل، وذلك الفضل الكبير من ربه.. ومن هذا العطاء، وذلك الفضل، ينال كل مؤمن ومؤمنة نصيبه من فضل الله، وعطائه على قدر ما عمل»^(١).

◉ ثالثاً: فضلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي أنفاً سورة» فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعذنيه ربي ﷺ، عليه خير كثير. هو حوض تردُّ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيختلج^(٢) العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي؟ فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»^(٣).

◉ رابعاً: موضوعها:

- ١- تتحدث عن فضل الله العظيم على رسوله الكريم تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه.
- ٢- هذه السورة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى، وسورة الشرح. يُسرِّي عنه ربه فيها، ويَعِدُه بالخير وأعطاه ما لم يعط أحداً من المرسلين، ويُوعدُّ أعداءه بالبتر، ويُوَجِّهه إلى طريق الشكر.
- ٣- تمثل صورة من حياة الدعوة، وحياة الداعية في أول العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ ودعوة الله التي يبشر بها؛ وصورة من رعاية الله

(١) المصدر السابق.

(٢) فيخْتَلِجُ: أي يُقْتَطِعُ ويُتَرَع. انظر: شرح السيوطي على مسلم ١٣٢/٢.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده
لنبيه ومرهوب وعيده لشانته.

٤- تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان «كثرة وفضًا وامتدادًا»، وحقيقة
الضلال والشر والكفران، «قلةً وانحسارًا وانبتارًا». وإن ظن الغافلون غير
هذا وذاك^(١).

خامسًا: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ أيها النبي الخير الكثير في الدنيا
والآخرة، ومن ذلك نهر ﴿الْكَوْثَرِ﴾ في الجنة الذي حافته خيام اللؤلؤ المجوّف،
وطينه المسك.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ أي: فأخلص لربك صلاتك كلها، واذبح ذبيحتك له
وعلى اسمه وحده.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: إن مبغضك ومبغض ما جئت به من الهدى
والنور، هو المنقطع أثره، المقطوع من كل خير^(٢).

* * *

(١) انظر: إيجاز البيان للصابوني ص ٣١٧.

(٢) التفسير الميسر ٦٠٢.

المبحث الثاني وقفات مع الآيات

المطلب الأول: نعمة الله وعطائه:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(١) وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾:

﴿إِنَّا﴾: افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ، والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الأخبار بعطاء سابق.

وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم^(١)، وتذكير بأن المعطي هو الله وحده ليتعلق القلب بمالك الملك والقادر على كل شيء، وأما من سواه فهو لا يضر ولا ينفع.

المسألة الثانية: ما هو الكوثر؟

﴿الْكَوْثَرَ﴾ أي: «الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته: ما يعطيه الله لنبه ﷺ يوم القيامة؛ من النهر الذي يقال له ﴿الْكَوْثَرُ﴾»^(٢).

فعن أنس ابن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيْتُ الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يُشَقْ شَقًّا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مسكه ذفرة، وإذا حصاه اللؤلؤ»^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٥٧٢/٣٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٥.

(٣) أخرجه أحمد ١٥٢/٣ (١٢٥٢٦)، قال شعيب الأرنؤوط «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وأبي يعلى ٢٣٦/٦ (٣٥٢٩)، وقال محمد بن سليم: إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥١٣).

وفي رواية: «ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة - أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيها طير أعناقها مثل أعناق الجُرْز». فقال عمر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: «أكلها أنعم منها»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عُرِّجَ بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال: «أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»^(٢).

وعن أبي عبيدة رضي الله عنه، عن عائشة رضي الله عنها قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَىٰكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: «نهر عظيم أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم، شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم»^(٣).

وفي رواية قالت: «نهر في بطنان الجنة». قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: «وسطها».. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه^(٤). وفي رواية قال ابن عباس الكوثر: الخير الكثير^(٥).

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسره بالنهر أيضاً، قال رضي الله عنه: «الكوثر: نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل»^(٦).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة طير الجنة (٢٥٤٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥١٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الكوثر (٤٩٦٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الكوثر (٤٩٦٥).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الكوثر (٤٩٦٦).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الحوض (٦٥٧٨).

(٦) جامع البيان ٢٤/٦٤٥، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥٠١.

وتفسير الكوثر «بالخير الكثير: يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر والنبوة والقرآن وثواب الآخرة»^(١).

وهذا النص يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ ما هو كثير فائض غزير، غير ممنوع ولا مبتور، فإذا أراد أحد أن يتبع هذا ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الذي أعطاه الله لنبیه فهو واجده حيثما نظر أو تصور. إنه ﴿الْكَوْثَرَ﴾، الذي لا نهاية لفيضه، ولا إحصاء لعوارفه، ولا حدّ لمدلوله. ومن ثم تركه بلا تحديد يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد.

المطلب الثاني: شكر الله على نعمه:

قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ﴾

أي: «كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته - فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام]... وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]»^(٢).

كُلُّ ذَلِكَ «شكرًا له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفاء له، وخصك به»^(٣)، «وإضافة ﴿رَبِّ﴾ إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي ﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربه ويرأف به»^(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٥٠٢ باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٥٠٣ باختصار.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٦٥٥.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.

و«خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات، ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته»^(١).

وفي الآية إشارة إلى عناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من الشرك وآثاره. فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح. ومن ثم فهو يتبع الشرك في كل مظهره، وفي كل مكانه؛ ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة، أم تسرب إلى تقاليد الحياة، فالحياة وحدة؛ ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كلاً وجزءاً، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة، كما في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة وتقاليد الحياة.

المطلب الثالث: دفاع عن النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: «مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر. وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ»^(٢).

«والأبتر: الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بُنُوهُ ينقطع ذكره، وحاشا وكلا!! بل قد أبقي الله ذكره على رؤس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٥ / ٨.

ولقد صدق فيهم وعيد الله. فقد انقطع ذكرهم. بينما امتد ذكر محمد ﷺ. ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم، في صورة باهرة واسعة المدى!

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتراً. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتَر مهما ترعرع وزها وتجبر في وقت من الأوقات. ولكن البشر ينخدعون ويغترون.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق؛ أين هم؟! وأين ذكراهم؟! وأين آثارهم إلى جوار الكوثر؟! وصدق الله العظيم. وكذب الكائدون الماكرون.

◉ وهذه بشرى لأتباع الرسول ﷺ السائرين على طريقه وهديه، فإن الله سيتولى الدفاع عنهم وسيبقي ذكرهم الحسن. وفي المقابل فإن أعداء الرسول ﷺ يجب عليهم أن يعودوا عودوا إلى الله قبل أن يبقى الذكر القبيح لهم والعذاب المهين في الآخرة.

◉ **عندها نقول للجميع:** هلا حرصتم على بقاء ذكركم بعد موتكم، بإخلاص الدين لله وحده، وتجريد المتابعة للهادي الأمين ﷺ.



المبحث الثالث

إعجاز سورة الكوثر

(١) اللغة التي اختارها الله لكتابه:

هذه اللغة العربية قد اصطفها الله على غيرها من اللغات، وشرفها على غيرها من اللغات، وتكلم بها ﷺ بهذا القرآن الذي تحدى به الثقيلين الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله، فأقصر سورة في كتاب الله هي سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات وقد تحدى الله الثقيلين الإنس والجن على مر الدهور منذ أنزلت هذه السورة بمكة أن يأتوا بسورة من مثلها، قدر ثلاث آيات فقط، وإلى الآن جاء كثير من المحاولات الفاشلة وباءت كلها بالفشل، بل إن تلك المحاولات إذا سمع العقلاء بعضها ضحكوا واشتد هزؤهم منه - كمحاولات مسيلمة الكذاب - فهي غاية في السخافة وعدم الانسجام، وذلك أنه اتجه إلى تركيب الألفاظ! دون النظر إلى الإعجاز في المعاني، والإعجاز اللغوي والأسلوبي، والإعجاز الغيبي.. وغيرها من أنواع الإعجاز التي جعلها الله في القرآن، فاختيار هذه اللغة هو اختيار من عند الله ﷻ واصطفاء منه لا معقب لحكمه، ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا فَعَلَ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء].

وقد ظهرت قيمة اللغة وشرفها في تنوع الأسلوب في السورة بين الخبر والطلب، فتضمنت خبران وأمران، وجاء الأمران بين الخبرين مما يبين عظيم المنّة وأهميّة الشكر بالعبادة.

(٢) من لطائف السورة:

قال الزركشي: «ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها؛ لأن

السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمر أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة.

﴿ فذكر هنا في مقابلة البخل: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴾؛ أي: الكثير.

﴿ وفي مقابلة ترك الصلاة: ﴿ فَصَلِّ ﴾؛ أي: دُم عليها.

﴿ وفي مقابلة الرياء: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾؛ أي: لرضاه لا للناس.

﴿ وفي مقابلة منع الماعون: ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾، وأراد به التصدق بلحم الأضاحي.

فاعتبر هذه المناسبة العجيبة^(١).

ومن اللغات المهمة والميزات الفريدة لسورة الكوثر التي تميزها عن باقي السور القرآنية: أن كل آية من آياتها الثلاث تنفرد بموضوع مستقل عن غيرها. فهي تحمل ثلاثة مواضيع مستقلة في ثلاث آيات. وهذا من نادر السور القرآنية.

٣) فائدتان مستنبطتان من السورة:

الأولى: في قوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ استنبط منه بعض أهل العلم أن

ذبح الأضحية يكون بعد صلاة العيد.

الثانية: في قوله ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ بإضافة كاف الخطاب إلى كلمة رب وفيها تشريف

وتكريم للنبي ﷺ، وفيها من إفادة الحصر والقصر والتخصيص ما فيها أي لربك وحده لا لغيره.

٤) في سورة الكوثر حديثان عن الغيب:

الأول: الكوثر وهو نهر في الجنة.

والثاني: الإخبار بأن مبغض النبي هو الأبر بقطع ذكره الطيب إلى يوم القيامة.

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي / ١ / ٣٩.

٥) إجمال الألفاظ وثناء المعاني (١):

إنَّ في هذه السورة من المعاني البديعة والفصاحة التي تسدُّ بها عن معارضته الذريعة، وسورة الكوثر فيها من الألفاظ البديعة الرائقة التي اقتضت بها أن تكون مبهجة، والمعاني المنيرة الفائقة التي اقتضت بها أن تكون معجزة. ولقد وجد بها عشرون فائدةً تدل كل الدلالة على إعجازها وهي مقسمة كما يلي:

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ١ ﴾ : ثمانية فوائد.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ٢ ﴾ : ثمانية فوائد.

﴿ إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ٣ ﴾ : ستة فوائد.

- ١ - منها: دلالة استهلال السورة على أنه - تعالى - أعطاه كثيرًا من كثير.
- ٢ - ومنها: إسناد الفعل للمتكلم المعظم نفسه.
- ٣ - ومنها: إيراده بصيغة الماضي تحقيقًا لوقوعه كـ «أتى أمر الله» .
- ٤ - ومنها: تأكيد الجملة بـ «إن» .
- ٥ - ومنها: بناء الفعل على الاسم ليفيد بالإسناد مرتين.
- ٦ - ومنها: الإتيان بصيغة تدل على مبالغة الكثرة.
- ٧ - ومنها حذف الموصوف بالكوثر؛ لأنَّ في حذفه من فرط الإبهام ما ليس في إثباته.
- ٨ - ومنها: تعريفه بـ «أل» الجنسية الدالة على الاستغراق.

(١) ملخصًا من مقال في ملتقى أهل التفسير كتبه: موسى أحمد زغاري- في ٠٧-٠٣-٢٠٠٦م

- ٩- ومنها: فاء التعقيب الدالة على التسبب كما تقدم في «الأنعام» سبب الشكر والعبادة.
- ١٠- ومنها: التعريض بمن كانت صلواته ونحوه لغير الله تعالى.
- ١١- ومنها: أن الأمر بالصلاة إشارة إلى الأعمال الدينية التي هي الصلاة وأفضلها كالأمر بالنحر.
- ١٢- ومنها: حذف متعلق «أنحر» إذ التقدير: فصلّ لرّبك وانحر له.
- ١٣- ومنها: مراعاة السجع، فإنه من صناعة البديع العاري عن التكلّف.
- ١٤- ومنها: قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ في الإتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنی دلالة على أنه المرّبي، والمصلح بنعمه، فلا يلتمس كلّ خير إلا منه.
- ١٥- ومنها: الالتفات من ضمير المتكلم إلى المخاطب في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾.
- ١٦- ومنها: جعل الأمر بترك الاحتمال للاستئناف وجعله خاتمة للإعراض عن الشانئ.
- ١٧- لم يُسمَّ الله الشانئ ليشمل كلّ من اتصف - والعياذ بالله - بهذه الصفة القبيحة، وإن كان سبب نزولها رجلاً معيناً.
- ١٨- ومنها: التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة، على أنه لم يتصف إلا بمجرد قيام الصفة به، من غير أن يؤثر في من شأنه شيئاً - ألبتة - لأن من شأنه شخصاً، قد يؤثر فيه شأنه.
- ١٩- ومنها تأكيد الجملة بـ «إنّ» المؤذنة بتأكيد الخبر.

٢٠- ومنها: الإتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد إن جعلنا «هُوَ» فصلاً، وإن جعلناه مبتدأً فكذلك يفيد التأكيد إذ يصير الإسناد مرتين.

٢١- ومنها: تعريف الأبر بـ «أل» المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة، كأنه قيل: الكامل في هذه الصفة.

٢٢- ومنها: إقباله تعالى على رسوله بالخطاب، من أول السورة إلى آخرها^(١).

هذا وعجائب بيان القرآن الكريم لا تنتهي عند حد، فنسأل الله ﷻ أن ينعم علينا بفهم كتابه الكريم فهماً صحيحاً.

(٥) وخلاصة ما ذكره المفسرون في السورة^(٢):

لقد أفرد إعجاز السورة الزمخشري بكتاب مطبوع، وباستقراء ما سطره ثلاثة من المفسرين (الفخر الرازي، وابن عادل الحنبلي، والبقاعي) يظهر ثلاث توجهات أساسية لإثبات إعجاز سورة الكوثر:

أ- إعجاز السورة داخليً وذاتيً، أي: أن تأمل السورة ذاتها وتدبر مفرداتها كافيًا لبيان الإعجاز.

ب- إعجاز السورة باعتبار غيرها من السور، ومدار هذا التوجه على اعتبار مناسبات بين سورة الكوثر سورة الماعون المرتبة في المصحف قبلها وسورة الكافرون المرتبة بعدها، وذلك داخل سياق مصغر، وطمح بعض المفسرين إلى تأكيد فرضية علاقات مطردة في السياق الموسع، كالمفسر فخر الدين الرازي رحمته الله.

(١) ذكر هذه الفوائد: الباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/٥٢٤-٥٢٦.

(٢) ملخصاً من مقال بعنوان: لقط الجواهر من سورة الكوثر، كتبه في ملتقى أهل التفسير أبو عبد المعز- في

ج- إعجاز السورة باعتبار الواقع الخارجي، ومدار هذا التوجه على تأكيد العلاقة بين سورة الكوثر وأحداث تاريخية معينة، وهو المعروف بالأخبار بالمغيبات^(١).



(١) يراجع كلامهم على السورة، مفاتيح الغيب للرازي ٣٢/٣٠٧-٣٢٢، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/٥٢٤-٥٢٦ فصل في المعاني التي احتوتها هذه السورة، ونظم الدرر ٨/٥٤٧-٥٥٢ وقد أطلال في التاريخي.

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا
أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

- ١- تسمى المقشقشة وهو من قشقش المريض إذا صح وبرأ. أي: المبرئة من الشرك والنفاق.
- ٢- سورة الإخلاص (١).
- ٣- عنوانها البخاري بقوله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٢).
- ٤- وتسمى سورة العبادة.
- ٥- وسورة الدين (٣).
- ٦- وفي كثير من المصاحف تسمى الكافرون؛ حيث إنها تخاطب كفرة

(١) الكشف ٤/ ٢٣٨، روح المعاني ٣٠/ ٣١٩، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٩ نقلاً عن بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي.

مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون، فهذه السورة وسورة الإخلاص تشملان على كلمة التوحيد في النفي والإثبات^(١).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي عند الجمهور مكية^(٢)، فقد كان المشركون عرضوا على الرسول ﷺ أن يعبدوا الله سنةً، على أن يعبد نبي الله ﷺ آلهتهم سنةً، فأنزل الله هذه السورة.

فروي أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف، لقوا رسول الله، فقالوا: يا محمد، هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبّد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شرّكناك فيه، وأخذنا بحظنا منه؛ وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك، كنت قد شرّكتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى انقضت السورة^(٣).

وعن ابن عباس ﷺ أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه ما لا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء، فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح. قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ١ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٢ الآية، وأنزل الله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ٣ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٤ ﴿بَلِ اللَّهِ فَأَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ٥ [الزمر] ٤^(٤).

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٨.

(٢) الدر المنثور ١٥/ ٧١١، روح المعاني ٣٠/ ٣١٩، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٩.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٧٠٤، الدر المنثور ١٥/ ٧١٢.

(٤) جامع البيان ٢٤/ ٧٠٤، والطبراني في الصغير ١/ ٢٦٥، وانظر: الدر المنثور ١٥/ ٧١١، وضعّف ابن

حجر إسناده في الفتح ٨/ ٧٣٣.

أما عدد آياتها: (٦) آيات، وكلماتها: (٢٨) كلمة، وحروفها: (٩٤) حرفاً^(١).

مناسبتها لما قبلها:

«الكوثر الذي أعطاه الله ﷺ النبي صلوات الله وسلامه عليه - كان في مقابله البتر والحرمان من كل خير لمن يشأ هذا النبي، الذي وضع الله ﷻ، الخير كله في يده.. وهذا مجمل ما تحدثت عنه سورة «الكوثر» وفي سورة «الكافرون» التي تأتي بعد هذه السورة، موقف بين النبي - صلوات الله وسلامه عليه - وما أعطاه الله سبحانه من خير كثير، يفيض من النبع الأعظم، وهو الإيمان بالله - وبين المشركين الذين عزلوا أنفسهم عن هذا الخير، وحرموا أن ينالوا شيئاً منه.. وفي هذا الموقف يعلن النبي عن هذا الخير الذي من الله به عليه، وأنه ممسك به، مقيم عليه، لا يصرفه عنه شيء من هذه الدنيا..»

فهو لا يعبد غير الله ﷻ، ولا يتحول عن عبادته أبداً، ولا ينظر إلى شيء وراءه من مال وبنين!!^(٢).

ثالثاً: فضلها:

ورد في الحديث «أنها تعدل ربع القرآن»^(٣).

ومن فضلها أنها تقرأ في مواضع وهي:

١ - ركعتي الطواف: عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾^(١) وب﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢) في ركعتي الطواف^(٤).

(١) التفسير القرآني للقرآن ٩٣/٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣). والحاكم في المستدرک

١/٧٥٤ رقم ٢٠٧٨. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٦).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

٢- ركعتي الفجر: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعتي الفجر^(١).

٣- الركعتين بعد المغرب: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعا وعشرين مرة أو: بضع عشرة مرة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾^(٢).

٤- عند النوم: عن جبلة بن حارثة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١﴾ حتى تمر بأخرها، فإنها براءة من الشرك»^(٣).

٥- عند الوتر: عن عبد العزيز بن جريج رضي الله عنه قال: سألتنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١﴾ وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١﴾ وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ والمعوذتين^(٤).

وعلى هذا فكان يفتح بهما يومه في الفجر، ثم يفتح بها ليله في سنة المغرب، ثم يختم ليله بهما في صلاة الوتر.

٦- تقرأ في الرُّقَى: عن علي رضي الله عنه قال: لدغت النبي صلى الله عليه وسلم عقرب وهو يصلي، فلما

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٦)

(٢) أخرجه أحمد ٢/٢٤ (٤٧٦٣) قال: الأرئوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٨).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم (٥٠٥٥)، والمعجم الكبير ٢/٢٨٧ ح (٢١٩٥)، والمعجم الأوسط ٢/٢٧٥ ح (١٩٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٢).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦٢).

فرغ قال: «لعن الله العقرب، لا تدع مصلياً ولا غيره» ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾^(١).

وفي الحث على قراءتها وتكرارها في كل هذه المواضع إشارة إلى تعظيم قدرها ومعانيها، وتأکید لما اشتملت عليه، فإن الشارع الحكيم قصد تكرارها في كل هذه المواضع لتتكرر في النفوس هذه المبادئ الأصيلة حتى تكون عقيدة راسخة لا تززعها الزوابع ولا تزيلها الفتن القوامع، والله أعلم.

رابعاً: موضوعها:

والغرض الذي اشتملت عليه السورة هو:

- ١- تبييس للكفار من أن يوافقهم النبي ﷺ في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال.
- ٢- وأن دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك^(٢).

فهذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه^(٣).

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ أي: قل -أيها الرسول- للذين كفروا بالله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ بالله. ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام والآلهة الزائفة،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٩١، وفي الصغير ٢/ ٨٧ (٨٣٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨)، وانظر: الدر المنثور ١٥/ ٧١٩.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٥٠٧ بتصرف.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ من إله واحد، هو الله رب العالمين المستحق وحده للعبادة، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ من الأصنام والآلهة الباطلة، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ مستقبلاً ﴿مَا أَعْبُدُ﴾. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أصررتم على اتباعه، ﴿وَلِي دِينٌ﴾ الذي لا أبغي غيره^(١).

* * *

(١) التفسير الميسر ٦٠٣.

المبحث الثاني

وقفات مع السورة

المطلب الأول: إعلان الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال البراءة:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ وفيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿قُلْ﴾ للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يُراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص، منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه، وإلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه^(١).

ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتوحة بالأمر بالقول وهي خمس سور: الجن والكافرون والإخلاص والمعوذتان. وهناك آيات في وسط السور مفتوحة بالقول كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَمَوْتَ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] وغيرها.

وأمر آخر نلاحظه من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهو أنه أمر إلهي حاسم موحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده. ليس لمحمد ﷺ فيه شيء. إنما هو الأمر الذي لا مرد لأمره، الحاكم لا راد لحكمه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

المسألة الثانية: ابتداء خطابهم بالنداء لإبلاغهم لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقي عليهم^(٢)، وإشارة إلى أن هذا الخطاب موجه لكل: كافر مصر على كفره، في كل زمان، وفي كل مكان، فهو سبحانه يخاطب بهذا القرآن القرون الأولى والقرون المتأخرة، «والنداء شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨١.

(٢) المصدر السابق.

الخطاب هم كفار قريش»^(١).

المسألة الثالثة: أنهم «نودوا بوصف الكافرين تحقيراً لهم، وتأييداً لوجه التبرؤ منهم، وإيداناً بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهم لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم»^(٢).

«فالخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه، فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذي طمعوا فيه، وحدّثوا به أنفسهم، وأن ذلك غير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات، وآيس نبي الله ﷺ من الطمع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً، فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا، إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضهم كافراً»^(٣).

ناداهم بحقيقتهم، ووصفهم بصفتهم، إنهم ليسوا على دين، وليسوا بمؤمنين؛ وإنما هم كافرون، وفي هذا البراءة منهم ومن معبوداتهم بانفصال لا يرجى معه اتصال بحال من الأحوال.

المطلب الثاني: لا يجتمع دين إسلام ودين الكافرين:

المحور الأول: لا نرضى الكافرين ولو مرة على حساب ديننا:

قال تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أن عبادتي غير عبادتكم، ومعبودي غير معبودكم، والمقصود أن الله يقول لنبيه محمد ﷺ تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهراً وباطناً»^(٤).

وفيه تحذير من اتباعهم مهما كان الأمر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٧/٨.

(٢) التحرير والتنوير ٥٨١/٣٠.

(٣) جامع البيان ٧٠٤/٢٤ مختصراً وبتصرف.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

ءَامُونًا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَانقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٦٩﴾
 [آل عمران]. وقال جل ذكره محذرا منهم، وكاشفا عن حقيقة الكافرين وما تنطوي عليه نواياهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَامَا عِنتُهُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧٨﴾ هَآأَنْتُمْ ءَأُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفُوكُمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ كُمُ الْآنَ مِمَّنِ الْعَظِيطُ قُلْ مُؤْتُوا بَعِيطُكُمْ إِنَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّوْهُم وَإِن نُّصِبْكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَ اللّٰهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُجِيطٌ ﴿١٨٠﴾ [آل عمران].

المحور الثاني: العبادة المقترنة بالشرك ليست عبادة:

﴿وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا ءَاعْبُدُ﴾ أي: «لعدم إخلاصكم في عبادته، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة»^(١).

أي: «لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣] فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله»^(٢).

المحور الثالث: توكيد مفهوم التوحيد والبراءة من الشرك:

قال شيخ الإسلام «القرآن ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت]، وهو ﴿الرَّكِتَابِ أَحْكَمَتِ ءَايَاتُهُ وَتَمَّ فُصِّلَتِ مِّن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود]. ولو أن رجلاً من بني آدم له علم،

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٨ / ٨.

أو حكمة، أو خطبة، أو قصيدة، أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغير لعلهم أنه قصد في ذلك حكمة، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى، فكيف بكلام رب العالمين، وأحكم الحاكمين، لا سيما وقد قال فيه: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: (١)].

الأول: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾. فيدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً^(٢). فعبادتكم غير عبادتي، ومعبودكم غير معبودي، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على اللزوم والثبات، فنفي حدوث ذلك أولاً ودل على لزوم ذلك النفي وثباته ثانياً فليس هنا تكرار إنما هو لغرض لا يفيد الأول.

فقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ «توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها. وفيه رمز إلى تنزهه ﷻ من عبادة الأصنام من سالف الزمان وإلا لقال: ولا أنا عابد ما كنا نعبد»^(٣).

الثاني: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهذا التكرار لتوكيد الفقرة الثانية. كي لا تبقي مظنة ولا شبهة، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المعزز بكل وسائل التكرار والتوكيد.

﴿فالمقصود:﴾ «توكيد مفهوم التوحيد والبراءة من الشرك من ذلك، إلا أن بين الآيتين اختلاف في الصيغة. ففي الآية الأولى أتى بصيغة نفي الفعل، وفي الثانية أتى بصيغة نفي اسم الفاعل. والفرق بين الفعل واسم الفاعل أن الفعل يدل على الحدوث

(١) مجموع الفتاوى ١٦ / ٥٥١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨٣.

والتجدد والوقوع ولو لمرة واحدة، والاسم يدل على الوصف اللازم ويدل على الثبوت، فكأنه قال: إرضاءكم بعبادة آلهتكم لا يقع مني ولو لمرة، وأن هذا ليس وصفي ولا شأني^(١).

والمراد: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿﴾ في الماضي، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿﴾ في المستقبل.

الثالث: أن ذلك تأكيد محض.

قال بعض الأئمة: «المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك. ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم^(٢).

قال شيخ الإسلام: «والنفي بالجملة الثانية أعم من النفي بالأولى فإنه قال ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبده في الزمن الماضي، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر. كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى.

فقوله ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ يتناول الحال والاستقبال أيضاً، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله، فنفسى لا تقبل ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدهم قط، ولو كنتم عبدهم في الماضي فقط، فأني معبود

(١) الضوء المنير ٦/ ٤٧٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٥٠٧-٥٠٨، مختصراً وبتصرف.

عبدتموه في وقت فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات»^(١).

المحور الرابع: التمييز لا التميع:

قال تعالى في ختام السورة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢)

كما قال تعالى موجهاً نبيه ﷺ في التعامل مع المعاندين منهم: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) [يونس]، وقال في صفة عباده من اتباع المرسلين عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَّا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾^(٤) [القصص].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام^(٥). «وسمى دينهم ديناً لأنهم اعتقدوه وتولوه»^(٦).

﴿إِنَّ التَّوْحِيدَ مِنْهَجٌ، وَالشِّرْكَ مِنْهَجٌ آخَرَ وَلَا يَلْتَقِيَانِ﴾. فالتوحيد منهجٌ يتجه كله إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد المنهج الذي يتلقى منه المكلف عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه. هذا هو التلقي عن الله وحده بلا شريك. ومن ثم تقوم حياة المكلفين كلها على هذا الأساس، غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صور الظاهرة والخفية.

﴿إِنَّ الْكُفْرَ كُفْرٌ. وَالْإِسْلَامُ إِسْلَامٌ. وَالْفَارِقُ بَيْنَهُمَا بَعِيدٌ. وَالسَّبِيلُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْكُفْرِ بِجَمَلْتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِجَمَلْتِهِ. الْإِنْسِلَاخُ مِنَ الْكُفْرِ بِكُلِّ مَا فِيهِ وَالْهَجْرَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِكُلِّ مَا فِيهِ. فَلَا تَرْقِيعَ، وَلَا أَنْصَافَ حُلُولٍ، وَلَا تَقَاءَ فِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، مَهْمَا تَزَيَّتِ الْجَاهِلِيَّةُ بَزِيِّ الْإِسْلَامِ، أَوْ أَدَعَّتْ هَذَا الْعُنْوَانَ!

﴿وَإِنَّ التَّصَوُّرَاتِ الشَّرْكَِيَّةَ تَتَلَبَّسُ أحياناً بتصورات الإيمان عند من عرف العقيدة

(١) مجموع الفتاوى ١٦ / ٥٥١ - ٥٥٣ مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٢٢٩.

ثم انحرف عنها، وهو يظن بنفسه الهدى!! وفي الوقت الذي تتعقد انحرافاتهما وتتلوى!! وتختلط عقائده وأعماله الصالح بالفاقد فيها، قد يُغري الداعية بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد، وهذا الإغراء في منتهى الخطورة!

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي: هو ديني التوحيد الخالص، الذي يتلقى ويتوجه في عقيدته وشريعته كلها من الله دون شريك في كل نواحي الحياة والسلوك.

وبغير هذه الخاتمة؛ سيبقى الغبش والمداهنة واللبس والترقيع. والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة. إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح.

ثم إن النبي ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميز عليهم فقال: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١)، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ عَمَلٍ عَلَىٰ شَاكِلَةٍ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء]. وأمره ربه أن يتبرأ منهم إن كذبوه فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس].

قال شيخ الإسلام: «وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها. فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون في أي زمان كان، وينفي جواز عبادته لمعبودهم، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ. فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً»^(٢).



(١) أخرجه أبو داود كتاب اللباس باب في لبس الشهرة (٤٠٣١)، وحسنه غيره الألباني في صحيح الترغيب

(٢٠٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى ١٦ / ٤٥٤.

تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾
فَسُبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

المبحث الأول

مقدّمات حول السور

أولاً: تسميتها:

تُسمى:

- ١- التوديع^(١) إشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى.
- ٢- وُسِّمَتْ هذه السورة في كلام السلف سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾^(٢).
- ٣- وفي المصاحف ومعظم التفاسير «سورة النصر» لذكر نصر الله فيها فسميت بالنصر^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٢٩.

(٢) كما ورد ذلك عن عطاء انظر: جامع البيان ٢٤/٦٧٠، وتفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٩، والجامع

لأحكام القرآن ٢٠/٢٣١.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٨٩.

٤- وفي جامع الترمذي «سورة الفتح»^(١) لوقوع هذا اللفظ فيها، فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح].

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي مدنية باتفاق^(٢) وهي آخر سورة نزلت جمعاً^(٣).

عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة رضي الله عنه قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت^(٤).

وجاء في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها وقال: «إِنَّهُ قَدْ نُعِيَ إِلَيَّ نَفْسِي»، فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نُعِيَ إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت^(٥).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر رضي الله عنهم، فكان بعضهم وَجَدَ في نفسه، فقال: لِمَ يُدْخِلُ هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رُؤِيَ أنه دعاني فيهم يوماً إلا ليريهم. فقال: ما

(١) أخرجه الترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الفتح.

(٢) روح المعاني ٣٠/٣٢٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٢٩.

(٤) أخرجه مسلم كتاب التفسير (٣٠٢٤).

(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٧/١٦٧، والدارمي ١/٥١ (٧٩)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٩٦٩)، وأحمد في المسند بنحوه ١/٣٤٤ (٣٢٠١) وقال شعيب الارنؤوط: إسناده حسن. ولفظ (ولا أراه إلا حضر أجلي) عن عائشة رضي الله عنها: أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٢٤، ٣٦٢٦)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٤٥٠).

تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أذكلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٢﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول^(١).

قالت عائشة ؓ: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أممي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾»^(٢).

أما عدد آياتها: (٣) آيات، وكلماتها: (٢٦) كلمة، وحروفها: (٧٤) حرفاً^(٣).

مناسبتها لما قبلها:

«آذن النبي -صلوات الله وسلامه عليه- المشركين في سورة «الكافرون» التي سبقت هذه السورة - آذانهم بكلمة الفصل بينه وبينهم «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

ووراء هذه الكلمة الحاسمة القاطعة، التي أخذ بها النبي طريقه إلى ربه ومعبوده، واتخذ بها المشركون طريقهم إلى آلهتهم ومعبوداتهم - وراء هذه الكلمة تشخص الأبصار إلى مسيرة كل من النبي والمشركين الذين أخذوا طريقاً غير طريقه، لترى ماذا ينتهي إليه الطريق بكل منهما..

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٤٩٧٠).

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٤.

وتختفي عن الأبصار طريق أهل الشرك، وتبتلعهم رمال العواصف الهابّة عليهم من صحراء ضلالهم.

﴿أما الطريق الذي أخذه النبي صلوات الله وسلامه عليه، فها هو ذا النصر العظيم يلقاه عليه، وها هو ذا الفتح المبين ترفرف أعلامه بين يديه، وها هو ذا دين الله الذي يدعو إليه، قد فتحت أبوابه، ودخل الناس فيه أفواجا﴾^(١).

ثالثاً: موضوعها:

«والغرض منها:

- ١- الوعد بنصر كامل من عند الله - وفيه فتح مكة - والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بجهاد وفتح وبدون ذلك.
- ٢- الإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ﷺ إلى ربه.
- ٣- وعد من الله بأنه سيغفر له مغفرة تامة، لا مؤاخذه عليه بعدها في شيء؛ مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير»^(٢).
- ٤- توضيح السورة طبيعة العقيدة وحقبة المنهج الإسلامي، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، هذه القمة السامقة الوضيئة التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام. ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبى الأمر الإلهي الكريم بالولاء والبراء.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ أي: إذا تمّ لك - أيها الرسول -

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٨٩ باختصار وتصرف.

النصر على كفار قريش، وتم لك فتح «مكة» ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي: ورأيت الكثير من الناس يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي: إذا وقع ذلك فتهيأ للقاء ربك بالإكثار من التسبيح بحمده والإكثار من استغفاره، إنه كان تواباً على المسيحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم^(١).

* * *

(١) التفسير الميسر ٦٠٣.

المبحث الثاني وقفات مع السورة

المطلب الأول: النصر والفتح:

أولاً: معنى النصر والفتح:

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١)

المراد بهذا النصر: نصر الرسول ﷺ على قريش (١)، بل ونصره على كل من قاتله من الكفار، فإن عاقبة النصر كانت له (٢). واستعمال الماضي في معنى المضارع لتحقيق وقوعه، ولأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة (٣).

المراد بالفتح هاهنا: «فتح مكة قولاً واحداً» (٤) عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: كنا بماء (٥) ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا. فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري. وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح (٦) فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم... (٧).

(١) جامع البيان ٧٠٥/٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٠/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير ٥٨٨/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١١/٨، وجامع البيان من غير ذكر: قولاً واحداً ٧٠٥/٢٤.

(٥) أي: اسم منزل ينزل فيه الناس يمرون عليه في أسفارهم.

(٦) أي: تنتظر فتح مكة حتى تعلن إسلامها.

(٧) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب من شهد الفتح (٤٣٠٢).

﴿ثانياً: النصر من الله وحده:﴾

﴿نَصْرَ اللَّهِ﴾ إنه نصر الله يجيء به الله؛ في الوقت الذي يقدره، وفي الصورة التي يريدتها، وللغاية التي يرسمها. وليس للنبي ﷺ ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يدٌ. وليس لأشخاصهم فيه كسب. وليس لذواتهم منه نصيب. وليس لنفوسهم منه حظ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].

«وإضافة النصر إلى الله تشعر بتعظيم هذا النصر، وأنه نصر عزيز خارق للعادة، أوجد الله أسبابه ولم تجر على متعارف تولد الحوادث عن أمثالها»^(١)، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصْرُوا اللَّهَ يَصْرُكُ وَيُنْتَبِتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد].

﴿ثالثاً: من علامات النصر أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً:﴾

قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٢﴾ «يجوز أن تكون الرؤية علمية أي وعلمت علم اليقين أن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. ويجوز أن تكون رؤية بصرية بأن رأى أفواج وفود العرب يردون إلى المدينة يدخلون في الإسلام، وذلك سنة تسع وقد رأى النبي ﷺ ببصره ما علم منه دخولهم كلهم في الإسلام بمن حضر معه الموقف في حجة الوداع فقد كانوا مائة ألف من مختلف قبائل العرب»^(٢)، وعلم بمن جاءه من الوفود من تلك القبائل يبايعونه على الإسلام حتى سمي ذلك العام عام الوفود.

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٩٠.

(٢) المصدر السابق ٣٠ / ٥٩٢.

و﴿دين الله﴾ هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. والدخول في الدين: هو «النطق بكلمة الشهادة، والتزام أحكام الدين الناشئة عن تلك الشهادة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَفْوَاجًا﴾ «زُمَرًا، وفوجًا فوجًا»^(٢)، والمقصود: جماعات جماعات، بدلًا من أن كانوا قبل ذلك أفرادًا أفرادًا، وحتى لو دخلت القبيلة كلها في دين الله لكانت أوزاعًا وليس كلها دفعة واحدة لما يرون من معاداة قومه له واستضعاف العرب له، واستنكارهم مخالفته إياهم شركهم. وعامة الناس تُبَعُّ للغلبة فلما رأوا نصرته على قومه وفتح الله له دخلوا أفواجًا أفواجًا. وهذا مما ينبغي للداعية مراعاته، بأن يهتم بأفراد الناس وطلاب الحق والعلم ولو كانوا قلة فإذا علم الله صدقه وإخلاصه نشر الخير والصلاح على يديه وتبعه الناس أفواجًا.

المطلب الثاني: الواجب عند النصر وأثره التربوية:

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٣)

المحور الأول: الواجب عند النصر:

يفسر هذه الآية حال النبي المصطفى والقُدوة المجتبي ﷺ حين فتح الله عليه مكة، فقد «دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام»^(٣)، «وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذفنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح»^(٤) مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب،

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٢.

(٢) جامع البيان ٢٤/٧٠٥.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام (١٣٥٨).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية (٤٠٣١).

وإفاضة النصر العزيز^(١)، وعندما دخل مكة فاتحًا -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد^(٢) -وهو ابن مولى رسول الله ﷺ- ولم يردف أحدا من أبناء بني هاشم وأبناء أشرف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة^(٣).

والسبب في ذلك «أنهم قالوا: أما إذا ظفر بأهل الحرم، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل -الذين لم يقدر أحد على ردهم- فليس لنا به يدان، فتبين من هذا القياس المنتج هذه النتيجة البديهية بقصة أصحاب الفيل ما رتبته الله إلا إرهابًا لنبوته ﷺ وتأسيسًا لدعوته فألقوا بأيديهم وأسلموا قيادهم حاضرهم وبأيديهم.

ولما كان التقدير: فقد سبح الله تعالى نفسه بالحمد بإبعاد نجس الشرك عن جزيرة العرب بالفعل قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: نزه أنت بقولك وفعلك -بالصلاة وغيرها- موافقة لمولائك لما فعلت تسبيحًا ملبسًا ﴿بِحَمْدِ﴾ أي: بكمال ﴿رَبِّكَ﴾ الذي أنجز لك الوعد بإكمال الدين وقمع المعتدين، المحسن إليك بجميع ذلك -لأن كله لكرامتك وإلا فهو عزيز حميد على كل حال- تعجبًا لتيسير الله على هذا الفتح ما لم يخطر بالبال، وشكرا لما أنعم به سبحانه عليه من أنه أراه تمام ما أرسل لأجله، ولأن كل حسنة يعملها أتباعه له مثلها.

ولما أمره ﷺ بتزويده عن كل نقص ووصفه بكل كمال مضافا إلى الرب؛ أمره بما يفهم منه العجز عن الوفاء بحقه لما له من العظمة -المشار إليها بذكره مرتين بالاسم

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص ٣٩٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة رقم (٤٠٣٨).

(٣) انظر: فتح الباري ٨/ ٤ فقد ذكر الروايات والجمع بينها والترجيح، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي

الأعظم، الذي له من الدلالة على العظم والعلو الى محل الغيب الذي لا مطمع في دركه مما تنقطع الأعناق دونه- فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ أي: اطلب غفرانه - إنه كان غفارًا - إيدانًا بأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم، فإن الأمان الأول الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه الى معدنه في الرفيق الأعلى والمحل الأقدس، وكذا فعل ﷺ يوم دخل مكة مطأطأ رأسه حتى إنه ليكاد يمس واسطة الرحل؛ تواضعا لله تعالى، وإعلاما لأصحابه أن ما وقع إنما هو بحول الله تعالى»^(١).

فالأوجب عند حصول النصر والظفر أمران:

أولاً: ذكر الله تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده. فإنك حينئذ لاحق به، وذائق ما ذاق من قبلك من رُسله من الموت^(٢).

«فنزّهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه، حامدًا له ﷺ زيادة في عبادته والثناء عليه سبحانه، لزيادة إنعامه سبحانه عليك.

﴿فالتسبيح التنزيه المقتضي للتلفظ بكلمة سبحانه الله.

﴿وتحميده وهو: إثبات ما يليق به تعالى من المحامد له، لعظم ما أنعم سبحانه به عليه، وأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا لحكمة لا يعرفها إلا هو ﷻ﴾^(٣).

ثانيًا: الاستغفار:

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ٢٥٥.

(٢) جامع البيان ٢٤/ ٧٠٧.

(٣) روح المعاني ٣٠/ ٣٢٩ بتصرف.

﴿ وفي أمره بهذا الاستغفار بعد النصر فوائد منها: «ليكون ذلك منه شكرًا لله تعالى على نعمه، لأن تجديد النعم يوجب تجديد الشكر، وأنه نعي إليه نفسه، فطلب منه أن يجد في عمله»^(١).

﴿ وكذلك «في الاستغفار توجهًا بالذات لحال العبد وتقصيراته،

ويجوز أن يكون طلب الاستغفار بعدهما لما في مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار. وفي تقديمها- النصر والفتح- على الدعاء تعليم أدب الدعاء، وهو: أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الشاء على المسؤول منه ﷺ»^(٢).

﴿ والاستغفار ينفي الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توقُّفه في القلب البشري؛ فمن هنا علمنا الاستغفار.

﴿ والاستغفار يكون مما ساور القلب أو تدسس إليه - في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكره الغامر- من ضيقٍ بالشدة، واستبطاءٍ لوعد الله بالنصر، وزلزلةٍ كالتي قال الله عنها: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة] فمن هذا يكون الاستغفار.

﴿ والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان- مهما كان- ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم] فمن هذا التقصير يكون الاستغفار. وغير هذه مما يوجب الاستغفار لله على كل حال.

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٦١.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٣٣١.

«فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين؛ من أنه: قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني نصلي ونستغفره -معنى مליح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات، فيستحب لأمر الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات،

وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص ﷺ يوم فتح المدائن»^(١).

وقد لبى رسول الله ﷺ أمر ربه فعن عائشة ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثُر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» فقلت: يا رسول الله أراك تكثُر من قول «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»؟ فقال: «إن ربي كان أخبرني أنى سأرى علامة فى أمتى، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابا، فقد رأيتها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾»^(٢).

وكان يقول ﷺ: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» وفى رواية مسلم «وانى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة»^(٣).

المحور الثانى: قبول الله توبه عباده:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ «أى على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم»^(٤). «وتوّاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٥١١.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخارى كتاب الدعوات باب استغفار النبي ﷺ فى اليوم والليله (٦٣٠٧)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبه والاستغفار باب استحباب الاستغفار (٢٧٠٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٢٣٣.

سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين»^(١) «فقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات، هي: إنَّ وكان، وصيغة المبالغة في التواب، وتنوين التعظيم فيه»^(٢).

«وفي اختيار ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ على غفارًا مع أنه الذي يستدعيه قوله ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ تنبيه على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة والندم والعزم على عدم العود»^(٣).

فالله تعالى يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وهو سبحانه يقبل توبتهم قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعُونَ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَعَفَاءٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه].

المحور الثالث: العناية بإصلاح القلب:

وذلك بإبعاد القلب عن كل عجب يساوره أو غرور ينتابه، ألا ترى أنه بعد هذا الجهاد العظيم والنصر المبين يؤمر بالذكر والاستغفار.

إنه سجل مليء بالطاعة والعبادة، فعلى ماذا يكون الاستغفار؟!.

إن هذا الاستغفار حتى يذكر القلب لخالقه، ويرد الفضل لصاحبه، فلا يحس القلب بالعجب، وبهذا يسلم العمل ويحصل الفوز والنجاح. بل ويستمر العمل والعطاء، فلا يتوقف لأنه اكتفى بالإنجاز السابق، بل يرى من ثمرة انجازه السابق إخبائه لمولاه، وتتبع ما يرضاه، وشكره على ما أولاه.

وفي واقعنا المرّ نجد أن نهاية الأعمال الناجحة المثمرة المديح والرفعة وادعاء الفضل وتعداد الجهود والأسباب المبدولة، ونحو ذلك مما يفسد قلب صاحبه، ويحبط العمل ويضيع بركته وأجره.

(١) فتح القدير ٥/٥١٦.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٦.

(٣) تفسير حقي ١٧/٤٦٠.

تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝۱ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝۲ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝۳
وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝۴ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝۵﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: أسمائها:

- ١- سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي جامع الترمذي وأكثر كتب التفسير «سورة تبت»^(١) تسمية لها بأول كلمة فيها.
- ٢- وسميت في بعض المصاحف وفي بعض التفاسير «سورة المسد»^(٢) لوروده فيها.
- ٣- وسميها جمع من المفسرين «سورة أبي لهب» على تقدير: سورة ذكر أبي لهب^(٣).
- ٤- وعنونها أبو حيان «سورة اللهب» ولم أره لغيره^(٤).

(١) جامع البيان ٦٧٣/٢٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١٤/٨، الجامع لأحكام القرآن ٢٣٤/٢٠ وغيرهم.

(٢) معالم التنزيل ٥٧٨/٨، ابن أبي حاتم ٤٦٣/١٢، الدر ٦٦٥/١٥، والتحرير والتنوير ٥٩٩/٣٠.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي ٣٦١/٤.

(٤) البحر المحيط ٥٢٤/٨.

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

قال القرطبي: هي مكية بإجماع^(١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صعدَ النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكُم، أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٢).

أما عدد آياتها: (٥) آيات، وكلماتها: (٢٣) كلمة، وحروفها: (٧٧) حرفاً^(٣).

مناسبتها لما قبلها:

«كانت سورة «النصر» مدداً من أمداد السماء، تحمل بين يديها هذه البشريات المسعدة للنبي وللؤمنين، وتريهم رأئ العين عزة الإسلام، وغلبته، وتخلع عليهم حلل النصر، وتعقد على جبينهم إكليل الفوز والظفر.

وتحت سنابك خيل الإسلام المعقود بنواصيها النصر، والتي هي على وعد من الله به - حطام هذا الطاغية العنيد الذي يمثل ضلال المشركين كلهم، ويجمع في كيانه وحده، سفههم، وعنادهم، وما كادوا به للنبي والمؤمنين.. إنه أبو لهب.. وامرأته حمالة الحطب»^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٤، وانظر: التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (٤٩٧٢). ومسلم كتاب الإيمان

باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٨) بزيادة، وانظر: جامع البيان ٢٤/٧١٥.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩٥.

(٤) المصدر السابق.

ثالثاً: موضوعها:

- ١- زجر أبي لهب وزوجته على إساءتهما للنبي ﷺ ووعيده على ذلك، وإشارة إلى الوعيد لكل من تسول له نفسه النيل من رسولنا محمد ﷺ وشرعه.
- ٢- هذه السورة تبين عناية الله بعباده الصالحين - وعلى رأسهم الرسول ﷺ، في الدنيا والآخرة.
- ٣- فيها بيان مصير الذي يعارض الدعوة ويؤذي الرسول ﷺ أو دعوته إلى الله ﷻ.
- ٤- تضمنت أن الله تعالى يتولى الدفاع والرد على المسيئين والمستهزئين بالرسول ﷺ أو شريعته.
- ٥- فيها بيان الذم العظيم، والحزي العظيم يوم القيامة للمكذبين والمستهزئين، كما وعد الله تعالى نبيه بذلك في بداية الأمر بالتبليغ، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٣﴾ [المزمل].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

- ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١﴾ أي: خسرت يدا أبي لهب وشقي بإيذائه رسول الله محمداً ﷺ، وقد تحقق خسران أبي لهب. ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ أي: ما أغنى عنه ماله وولده، فلن يرداً عنه شيئاً من عذاب الله إذا نزل به.
- ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ٤﴾ أي: سيدخل ناراً متأججة، هو وامراته التي كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق النبي ﷺ؛ لأذيته.
- ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٥﴾ أي: في عنقها حبل محكم الفتل من ليف شديد خشن، تُرْفَعُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، ثم تُرْمَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلِهَا (١).

المبحث الثاني وقفات مع الآيات

المطلب الأول: دعاء القرآن على المؤذنين للرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا﴾ «خسرت يدا أبي لهب وهو دعاء عليه من الله»^(١)، «وخص اليدين بالتباب؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما، أي خسرتا وخسر هو. وقد يعبر عن النفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَاقَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] أي نفسك»^(٢).
«وافتح السورة بالتباب مشعر بأنها نزلت للتوبيخ والوعيد فذلك براعة استهلال مثل ما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم»^(٣).

﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ «هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه»^(٤)..

﴿وإنما سُمِّيَ بأبي لهب لإشراق وجهه وحسنه»^(٥)، «وكناه الله في السورة بأبي لهب» لمعانٍ منها:

١- أن اسمه عبد العزى، والعزى: صنم، ولم يصف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

(١) جامع البيان ٢٤/٧١٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٥.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٦٠٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥١٤.

(٥) الدر المنثور ١٥/٧٣٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥١٤.

٢- وأنه كان بكنيته أشهر فصرح بها.

٣- وأن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله ﷻ عن الأشرف إلى الأتقص. ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يُكَنَّ عن أحد منهم.

٤- وأن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها، تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه^(١)، «لأن الأب يطلق على ملازم ما أضيف إليه كما كنى رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن صخر بأبي هريرة لأنه حمل هرة في كم قميصه، فكانت كنية أبي لهب صالحة موافقة لحاله من استحقاق لهب جهنم كناية عن كونه جهنمياً»^(٢).

عن عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه ﷺ قال: أخبرني رجل -يقال له: ربيعة بن عباد ﷺ، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراء رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب^(٣).

وعن ربيعة بن عباد ﷺ قال: «إني لمع أبي - رجل شاب - أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراء رجل أحول وضيء، ذو جمّة - يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفد عن الله ما بعثني به». وإذا فرغ من مقاله قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٦-٢٣٧ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٠٢ مختصراً.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٣٩٢ (١٦٠٦٤) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، والبيهقي في الدلائل ٢/١٨٦، والطبراني في التاريخ ٢/٣٤٨، والحاكم في المستدرک ١/١٥، والطبراني في الكبير ٥/٥٨.

من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب»^(١).

﴿وَتَبَّ﴾ «تحقق خسارته وهلاكه»^(٢)، «فالتب الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله وقد هلك»^(٣).

المطلب الثاني: المستهزئين بالرسول ومن يعاونهم وجزائهم:

﴿أولاً: لن ينفع المستهزئين بالرسول ودعوته أموالهم ولا كسبهم﴾

كثيراً ما يفكر الناس بأن المال يمكن أن يدفع عنهم الكثير من الشرور، ولذا قال الله تعالى: ﴿مَا أَعْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾^(٤) والكسب هنا الولد^(٥). أي: «ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه وولد»^(٥). فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله: ﴿مَا أَعْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾^(٦).

إن «ماله الذي عنده والذي كسب بعمله لن يُغني عنه شيئاً من عذاب الجبار ولو كان كثيراً نعم قد ينفع المال ويغني مع أهل الدنيا بالرشاوى وغيرها لضعف أهل الدنيا وعدم إحاطتهم بكل ما يدور حولهم ولعجزهم أحياناً ولأسباب أخرى، أما مع الله العليم البصير القوي القادر فلا ينفع إلا ما ارتضاه - سبحانه - وهو

(١) أخرجه ابن هبة الله في تاريخ دمشق ٦٧/١٦٦-١٦٧ السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٦.

(٤) الدر المنثور ١٥/٧٣٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٨ مختصراً.

(٦) ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٨/٥١٥.

العمل الصالح»^(١)، وكذلك لا ينفع الشكل الحسن والمظهر البراق كما كان حال أبي لهب لعنه الله.

◉ **ثانياً: مصير المستهزئين المحاربين لرسول الله ﷺ والصالحين من عباد الله:**

﴿سَيَصَلَّى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾^(٢) أي: «يشوئى بها ويحسُّ بإحراقها»^(٢).

﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾^(٣) «أي: ذات شرر ولهيب وإحراق شديد»^(٣)، وذكر اللهب: تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاءً بتوقدها وتلهبها.

◉ **ثالثاً: جزاء من أعان الذين يؤذون الرسول ﷺ والذين آمنوا:**

﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ «وزوجته من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وأخت أبي سفيان. وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم»^(٤).

﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت تعجىء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ^(٥)، أذى ونكالاً له ولأصحابه ﷺ.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: من ليف، عن سعيد بن المسيب قال: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأُنفقنَّها في عداوة محمد. ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة^(٦).

(١) انظر: المحرر الوجيز ١٥/٥٩٦.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٠٤-٦٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥١٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥١٥.

(٥) جامع البيان ٢٤/٧١٩ ورجحه، والدر المنثور ١٥/٧٣٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٤٢.

«إن هذه المرأة الشقية التي كانت تتعاون مع زوجها على أذية الرسول ﷺ بطرق عديدة وتسعى في الصد عن دعوته بقدر ما تستطيع لإعاقة الدعوة الإسلامية فجمعت على ظهرها الأوزار، فأصبحت بمنزلة من يجمع الحطب، ولذا فهي تجمع الحطب في النار لتضعه على زوجها، متقلدة حبل من مسد^(١).

رابعاً: الجزء من جنس العمل:

«فلما حصل لأبي لهب وعيدٌ موافق لكنيته، جعل لامرأته وعيدٌ موافق لفظه فعلها- وهو حمل الحطب في الدنيا- فأندرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها؛ إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سبباً لعذاب أعز الناس عليها»^(٢) ومن أطاعته في الصد عن دين الله ﷻ وأذية الدعاة إليه.

خامساً: معجزة ظاهرة على النبوة وصدق الرسالة:

«وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً، لا مسراً ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة»^(٣).

المطلب الثالث: قصة هلاك أبي لهب:

ذكر ابن إسحاق بسنده: قال أبو رافع ﷺ مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبدالمطلب ﷺ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس

(١) معالم التنزيل ٥٨٣/٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١٥/٨، والبيضاوي ٥٤٥، وتيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٢) التحرير والتنوير ٦٠٥/٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١٧/٨.

وأسلمت أم الفضل رضي الله عنها، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتفم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه. وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة- وكذلك كانوا صنعوا- لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه رجلاً.

فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبتة الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزاً، قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي وعندني أم الفضل جالسة؛ وقد سرنا ما جاءنا من الخبر. إذ أقبل أبو لهب يجزر رجله بشراً حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان قد قدم.

قال: فقال أبو لهب: هلم إلي فعندك لعمري الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فممنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجلاً بيضاً على خيلٍ بلقٍ بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً- أي ماتبقي- ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة! قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة. قال: وثاورته فاحتملني وضرب بي الأرض ثم برك على يضر بني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضرته به ضربة فبلغت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده؟! فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة- قرحة قاتلة كالطاعون- فقتلته.

وزاد يونس عن ابن إسحاق: فلقد تركه ابنه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى أتتني.
حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد أتتني في بيته لا تدفناه؟
فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه.

فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى
مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة^(١).

وهنا يظهر شيء من معنى قوله تعالى: ﴿مَا أَعْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(٢)
والله تعالى أعلم.



(١) أخرج الحاكم في المستدرک ٣/ ٣٦٥ (٥٤٠٦) بعضه، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٤٥،
والسيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٤٧٩، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٤٣.

تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

المبحث الأول

مقدّمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

سُمِّيَتْ:

- ١- سورة قل هو الله أحد.
- ٢- وسورة الله الواحد الصمد.
- ٣- وسورة التوحيد لأنها تشمل على إثبات أنه تعالى واحد.
- ٤- وسورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين توحيد الله وهو أساس الإسلام،... وغيرها من الأسماء.
- ٥- واشتهر اسم سورة الإخلاص لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى^(١).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٠٩-٦١٠، وذكر الفخر الرازي أسماء أخرى تصل إلى عشرين اسماً ولم يذكر أسانيداً. انظر: التفسير الكبير ٣٢/١٧٥-١٧٦.

وذكر: أن سورة الكافرون والإخلاص تسميان المشقشقتين أي المبرثتين من الشرك ومن النفاق^(١).

ثانياً: سبب نزولها ومناسبتها:

هي مكية في قول الجمهور^(٢)، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك. فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ فالصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ولا شيء يموت إلا سيورث وإن الله ﷻ لا يموت ولا يورث ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثلته شيء^(٣).

وعن جابر رضي الله عنه: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك؟! فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ إلى آخرها^(٤). فالجهل بالله هو سبب نزول هذه السورة. أما عدد آياتها: (٤) آيات، وكلماتها: (١١) كلمة، وحروفها: (٤٧) حرفاً^(٥).

مناسبتها لما قبلها:

«كانت عداوة أبي لهب وزوجه للنبي، ممثلة في عداوتهما لدعوة التوحيد التي كانت عنوان رسالة النبي، صلوات الله وسلامه عليه، وكلمته الأولى إلى قومه..»

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٨.

(٢) نقل أنها مدنية عن غير واحد من السلف، انظر: التحرير والتنوير ٢٤/ ٦١١.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٣ (٢١٢٥٧)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤)، وجامع البيان للطبري ٢٤/ ٧٢٨، والواحدي في أسباب النزول (٣٤٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي من غير قوله: والصمد الذي... (٢٦٨٠).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الإخلاص (٢٦٨٠)، والطبري في جامع البيان ٢٤/ ٧٢٩، والواحدي في أسباب النزول (٣٤٦)، والطبراني في الأوسط ٦/ ٥٦ (٥٦٨٧) وعزاه في الدر المنثور ١٥/ ٧٤١ إلى ابن المنذر.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٦.

و قد ساقَت هذه الكلمة أبا لهب وزوجه، ومن تبعهما في جحود هذه الكلمة، والتنكر لها؛ ساقتهم إلى هذا البلاء الذي لقيه في الدنيا، وإلى هذا العذاب الأليم في جهنم المرصودة لهما في الآخرة.

﴿سورة الإخلاص﴾ وما تحمل من إقرار بإخلاص وحنانية الله من كل شرك - هي مركب النجاة لمن أراد أن ينجو بنفسه من هذا البلاء، وأن يخرج من تلك السفينة الغارقة التي ركبها أبو لهب وزوجه، ومن اتخذ سبيله معهما من مشركي قريش ومشركاتها.. وها هو ذا النبي الكريم، يؤذّن في القوم، بسورة الإخلاص، ومركب الخلاص^(١).

ثالثاً: موضوعها:

- ١- إثبات وحنانية الله تعالى.
 - ٢- وأنه لا يقصد في الحوائج غيره.
 - ٣- وتنزيهه عن سمات المخلوقات وإبطال أن يكون له ابن.
 - ٤- وإبطال أن يكون له مثل أو شبيه^(٢).
- فهي مشتملة على توحيد الأسماء والصفات^(٣) وتوحيد الإلوهية والربوبية.

رابعاً: فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «سلوه:

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤ بتصرف.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧ وتيسير اللطيف المنان ص ٢٧.

لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟». فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه»^(١).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قُباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها... فقال ﷺ: «يا فلان ما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟!» قال: إني أحبها. فقال ﷺ: «حُبِك إياها أدخلك الجنة»^(٢).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ﷺ، عن أبيه ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها، عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة». فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله. فقال ﷺ: «الله أكثر»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟!»، فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»^(٤).

خامساً: معنى أنها تعدل ثلث القرآن:

ومعنى أنها تعدل ثلث القرآن أي:

«في ثواب القراءة فهي تعدل ثلث القرآن إذا قرئ بدونها حتى لو كررها

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء إلى دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله ﷻ (٧٣٧٥) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة.. (٧٧٤)، وقد أوردت الشاهد فقط من القصة.

(٣) أخرجه أحمد ١٨/٣ (١١١٤٩)، قال: شعيب الأرثوؤط: إسناده جيد.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد (٥٠١٥).

القارئ ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله، وقيل: لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة

وإنها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سور القرآن.

وإنها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني لأن معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإسلامية^(١).

«وهذه السورة لها فضل عظيم. فهي تعدل ثلث القرآن لكن لا تقوم مقام ثلث القرآن. بدليل أن الإنسان لو كررها في الصلاة الفريضة ثلاث مرات لم تكفه عن الفاتحة، مع أنه إذا قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، لكنها لا تجزيء عنه، ولا تستغرب أن يكون الشيء معادلاً للشيء ولا يجزيء عنه. فهذا هو النبي ﷺ أخبر أن من قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فكأنما أعتق أربعة أنفس من بني إسماعيل، أو من ولد إسماعيل»، ومع ذلك لو كان عليه رقبة كفارة، وقال هذا الذكر، لم يكفه عن الكفارة. فلا يلزم من معادلة الشيء للشيء أن يكون قائماً مقامه في الأجزاء»^(٢).

«ولا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص»^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٦٢١.

(٢) تفسير جزء عم للعثيمين ٣٥١.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/٤٣٣.

سادساً: مواضع قراءتها:

ورد في السنة النبوية مواضع تُقرأ فيها سورة الإخلاص وأشهرها:

١- ركعتا الطواف: عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف^(١).

٢- ركعتا الفجر: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعتي الفجر^(٢).

٣- الركعتان بعد المغرب: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعا وعشرين مرة- أو: بضع عشرة مرة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣).

٤- عند النوم: فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(٤).

٥- في أذكار الصباح والمساء: فعن معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه رضي الله عنه قال: أصابنا طش وظلمة، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي،

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٦).

(٣) أخرجه أحمد ٢٤/٢ رقم (٤٧٦٣) تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، السلسلة الصحيحة (٣٣٢٨).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٥٠١٧).

فقال: «قل». فسكت. قال: «قل». قلت: ما أقول؟ قال: «قل»: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً تكفيك كل شيء»^(١).

٦- في صلاة الوتر: عن عبدالعزيز بن جريح رضي الله عنه قال: سألتنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١) وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) والمعوذتين^(٢).

سابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) أي: قل -أيها الرسول-: هو الله المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، لا يشاركه أحد فيها. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(٢) أي: الله وحده المقصود في قضاء الحوائج والרגائب. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٣) أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٤) أي: ولم يكن له مماثلاً ولا مشابهاً أحد من خلقه، لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى وتقدس^(٣).

* * *

(١) أخرجه النسائي، كتاب الاستعاذة، باب (١) رقم (٥٤٢٨)، والترمذي كتاب الدعوات باب (١١٦) رقم

(٣٥٧٥) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح

(١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦٢).

(٣) التفسير الميسر ٦٠٤.

المبحث الثاني وقفات مع السورة

المطلب الأول: وجوب معرفة الله:

﴿قُلْ﴾: «قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه»^(١)، «وافتح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول»^(٢).

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ «قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل»^(٣).

«وضمير ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن لإفادة الاهتمام بالجملة التي بعده وإذا سمعه الذين سألوا تطلعوا إلى ما بعده، ويجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ أيضاً عائداً إلى الرب»^(٤) المسؤول عنه.

﴿أَحَدٌ﴾ لفظ أدق من لفظ «واحد» لأنه يضيف إلى معنى «واحد» أن لا شيء غيره معه. وأن ليس كمثلته شيء.

ففي الآية أمرٌ بالبلاغ والدعوة إلى التوحيد. أي: يا محمد، ويا أصحاب محمد، ويا كل المسلمين.. وحدوا الله وادعوا الناس كافة إلى توحيد الله.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٤) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤.

وهل دعوات الأنبياء إلا على هذا الأساس العظيم ﴿عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١)، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ الصمد فيه معان كثيرة منها: الذي ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب. ومنها: الذي لا يخرج منه شيء. ومنها: الذي لم يلد ولم يولد. ومنها: السيد الذي انتهى سؤدده. ومنها: الباقي الذي لا يفنى^(٢).

«قال الطبراني في كتاب السنة بعد إيراد كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير ﴿الصَّمَدُ﴾: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ»^(٣).

فهو سبحانه «المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه. العليم: الذي قد كمل في علمه. الحليم: الذي قد كمل في حلمه. الرحيم: الذي كمل في رحمته. ووسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه»^(٤).

إنه الحي القيوم، الرحمن الرحيم الذي خلق كل شيء وفسخ لنا كثيرًا مما خلق. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

(١) وردت هذه الجملة من الآية في مواطن متعددة في القرآن فقد وردت في سورة الأعراف الآية (٥٩) عن نوح، والآية (٦٥) عن هود، والآية (٧٣) عن صالح، والآية (٨٥) عن شعيب، وذكرت كذلك في سورة هود والمؤمنون والعنكبوت وغيرها من سور القرآن.

(٢) انظر: جامع البيان ٢٤/٧٣١-٧٣٧ فقد ذكر هذه المعاني وذكر الروايات فيها عن الصحابة والتابعين.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥٢٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مَّتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهًا انظُرُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ إِذَا أُنزِرَ وَيَعْبَهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴿[الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ لَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مَسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الاعراف].

ويقول ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٥﴾ يُبْتِ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَتِ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسْحَرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ

أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَيبًا تَقِيكُمْ وَالْحَرَّ وَسَرَيبًا تَقِيكُمْ بِأَسْكُنِي كَذَلِكَ يُتَمُّ نِعْمَتُهُ وَعَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ ﴿٨١﴾ [النحل].

﴿ ذلك غيظ من فيض مما عرّفنا الله به عن نفسه، وهي آيات تربط قلب المكلف بربه، وتغرس فيه حبه. ولا شك أن معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وتصحيح التصور عنه سبحانه سيكون له أعظم الأثر في إصلاح النفس وإصلاح الحياة. ﴾

المطلب الثاني: تنزيهه سبحانه عن كل نقص:

ومن كماله سبحانه أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لكمال غناه^(١) «لأن من يُصمَدُ إليه لا يكون من حاله أن يلد، لأن طلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد، وتدارك عجزه، ولذلك استدل على إبطال قولهم باتخاذ الله الولد بإثبات أنه الغني في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُوتٌ ﴿١١٦﴾ [البقرة] فبعد أن أبطلت الآية الأولى من هذه السورة تعدد الإله، أبطلت هذه الآية تعدد الإله بطريق تولد إله عن إله لأن المتولد مساو لما تولد عنه»^(٢).

«والتعدد بالتولد مساويًا في الاستحالة لتعدد الإله، لفساد الأكوان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ [الأنبياء] ولأنه لو تولد عن الله موجود آخر لنفى ذلك الأحدية. وبذلك يبطل اعتقاد من يقول: إن الملائكة بنات الله -تعالى عما يقولون- فعبدوا الملائكة قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢١﴾ [الأنبياء].»

وجملة ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ عطف على جملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي ولم يلد غيره وهي بمنزلة الاحتراس سدًا لتجويز أن يكون له والد، وإنما قدم نفي الولد: بأنه أهم؛ إذ قد نسب

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٦١٨/٢٤.

أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى، ولم ينسبوا إلى الله والدًا. وفيه: الإيماء إلى أن من يكون مولودًا مثل عيسى لا يكون إلهًا، لأنه لو كان الإله مولودًا لكان وجوده مسبوقًا بعدم لا محالة، وذلك محال لأنه لو كان مسبوقًا بعدم لكان مفتقرًا إلى من يخصصه بالوجود بعد العدم، فبطلت بذلك عقيدة النصارى بإلهية عيسى ﷺ بتوهمهم أنه ابن الله وأن ابن الله لا يكون إلا إلهًا^(١).

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: لم يكن له شبيه ولا مثل^(٢) لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، ﷻ^(٣). «لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله ﷻ لا يموت ولا يورث»^(٤)، وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ٨٩ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ٩٠ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ٩٣ ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ٩٤ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ ٩٥ [مريم].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ٢٣ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ﴾ ٢٤ ﴿يَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ وَعَمَلُونَ﴾ ٢٧ [الأنبياء].

(١) التحرير والتنوير ٦١٨/٢٤.

(٢) جامع البيان ٧٣٨/٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان عن أبي العالية ٧٣٤/٢٤.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ [الصفات] وفي الصحيح: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم»^(١).

المطلب الثالث: تحقيق التوحيد لله:

إذا استقرت هذه المعاني، ووضح هذا التصور لمعاني تلك السورة العظيمة، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير الله الواحد المتفرد بكل شيء في كل شيء.

ومن هنا ينشأ منهجٌ كاملٌ للحياة. قائم على ذلك التفسير وتلك المعاني:

فالتوحيد لله منهجٌ لعبادة الله وحده، ومنهجٌ للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرغبة، في السراء والضراء، في النعماء والبأساء، ومنهجٌ للتلقي عن الله وحده؛ تلقي العقيدة والتصوير، والقيم والموازن، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد.. فالتلقي لا يكون إلا عن الله وحده؛ بما شرعه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وما تبع ذلك من قياسٍ وفقهٍ، والعمل لا يكون إلا لله وحده، وفي سبيل الله وحده؛ فيتحقق الإخلاص والمتابعة.

من أجل هذا كله كانت الدعوة في مراحلها الأولى مركزةً على تقرير حقيقة التوحيد في القلوب، لأن التوحيد منهج للحياة، وليس كلمةً تقال باللسان أو صورة تستقر في الضمير!! إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون ثمرةً طبيعيةً لاستقرار هذه الحقيقة في القلوب.

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب - وغيرهم من أهل الشرك والوثنية - والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم؛ نشأت أول ما نشأت عن انطماس حقيقة التوحيد الخالص، ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى (٦٠٩٩).

تفسير المعوذتين أولاً: المعوذتين وأحكام الاستعاذة

المطلب الأول: مقدمات حول المعوذتين:

أولاً: أسماءهما:

سورة الفلق وسورة الناس لهما عدة أسماء منها:

- ١- المعوذتين: «ووصف السورتين بذلك يجعلهما كالذي يدل الخائف على المكان الذي يعصمه من مخيفه أو كالذي يدخله المعاذ»^(١).
- ٢- المشقشقتين: بتقديم الشينين على القاف في الموضعين من قولهم خطيب مشقشق أي: مسترسل القول تشبيهاً له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة، وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب^(٢)، والمقصود المبرئتين من الشرك ومن النفاق، وذكر صاحب الكشاف عن سورة الكافرون والإخلاص تسميان المشقشقتين^(٣).
- ٣- المقشقتين: بتقديم القاف على الشين في الموضعين أي تبرئان من الشرك ومن النفاق^(٤) كذلك، فيكون اسم المقشقة مشتركاً بين أربع

(١) التحرير والتنوير ٦٢٣/٣٠.

(٢) الإتيقان ١/١٥٩، التحرير والتنوير ٦٢٤/٣٠.

(٣) الكشاف ٢٣٨/٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٥١، التحرير والتنوير ٦٢٤/٣٠.

سور: الفلق، والناس، وبراءة، والكافرون^(١).

﴿ثانياً: نزولهما ومناسبتهما:﴾

الأصح - والله أعلم - أنهما مدنيتان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن من سورة القدر إلى آخر القرآن مكية، إلا إذا زلزلت الأرض وإذا جاء نصر الله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فإنهن مدنيات»^(٢).

وأما سبب نزولهما: فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله تعالى عنه فاستخرجها، فجاء بها فحللها قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه حتى مات^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل من اليهود يدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يأمنه، فعقد له عقداً فوضعه في بئر رجل من الأنصار، فاشتكى لذلك أياماً فأتاه ملكان يعودانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أحدهما: أتدري ما وجعه؟ قال: فلان الذي كان يدخل عليه عقد له عقداً فألقاه في بئر فلان الأنصاري، فلو أرسل إليه رجلاً وأخذ منه العقد لوجد الماء قد اصفر، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان. قال: فبعث رجلاً فوجد الماء قد اصفر. فأخذ العقد فجاء بها فأمره أن يحل العقد، ويقرأ آية، فحلها فجعل يقرأ ويحل،

(١) التحرير والتوير ٣٠/٦٢٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٣/١٥٣، البيهقي في الدلائل ٧/١٤٤.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٣٦٧ (١٩٢٨٦) تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح بغير هذه السياقة، والنسائي

كتاب تحريم الدم باب سحرة أهل الكتاب (٤٠٨٠).

فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فبراً^(١).

قال ابن كثير: «ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سُحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدميرهم، وفضحهم»^(٢).

عُدُّهما:

سورة الفلق: عدد آياتها: (٥) آيات، وكلماتها: (٢٣) كلمة، وحروفها: (٧٤) حرفاً^(٣).

سورة الناس: عدد آياتها: (٦) آيات، وكلماتها: (٢٠) كلمة، وحروفها: (٧٩) حرفاً^(٤).

(١) السلسلة الصحيحة ٦/ ٢٦٤ برقم (٢٧٦١) وذكر أنه مروى بعدة طرق وأن رواية ابن عباس أخرجهما الثعلبي. نقلاً عن التلخيص للحافظ ٤/ ٤٠. وأصل الخبر في الصحيحين عن عائشة ؓ قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفطنني فيما استفيتته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن أعصم - رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً. قال وفيه؟ قال في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان». قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال: «هذه البئر التي أريتها وكان ماءها نقاعة الحناء، وكان نخلها رؤوس الشياطين». قال فاستخرج قالت فقلت أفلا؟ - أي تنشرت - فقال: «أما والله فقد شفاني الله وأكره أن أتير على أحد من الناس شراً» البخاري كتاب الطب باب هل يستخرج السحر (٥٤٣٢) وكتاب الجزية والموادعة باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر (٣٠٠٤)، ومسلم كتاب السلام باب السحر (٢١٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٥٣٧.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٧.

(٤) المصدر السابق ٣/ ٩٨.

مناسبتهما لما قبلها:

تضمنت «سورة الإخلاص» ما ينبغي أن يكون عليه مفهوم المخلوقين للخالق ﷻ، من تفرده بالألوهية، وتنزيهه أن يكون والداً أو مولوداً، وعن أن تكون له نسبة إلى المخلوقات، إلا نسبة الدلالة على قدرته وحكمته، وعلمه، وأنها جميعها مفتقرة إليه في وجودها، وفي بقائها، وأنه سبحانه لا مثيل له، ولا شبيهه، ولا كفاء ولا ندّ..

هذا ما أمر الله سبحانه النبي أن يؤمن به أولاً، ثم أن يؤذن به في الناس..

ثم جاءت بعد هذا سورتا المعوذتين؛ «الفلق» و«الناس» تقرران هذه الحقيقة، وتؤكدانها في مجال التطبيق العملي لآثارها، وذلك بدعوة النبي والناس جميعاً أن يعوذوا بربهم، وأن يستظلوا بحمي ربوبيته من كل ما يسوءهم، أو ما يتوقع أن يعرض له بسوء، فذلك هو الإيمان بالله سبحانه، والإقرار بسلطانه القائم على هذا الوجود، وأنه وحده الذي تتجه الوجوه كلها إليه في السراء والضراء.. فهو سبحانه القادر على كل شيء، وهو سبحانه الذي بيده مقاليد كل شيء.. أما المخلوقون فهم جميعاً على سواء في الحاجة إلى الله، وفي الافتقار إليه، غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر].

﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدُّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ [الأعراف].

وقد صدرت سورة الإخلاص، والمعوذتين بعدها، بقوله تعالى: «قل» وهذا الأمر بالقول داخل في مقول القول الذي يقوله النبي، ويقوله كل من يتأسون به، فمطلوب من النبي، ومن المؤمنين أن يقولوا: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ.. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ.. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ».. فهذا الأمر بالقول، هو قرآن متعبد به، وهو يعنى أن القرآن كلمات الله، وأنه لا تبديل لكلمات الله، وأن هذه الكلمات قد انطبعت في

قلب النبي صلوات الله وسلامه عليه، فهو يقرأها من كتاب قلبه كما أنزلت عليه، دون تبديل فيها..»^(١).

ثالثاً: موضوعهما:

إنَّ سورة الفلق وسورة الناس توجيه من الله ﷻ - لنبية ﷺ ابتداءً وللمؤمنين من بعده جميعاً- للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه؛ من كل مخوف- خافٍ وظاهرٍ، مجهولٍ ومعلوم- على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل، فيفتح الله سبحانه لهم حماه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا، تعالوا إلى الحمى، تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه، تعالوا فأنا أعلم بضعفكم، وأعلم بأعدائكم، وبما حولكم من مخاوف. وعندى لكم الأمن والطمأنينة والسلام.

رابعاً: فضلها:

عن ابن عباس الجهني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا بن عباس ألا أدلك» أو قال: «ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ ۞ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝٢ ۞ هَاتين السورتين»^(٢).

وعن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط؟ قل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝٢﴾»^(٣).

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف. فقال: «لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝٢﴾»^(٤).

(١) المصدر السابق في الموضوعين.

(٢) أخرجه النسائي في السنة كتاب الاستعاذة باب ٢ (٥٤٣٢) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٥٠٢٠) وفي الصحيحة (١١٠٤).

(٣) أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل قراءة المعوذتين (٨١٤).

(٤) أخرجه النسائي في السنة كتاب الافتتاح باب الفضل في قراءة المعوذتين (٩٥٣)، والإمام أحمد =

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ يا جابر». قلت: ماذا بأبي أنت وأمي؟ قال: «اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ① و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ②». فقراتهما. فقال: «اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما»^(١).

⑥ خامساً: مواضع الاستعاذة بهما:

ورد في السنة النبوية مواضع تقرأ فيها المعوذتان. وأشهرها:

- ١- عند المرض: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ عنه^(٢).
- ٢- عند النوم: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ② و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ③ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(٣).
- ٣- دبر كل صلاة: عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة»^(٤).
- ٤- عند السفر والخلوة والوحشة: عن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه قال: كنت مع

= ٤٩/١٤٩ (١٧٣٧٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٧).

(١) أخرجه ابن حبان ٧٦/٣ رقم (٧٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٩٤/٢ (١٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٩) واللفظ له، ومسلم كتاب السلام باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (٢١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذتين (٥٠١٧).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في المعوذتين (٢٩٠٣)، وأبي داود

كتاب الوتر باب في الاستغفار رقم (١٥٢٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٨).

رسول الله ﷺ في طريق مكة فأصبت خلوة من رسول الله ﷺ فدنوت منه فقال: «قل» فقلت: ما أقول؟! قال: «قل» قلت: ما أقول؟! قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ حتى تختمها ثم قال: «ما تعوذ الناس بأفضل منهما»^(١).

٥- الرقية بهما من السحر والعين: قال الترمذي: باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين وذكر تحته حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما^(٢).

٦- عند الصباح والمساء: عن عبد الله بن خبيب عن أبيه رضي الله عنه قال خرجنا في ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ يصلي لنا قال فأدركته فقال: «قل» فلم أقل شيئاً ثم قال: «قل» فلم أقل شيئاً قال: «قل» فقلت: ما أقول؟ قال: «قل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»^(٣).

٧- عند لدغ العقرب: عن علي رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي فوضع يده على الأرض فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله فقتلها، فلما انصرف قال: «لعن الله العقرب لا تدع مصلياً ولا غيره أو نبياً ولا غيره إلا لدغتهم» ثم دعا بملح وماء فجعله في إناء ثم جعل يصبه على إصبغه

(١) أخرجه النسائي كتاب الاستعاذة (٥٤٢٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الطب عن النبي ﷺ باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين (٢٠٥٨). وحسنه الألباني في الكلم الطيب (٢٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الدعوات عن النبي ﷺ باب (١١٧) رقم (٣٥٧٥) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٢٩) وصحيح الكلم ص (١٩).

حيث لدغته ويمسحها ويعوذها بالمعوذتين^(١).

٨- القراءة بها في صلاة الفجر: عن عقبه بن عامر: أنه سأل النبي ﷺ عن

المعوذتين قال عقبه فأمنا بهما رسول الله ﷺ في صلاة الفجر^(٢)

٩- في الوتر: عن عبدالعزيز بن جريح ﷺ قال: سألنا عائشة ﷺ بأي شيء كان يوتر

رسول الله ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين^(٣).

١٠- عند رؤية القمر من كسوفه: عن عائشة ﷺ: أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال

يا عائشة استعيزي بالله من شر هذا؟ فإن هذا الغاسق إذا وقب^(٤).

«قال الطيبي: إنما استعاذ من كسوفه لأنه من آيات الله الدالة على حدوث بليّة،

ونزول نازلة، كما قال ﷺ: «ولكن يخوف الله بها عباده»^(٥)»^(٦).

سادساً: المعنى الإجمالي للسورتين:

سورة الفلق:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي: قل -أيها الرسول-: أعوذ وأعتصم برب

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في سنده ٥/ ٤٤ رقم (٢٣٥٥٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٥٦٧).

(٢) أخرجه النسائي في السنن، كتاب الافتتاح، باب القراءة في الصبح بالمعوذتين (٩٥٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح

(١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦٢).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦)، صحيح سنن الترمذي

(٢٦٨١).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف (١٠١٠)، ومسلم في الكسوف باب ذكر

النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة (٩١٢).

(٦) تحفة الأحوذى ٩/ ٢١٣.

الفلق، وهو الصبح. ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من شر جميع المخلوقات وأذاها، ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ومن شر ليل شديد الظلمة إذا دخل وتغلغل، وما فيه من الشرور والمؤذيات.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شر الساحرات اللاتي ينفخن فيما يعقدن من عُقَد بقصد السحر، ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ومن شر حاسد مبغض للناس إذا حسدهم على ما وهبهم الله من نعم، وأراد زوالها عنهم، وإيقاع الأذى بهم^(١).

سورة الناس:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي: قل -أيها الرسول-: أعوذ وأعتصم برب الناس، القادر وحده على ردّ شر الوسواس، ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ملك الناس المتصرف في كل شؤونهم، الغني عنهم، ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ إله الناس الذي لا معبود بحق سواه، ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ من أذى الشيطان الذي يوسوس عند الغفلة، ويختفي عند ذكر الله.

﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ الذي يبث الشر والشكوك في صدور الناس، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ من شياطين الجن والإنس^(٢).

المطلب الثاني: أحكام الاستعاذة:

المسألة الأولى: تعريف الاستعاذة:

الاستعاذة لغة هي: عاذ به يعوذ: لأذ به ولجأ إليه واعتصم^(٣).

ولفظ عاذ وما تصرف منه يدل على التحرز والتحصن والنجاة.

(١) التفسير الميسر ٦٠٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تاج العروس ٢٤٠٦.

وفي أصله وجهان: الأول: مأخوذ من الستر، فالعائد قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه.

والثاني: مأخوذ من المجاورة والاتصاق، فالعائد قد استمسك بالمستعاذ واعتصم به ولزمه.

ولذلك فالوجهان حق لأن المستعيز مستتر بمعاذ- وهو الله- مستمسك به^(١).
«فلاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه^(٢)».

وشرعاً: اللجوء إلى الله ﷻ والاعتصام به من شر كل ذي شر^(٣).

المسألة الثانية: أركان الاستعاذة:

الركن الأول: مستعاذ به: «ويسمى المَعَاذُ والمستعاذ، وهو الله وحده، ولا تنبغي الاستعاذة إلا به ﷻ»^(٤).

الركن الثاني: مستعاذ منه: والمستعاذ منه كل ما يصيب الإنسان من الأذى، ولا يخلو من قسمين:

القسم الأول: شر راجع إلى الإنسان نفسه: وهو الذنوب التي تقع منه.

القسم الثاني: شر بالإنسان من غيره: وذلك الغير إما:

١- مكلف: وهو إما أن يكون إنسان مثله أو من الجن.

(١) التفسير القيم ٥٣٨-٥٣٩ بتصرف واختصار.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/٦٤.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١١٤، وقال الماوردي في النكت ٢/٢٩٥: استدفاع الأذى بالأعلى من وجه الخضوع والتذلل.

(٤) نضرة النعيم ٢/٢٠٢.

٢- غير مكلف: مثل الهوام وذوات الحُمّة^(١) ونحوها.

◉ وقد تضمنت المعوذتان الاستعاذة من هذه الشرور^(٢) كما سيأتي بيانه.

الركن الثالث: مستعيذ: وهو الإنسان المؤمن بالله تعالى.

الركن الرابع: أداة الاستعاذة: وهي أسماء الله تعالى وصفاته.

◉ المسألة الثالثة: حكم الاستعاذة وصيغتها:

أولاً: الحكم العام للاستعاذة:

الاستعاذة لا تكون إلا بالله وحده لا شريك له ولا يستعاذ بأحد من خلقه، والذي يصرف هذه العبادة لغير الله فقد ارتكب شركاً أكبر^(٣). وقد أخبر سبحانه عن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادت طغياناً ورهقاً، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن].

قال ابن كثير: «كانت عادة العرب في جاهليتها إذا نزلوا واديا أو مكاناً موحشاً يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، فلما رأَت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم خوفاً وإرهاباً ودعراً حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً»^(٤).

ثانياً: حكم الاستعاذة:

الاستعاذة عند قراءة القرآن مأمور بها، والجمهور على أنها مندوبة، وذكر عن عطاء أنها واجبة^(٥).

(١) كل ما يلدغ من العقارب والحيات ونحوها.

(٢) التفسير القيم ٥٤٣-٥٤٤.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد عند باب: من الشرك أن يستعاذ بغير الله.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٣٩/٨.

(٥) انظر: البحر المحیط ٥١٧/٥.

قال ابن جرير: «وإنما هو -أي الأمر بها- إعلام وندب. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أن من قرأ القرآن ولم يستعد بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءته أو بعدها أنه لم يضيع فرضاً واجباً»^(١).

والاستعاذة في المواطن الأخرى حكمها أيضاً الندب^(٢).

ثالثاً: صيغتها:

١- صيغتها عند قراءة القرآن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهذا اختيار الجمهور^(٣) وذلك لورود هذه الصيغة في نص القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل]. وبها كان النبي ﷺ يستعيد غالباً. وربما استعاذ النبي ﷺ كما في صلاة الليل: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه. ثم يقرأ» وأحياناً يزيد «السميع العليم» وهي صحيحة أيضاً^(٤).

٢- أما الاستعاذة في المواطن الأخرى فلها صيغ عديدة جاءت بها الآيات والأحاديث النبوية، ومنها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٥) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.... والأحاديث «اللهم إني أعوذ بك...، أعوذ بالله وقدرته...، أعوذ بكلمات الله التامات...»^(٥).

(١) جامع البيان ١٧/٢٩٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/٨٨، فقد توسع كثيراً في المسألة وذكر أحكاماً أخرى.

(٣) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٩، والإقناع في القراءات السبع ١/١٥١ والجامع لأحكام القرآن ١/٨٦-٨٩.

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم ويحمدك (٧٧٥) والترمذي كتاب الصلاة باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٢) وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٧) وغيرهم. وصححه الألباني وجمع رواياته في إرواء الغليل ٢/٥١-٥٧.

(٥) سيأتي بيان بعض الصيغ ومواضعها في المسائل التالية.

المسألة الرابعة: مواضع الاستعاذة في القرآن:

ورد في القرآن الكريم بعض الأمور التي يستعاذ منها ونوردها هنا على

سبيل الإجمال:

١- الاستعاذة عند وسوسة الشيطان ونزغه^(١): قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ

الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١ مَلِكِ النَّاسِ ٢ إِلَهِ النَّاسِ ٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٥ مِنَ الْغَيْبِ وَالنَّاسِ ٦﴾

٢- الاستعاذة من الشياطين وحضورهم أي أمر من أمور الإنسان: قال تعالى:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ٩٨﴾

[المؤمنون]. كالغضب مثلاً، فعن سليمان بن صرد رضي الله عنه: قال: استب رجلان

عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر

وجهه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(٢).

٣- الاستعاذة عند قراءة القرآن: قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النحل].

٤- الاستعاذة من الوقوع في الظلم: قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا

مَتَّعِنَا عَنْدَهُ وَإِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف].

(١) نَزْعُ الشَّيْطَانِ وَسَاوِسُهُ وَتَحْسُهُ فِي الْقَلْبِ بِمَا يُسْوَلُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْمَعَاصِي، يَعْنِي: يُلْقِي فِي قَلْبِهِ مَا يُفْسِدُهُ

عَلَى أَصْحَابِهِ. انظر: اللسان ٨ / ٤٥٤.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن (٦٠٤٨) واللفظ له، ومسلم كتاب

البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.. (٢٦١٠).

- ٥- الاستعاذة من المتكبرين عن الحق المحترقين له: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر]. وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر].
- ٦- الاستعاذة من الوقوع في المحرمات: قال تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَتَّىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف].
- ٧- الاستعاذة من الوقوع في الجهل: قال تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة].
- ٨- الاستعاذة عند ولادة المولود: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم].
- ٩- الاستعاذة من كل الشرور: قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

المسألة الخامسة: مواضع الاستعاذة في السنة:

- ١- الاستعاذة من شرور الأعمال: كما في قوله ﷺ سيد الاستغفار: «أعوذ بك من شر ما صنعت»^(١).
- ٢- الاستعاذة من الأذى: وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي ﷺ أنه شكأ إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ: «ضع

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦).

يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(١).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»^(٢).

٣- الاستعاذة عند الزواج: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادما فليقل: اللهم إني أسألك خيرا وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه..»^(٣).

٤- الاستعاذة عند نزول منزل: عن خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»^(٤).

٥- الاستعاذة من العذاب والفتن: عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»^(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفرائش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول:

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم (٢٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأهل النار النساء وبيان الفتنة (٢٧٣٩).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب النكاح، باب في جامع النكاح (٢١٦٠) واللفظ له، وابن ماجه كتاب التجارات

باب شراء الرقيق (٢٢٥٢) وحسنه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (١٨٢٥).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الذكر، باب التعوذ من سوء القضاء وغيره (٢٧٠٨).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في صلاة (٥٩٠).

«اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك
لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

٦- الاستعاذة عندما يرى الإنسان في منامه ما يكره: قال النبي ﷺ: «الرؤيا
الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن
شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره»^(٢).

ومواضع حصر الاستعاذة في السنة لا يمكننا في هذا الموضوع لكثرة الأحاديث في
ذلك، وتكفيها منه الإشارة.

المسألة السادسة: من فوائد الاستعاذة:

- ١- أنها «حصن حصين من الشيطان الرجيم.
- ٢- أن من استعاذ بالله واعتصم به أعاده الله.
- ٣- أنها صمام أمن في الحياة وجنة من كل خطر.
- ٤- إظهار الضعف والذلة والانكسار لله وتلك حقيقة العبودية.
- ٥- أن الوقاية خير من العلاج.
- ٦- أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله.
- ٧- أن الاستعاذة تزيل الغضب وتريح النفس.
- ٨- أن الاستعاذة تقي الإنسان من شرور جوارحه.
- ٩- أن الاستعاذة مظهر من أهم مظاهر الاستغفار.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام (٦٩٩٥)، ومسلم كتاب الرؤيا أول
حديث في الكتاب (٢٢٦١).

- ١٠- في الاستعاذة بالمعوذتين أثناء المرض إتباع لسنة المصطفى ﷺ وكفى بذلك بركة.
- ١١- أنه بالاستعاذة من جار السوء يحمي الإنسان نفسه ويصون عرضه.
- ١٢- أن الاستعاذة تقي الإنسان من ضرر الحيوان المؤذي كالأفعى ونحوها.
- ١٣- أنه بالاستعاذة من الشيطان يندفع الأثر النفسي السيئ الناجم عن الحُلم
- ١٤- أنه بالاستعاذة يتجنب الإنسان الضرر حتى يرحل من منزله الذي تعوذ فيه»^(١).

المطلب الثالث: الرقية وأحكامها:

الرقية لغةً: بضم الراء وسكون القاف، جمعه رُقَى ورُقِيَات؛ العوذة يتلفظ بها للمريض^(٢).

والمراد بالرقية: «ما يرقى به من الدعاء لطلب الشفاء»^(٣) مع النفث أو المسح على موضع الألم. وهي مشروعة ونافعة - بإذن الله - إذا كانت من القرآن والأدعية الصحيحة.

ويمكن إجمال أحكام الرقية في النقاط التالية:

أولاً: حكم الرقية:

لا شك ولا ريب أن العلاج بالقرآن الكريم وبما ثبت عن النبي ﷺ من الرقى هو علاج نافع وشفاء تام قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و(من) هنا لبيان الجنس،

(١) نضرة النعيم ٢/٢٢٦ بتصرف يسير.

(٢) معجم لغة الفقهاء ٢٢٦.

(٣) قاله الطيبي. انظر: فيض القدير ١/٤٩٠، وحاشية العدوي على الرسالة ١/٤٥٢.

فإن القرآن كله شفاء^(١). وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدوية، وكيف تقاوم الأدوية كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، قال ابن القيم رحمه الله: «فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله ومن لم يكفه فلا كفاه الله»^(٢).

وقال رحمه الله تعالى: «لقد مر بي وقت في مكة سقمت فيه، ولا أجد طبيياً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، أخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليها مرارا ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأنتفع به غاية الانتفاع، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً»^(٣).

وكذلك العلاج بالرقى النبوية الثابتة من أنفع الأدوية، والدعاء إذا سلم من الموانع من أنفع الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، فهو من أنفع الأدوية، وخاصة مع الإلحاح فيه، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، أو يخففه إذا نزل^(٤).

◉ نالنا: شروط جواز الرقية:

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

- ١- أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، أو كلام رسوله ﷺ.
- ٢- أن تكون باللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره.
- ٣- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بقدره الله تعالى - والرقية إنما هي

(١) الجواب الكافي ص ٢٠.

(٢) زاد المعاد ٤/ ٣٥٢.

(٣) انظر: زاد المعاد ٤/ ١٧٨، والجواب الكافي ص ٢١.

(٤) انظر: الجواب الكافي ص ٢٢ - ٢٥.

سبب من الأسباب^(١).

وهناك أحاديث جاءت في النهي عن الرقية كما ورد في قوله ﷺ: «إن الرقى والتمايم والتولة شرك»^(٢) قال في فتح المجيد: «هذا يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً، وهي التي يستعان بها بغير الله، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبي ﷺ، فهذا حسن جائز أو مستحب»^(٣).

◈ ثالثاً: شروط الشفاء من الرقية:

إن الآيات والأذكار والدعوات والتعوذات - التي يُستشفى بها ويُرقى بها - هي في نفسها نافعة شافية بأمر الله، ولكن تستدعي قبول وقوة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء؛ فإن العلاج بالرقى يكون بأمرين:

◈ أمر من جهة المريض، وأمر من جهة المعالج.

◈ فالذي من جهة المريض يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى الله تعالى، واعتقاده الجازم بأن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان؛ فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصار من عدوه إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً.

◈ الأمر الثاني: من جهة المعالج بالقرآن والسنة؛ أن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، ولهذا قال ابن التين ﷺ: «الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحاني إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى»^(٤).

(١) انظر: فتح الباري ١٠ / ١٩٥، وفتاوى العلامة ابن باز ٢ / ٣٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الطب باب في تعليق التمايم (٣٨٨٣) وابن ماجه (٣٥٣٠).

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ١٤٧.

(٤) فتح الباري ١٠ / ١٩٦.

ثانياً: تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾.

المبحث الأول

وقفات مع المستعان به والمستعان منه

المطلب الأول: المستعان به:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾ الفلق: الصبح^(١)، وقيل: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح^(٢). فالاستعاذة برب الصبح الذي يُؤمّن بالنور من شر كل غامض مستور، أو الاستعاذة برب الخلق الذي يُؤمّن من شر خلقه، فالمعنى يتناسق مع ما بعده.

«فحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء، هو هنا: ظهور الصبح بعد ظلمة الليل، ورب الفلق: هو الله، لأنه الذي خلق أسباب ظهور الصبح، وتخصيص وصف الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر؛ لأن شراً كثيراً يحدث في الليل: من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذر السير، وعسر النجدة، وبعد الاستغاثة، واشتداد آلام المرضى، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

(١) رجح هذا المعنى الإمام البخاري انظر: الفتح ٧٤١/٨، والطبري ٢٢٥/٣٠، وابن كثير في تفسيره

(٢) تفسير الكريم الرحمن ٩٣٧ باختصار.

فالمعنى: أعود بفائق الصبح من شرور الليل، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر، كما أنجا أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح، فوصف الله بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة^(١).

❖ وهي الحكمة في اختيار هذا الفلق ليستعاذ بربه، فهو سبحانه أقرب لطلب المستعيز، وهو أقرب إلى حاجته، والتجاءه بربه سبحانه فهو العظيم المحيط علمه وأمره بهذه المخلوقات كلها.

❖ المطلب الثاني: المستعاذ منه:

والاستعاذة هنا من عدة أمور:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٢) «من شر جميع المخلوقات»^(٢)، فللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض. كما أن لها خيرًا ونفعًا في حالات أخرى. والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها، إذ هو الذي خلقها فهو قادر على توجيهها، وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها.

ثم «عطف أشياء خاصة هي مما شمله عموم ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٢) وهي ثلاثة أنواع من الشرور: أحدهما: وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل. والثاني: صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير. والثالث: صنف من الناس ذو خلق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به»^(٣) فقال:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾^(٣) «الغاسق: الليل. والوقب: غروب الشمس»^(٤)

(١) التحرير والتنوير ٦٢٦/٣٠ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٥/٨.

(٣) التحرير والتنوير ٥٢٧/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٦/٨.

أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثيرٌ من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية»^(١).

فالليل حين يتدفق فيغمر البسيطة مخوف حينئذ بذاته. فضلاً على ما يثيره من توقُّعٍ للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم، ومتلصص فاتك يقتحم، وعدو مخادع يتمكن، وحشرة سامة تزحف، ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء، ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام، ومن ظاهر وخاف يدب ويثب في الغاسق إذا وقب.

«وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ للجنس لأن المراد جنس الليل، وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ في مقام الدعاء يراد به العموم لأن مقام الدعاء يناسب التعميم.

وتقييد ذلك بظرف ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا اشتد ظلمته، لأن ذلك وقت يتحينه الشطار وأصحاب الدعارة والعبث، لتحقق غلبة الغفلة والنوم على الناس فيه»^(٢).

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾^(٣) أي: «السواحر إذا رقين ونفنن في العقد»^(٣).

والسحر هو: «عُقْدٌ وَرُقَى يَتَكَلَّمُ به أو يكتبه الساحر أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه من غير مباشرة له»^(٤).

«وإنما جيء بصفة المؤنث لأشخصن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحر النساء، فالأوهام الباطلة تنفسي بينهن لأنهن لا يجدون ما يشغلن به أوقاتهن، وعطف

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٥٢٧/٣٠.

(٣) المغني ١٥٠/٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٦/٨.

﴿النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ على شر الليل لأن الليل وقت يتحين فيه السحرة إجراء شعوذتهم لتلا يطلع عليهم أحد.

وإنما جعلت الاستعاذة من النفاثات لا من -النفث فلم يقل: إذا نفث في العقد- للإشارة إلى أن الساحر يحرص على أن لا يترك شيئاً مما يحقق له ما يعمله لأجله إلا احتال على إيصاله إليه، فربما أغرى به من يغتاله أو من يتجسس على أحواله، ليُري لمن يسألونه السحر أن سحره لا يتخلف ولا يخطئ»^(١).

وقال ابن القيم: «والجواب المحقق إن ﴿النَّفَثَاتِ﴾ هنا: هن الأرواح والأنفس النفاثات، لا النساء النفاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم»^(٢).

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد هنا: «هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود»^(٣).

لأن «الحاسد هو: الذي يكره نعمة الله على غيره، فتجده يضيق ذرعاً إذا أنعم الله على هذا الإنسان بمال، أو جاه، أو علم أو غير ذلك فيحسده. ولكن الحُساد نوعان: نوع يحسد ويكره في قلبه نعمة الله على غيره، لكن لا يتعرض للمحسود بشيء، تجده مهموماً مغموماً من نعم الله على غيره، لكنه لا يعتدي على صاحبه. والشر والبلاء إنما هو بالحاسد إذا حسد. ولهذا قال: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾»^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٥٢٨/٣٠ مختصراً.

(٢) بدائع الفوائد ٢/٤٤٧-٤٤٨، وانظر: البحر المحيط ٨/٥٣١، وتفسير جزء عم لابن عثيمين ص ٣٥٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٤) تفسير جزء عم لابن عثيمين ص ٣٥٧، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/١٢٩، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١٣/١٦٨، والبحر المحيط ٨/٥٣١.

«فإن مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاه لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها، ولأن ثوران وجدان الجسد يكثر في وقت الليل، لأن الليل وقت الخلوة وخطور الخواطر النفسية والتفكر في الأحوال الحافة بالحاسد والمحسود»^(١).

«وقد يغلب الحسد صبر الحاسد وأناته فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكها رأساً، وقد كان الحسد أول أسباب الجنيات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قبل قربانه ولم يقبل من الآخر، كما قصه الله تعالى في سورة المائدة.

وتقييد الاستعاذة من شره بوقت ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضرر به»^(٢).

وهذا «تعميم في كل ما يستعاذ منه، وقد خص شرّ هؤلاء من كلّ شر لخفاء أمره، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم، كأنما يغتال به. وعُرِّفَت النفاثات؛ لأن كل نفاثة شريرة. ونُكِّرَ غاسق: لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض. وكذلك كل حاسد لا يضرّ. ورب حسد محمود؛ وهو الحسد في الخيرات. ومنه قوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(٣)»^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٥٢٨/٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٨٠) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين،

باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٤) الكشاف ٢٤٤/٤.

«وأعيدت كلمة ﴿وَمِنْ شَرِّ﴾ بعد حرف العطف في هذه الجملة. وفي الجملتين المعطوفتين عليها مع أن حرف العطف مغن عن إعادة العامل؛ قصدًا لتأكيد الدعاء تعرضًا للإجابة. وهذا من الابتغال فيناسبه الإطناب»^(١).

* * *

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٧.

المبحث الثاني

خطر السحر والمسد وطرق الوقاية منهما

المطلب الأول: خطورة السحر وطرق الوقاية منه:

أولاً: خطورة السحر: تتمثل خطورة السحر في حرمة إجمالا ومن الحكم في تحريمه:

١- أن السحر علم يتعلم من الشياطين؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٢- السحرة لا يفلحون، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَ كُمْ سِحْرَهُذَا

وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس].

٣- الله تعالى لا يصلح عمل السحرة المفسدين قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آَلَقُوا قَالَ مُوسَى

مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرَانَّ اللَّهُ سَيَّبِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس]. وقال

تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه].

٤- السحر من الموبقات: قال رسول الله: ﷺ «اجتنبوا الموبقات الشرك بالله

والسحر»^(١).

٥- السحر كفر بالله: قال رسول الله ﷺ: «من أتى عرفاً أو ساحراً أو كاهناً يؤمن

بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(٢)، قال الذهبي: الساحر لا بد

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الشرك والسحر من الموبقات (٥٧٦٤)، ومسلم، كتاب الإيمان،

باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) بزيادة.

(٢) الترغيب والترهيب ٣٦/٤ وقال: رواه الطبراني في الكبير ورواه ثقات، وصححه الألباني في صحيح

الترغيب (٣٠٤٧).

وأن يكفر إذ ليس للشيطان غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك بالله،
وحد الساحر القتل لأنه كفر بالله^(١).

٦- قال رسول الله ﷺ: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة
أربعين ليلة»^(٢).

ثانياً: من مضار السحر:

- ١- يفرق بين المرء وزوجه.
- ٢- الساحر معول هدم في المجتمع.
- ٣- عمل بغيض وخلق ذميم.
- ٤- يغضب الرب ويسخط العبد.
- ٥- يورث الخسران في الدنيا والآخرة.
- ٦- هلاك للساحر وضرر بالمسحور^(٣).

ثانياً: كيفية العلاج من السحر والوقاية منه:

١- التصبح بسبع تمرات مطلقاً، وأفضلها عجوة عالية المدينة: قال النبي ﷺ:
«من اصطحب كل يوم تمرات عجوة من تمر المدينة لم يضره سم ولا سحر
ذلك اليوم إلى الليل».

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ: أن رسول الله ﷺ - قال: «مَنْ اصْطَبَحَ كُلَّ
يَوْمٍ سَبْعَ تَمْرَاتٍ مِنْ عَجْوَةٍ، لَمْ يَضُرَّهُ سُمْ وَلَا سِحْرٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ»^(٤).

(١) الكبائر (١٤٠١٦) باختصار وتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم كتاب السلام باب تحريم الكهانة.. (٢٢٣٠).

(٣) نضرة النعيم ١٠/٤٦٠١.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر (٥٧٦٨) واللفظ له، ومسلم كتاب الأشربة =

وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمْرَاتٍ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمْ وَلَا سِحْرٌ»^(١). وفي أخرى: «مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمْرَاتٍ مِمَّا بَيْنَ لَابِتَى الْمَدِينَةِ عَلَى الرِّيقِ لَمْ يَضُرَّهُ يَوْمَهُ ذَلِكَ سَمٌ وَلَا سِحْرٌ وَإِنْ أَكَلَهَا حِينَ يَمْسَى لَمْ يَضُرَّهُ سَمٌ حَتَّى يُصْبِحَ»^(٢).

- ٢- الإستعاذة بالله منه: قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الطلاق].
- ٣- تقوى الله: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق].
- ٤- التوكل على الله والاعتماد عليه فمن يتوكل على الله فهو حسبه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].
- ٥- الإكثار من قراءة القرآن والأدعية المأثورة في كل وقت وفي كل حال.
- ٦- الرقية الشرعية.
- ٧- استخراج السحر وإبطاله وهذه من طرق علاج السحر بعد وقوعه.
- ٨- استعمال الأدوية المباحة والتي يعرفها الأطباء وأهل العلم^(٣).

المطلب الثاني: خطورة الحسد وطرق الوقاية منه:

أولاً: خطورة الحسد:

ذكر الله تعالى أن الحسد من صفات الكفار، قال تعالى: ﴿وَدَكَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].
وذمهم فقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

= باب فضل تمر المدينة (٢٠٤٧).

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب في تمر العجوة (٣٨٧٦) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٦٨ (١٤٤٢). قال الهيثمي ٥/٤١ رجاله رجال الصحيح. وأصله في صحيح مسلم

(٢٠٤٧).

(٣) نضرة النعيم ١٠/١٠، عالم السحر والشعوذة د. عمر الأشقر ١٩٩-٢٠٧.

وقد ذم النبي ﷺ الحسد والحاسد فقال: «.. ولا يجتمعان في قلب عبد الإيمان والحسد»^(١)، وقال: «لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا»^(٢). وقال: «العين حق»^(٣).

قال الماوردي: «اعلم أن الحسد خلق ذميم، مع أضراره بالبدن، وإفساد للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وناهيك بحال ذلك شرًا ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دنيء، يتوجه نحو الأكفاء والأقارب، ويختص بالمخالط والصاحب، وهو كذلك بالنفس مضر، وعلى الهمة مصر حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية بعدو ولا إضرار بمحسود»^(٤).

وأضف على ذلك أن «البخل والحسد مشتركان في أن صاحبهما يريد منع النعمة عن الغير، ثم يتميز البخل بعدم دفع ذي النعمة شيئًا، والحاسد يتمنى إلا يعطى أحد سواه شيئًا»^(٥).

قال بعض الأدباء: «ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم، وهم لازم وقلب هائم»^(٦).

﴿ثانيًا: دواعي الحسد:﴾

١- بغض المحسود، فيأسى عليه بفضيلة تظهر.

(١) أخرجه النسائي في السنن، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٢٩١٢) وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني ٨/ ٣٠٩، رقم (٨١٥٧). قال الهيثمي ٨/ ٧٨ رجاله ثقات. وصححه الألباني (٣٣٨٦) الصحيحة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب العين حق (٥٧٤٠)، ومسلم في كتاب السلام باب الطب والمرض والرقي (٢١٨٧).

(٤) أدب الدنيا والدين للماوردي ٢٦٠-٢٦١.

(٥) الكليات ٢٤٢.

(٦) أدب الدنيا والدين للماوردي ١٧٦.

- ٢- أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه يكره تقدمه فيه.
- ٣- أن يكون في الحاسد شح بالفضائل، فيعترض على قضاء الله له^(١).
- ٤- الخوف من فوت المقاصد، وهذا يختص بمتزاحمين على مقصود واحد^(٢)، وهي أمور الدنيا، وأما أمور الآخرة فإنها لا تضيق على المتزاحمين.

ثالثاً: مضار الحسد:

- ١- إسقاط الله تعالى في معارضته، إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ولا لنعمه من الناس أهلاً.
- ٢- حسرات النفس وسقام الجسد.
- ٣- انخفاض المنزلة، وانحطاط المرتبة.
- ٤- مقت الناس له، وعداوتهم.
- ٥- يجلب النقم ويزيل النعم.
- ٦- منبع الشرور العظيمة ومفتاح العواقب الوخيمة.
- ٧- يورث الحقد والضغينة في القلب.
- ٨- معول هدم في المجتمع.
- ٩- دليل على سفول الخلق ودناءة النفس^(٣).

رابعاً: دواء الحسد:

- ١- علاج الحسد عن الحاسد:

مرض الحسد يمكن أن يعالج بأمر: إتباع دين الله تعالى، والتوبة إلى الله

(١) هذه الثلاثة أمور ذكرها الماوردي في أدب الدنيا والدين ١٧٦.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٠٠.

(٣) نضرة النعيم ١٠/ ٤٤٢٩.

تعالى، والرجوع إلى الله في آدابه فيقهر نفسه على اجتناب مذموم الأخلاق، وتذكر أن العقل السليم يستبجح هذا الأمر، أن يجاهد نفسه على عدم التفكير في نعم غيره ويرضى بقضاء ربه له، وإشغال الذهن بالتفكير في آيات الله ونعم الله عليه، الدعاء لمن يتميز بنعمة من الله.. وغيرها من الأسباب المعينة.

٢- علاج الحسد عند المحسود:

قال ابن القيم: «ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

- ٣- التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجوء إليه.
- ٤- تقوى الله، فمن اتقى الله حفظه ولم يكله إلى غيره.
- ٥- الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه.
- ٦- التوكل على الله فمن توكل على الله فهو حسبه.
- ٧- فراغ القلب من الاشتغال به الفكر فيه وأن لا يخافه.
- ٨- الإقبال على الله تعالى وعلى عبادته، قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرَ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد].
- ٩- تجريد التوبة إلى الله لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى].
- ١٠- الصدقة والإحسان ما أمكن، فما حرس إنسان نعمة بمثل شكرها ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»^(١).

(١) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٦١ (٨٩٠) وقال الألباني حسن لغيره.

- ١١- إطفاء نار الحاسد بالإحسان إليه، وهذا من أعظمها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وما يُلقَّها إلا الذين صبروا وما يُلقَّها إلا ذو حظٍ عظيم (٣٥) ﴿ [فصلت].
- ١٢- تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب فهو الذي يكشفها عنه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧) ﴿ [يونس] (١).



(١) مختصرًا من بدائع الفوائد ٢/٤٦٣-٤٧٠، وانظر: التفسير القيم لابن القيم ٥٨٥-٥٩٣، وبدائع التفسير ٥/٤١٦-٤٢٥-الضوء المنير ٥/٥٣١ باختصار وزيادة في الأدلة، وتفسير سورة الناس للشيخ محمد ابن عبد الوهاب ص ٥٠ معالم في طريق طلب العلم للسدحان ٩٣-١١٤.

ثالثاً: تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾

المبحث الأول

وقفات مع المستعاذ به والمستعاذ عنه

المطلب الأول: المستعاذ به:

الله ﷻ برحمته يوجه رسوله ﷺ وأُمَّته إلى العياذ به والالتجاء إليه بقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③﴾.

ويتبين هذا في عدة نقاط:

⑥ أولاً: ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾:

«الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنها التي عينها الله للنبي ﷺ ليتعوذ بها فإجاباتها مرجوة، فالهدف من الأمر إنشاء معنى في النفس تدل عليه هذه الأقوال الخاصة، وإذ قد كانت من القرآن فالمحافظة على ألفاظها متعينة والتعوذ يحصل بمعناها وبألفاظها حتى كلمة ﴿قُلْ﴾.

والخطاب في ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ وإذا قد كان قرآنا كان خطاب النبي ﷺ به يشمل الأمة؛ حيث لا دليل على تخصيصه به، فلذلك أمر النبي ﷺ بعض أصحابه بالتعوذ بهذه السورة»^(١).

٦ ثانياً: يبين سبحانه الاستعاذة به بصفات:

ربط سبحانه الاستعاذة بصفات معينة، وهذه الصفات:

الرب: الرب الراعي والحامي لعباده.

والملك: الحاكم المتصرف في ملكه، وكل ما سوى الله مملوك له.

والإله: هو المعبود، والله سبحانه هو المستحق للعبادة وحده دون من سواه.

ولماذا هذه الصفات الثلاث؟

وهذا الربط والاصطفاء لهذه الصفات يتطلب استحضار معاني هذه الصفات حين الاستعاذة، فهذه الصفات الثلاث حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور.

قال القرطبي: «وإنما ذكر أنه رب الناس وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس معظمون، فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم»^(٢).

وأمر ثالث وهو: «أن الشر المستعاذ منه مَصَّبُهُ إلى الناس فناسب أن يستحضر

المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ومن يُلقَى إليهم، ليصرف هؤلاء ويدفع

عن الآخرين»^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٢٥-٦٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٠.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٢.

«إنما قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ٢ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ٣ لأن في الناس ملوكًا؛ يُذَكَّرُ أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره؛ فَذَكَرَ أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء»^(١).

«وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيبًا متدرجًا: رب ثم ملك ثم إله:

١- فالله خالق الناس، ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بيانًا بوصف إلهيته لهم ليتبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوية بعضهم بعضا وحاكمية بعضهم في بعض.

٢- وفي هذا الترتيب إشعار بمراتب النظر في معرفة الله تعالى، فإن الناظر يعلن بادئ ذي بدء بأن له ربًا، بسبب ما يشعر به من: وجود نفسه، ونعمة تركيبه. ثم يتغلغل في النظر فيشعر بأن ربه هو الملك الحق الغني عن الخلق. ثم يعلم أنه المستحق للعبادة فهو إله الناس كلهم»^(٢).

٣- «بدأ باسم الربِّ، وهو اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلًا كاملاً، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك»^(٣).

٤- وبدأ بالربوبية لأنها الأعم فتشمل كل شيء من حيوان وجماد، وهي أول ما يُسأل عنه: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا خَلْقَهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْدُ﴾ ١٦ [الرعد].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٢٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٣٢ - ٦٣٣.

(٣) فتح القدير ٥ / ٥٣١.

ثم المُلْك وهو أكثر من الإلهية وعامة الخلق مقرون بالربوبية، ولكن أشكل عليهم وألبس عندهم ملك غيره؛ حقيقة مما هو غير خارج عن ملكه سبحانه، أو توهمًا كما في الأشجار والأحجار والمعبودات.

ثم الألوهية هي عقيدة خلاصة المكلفين من الإنس والجن، وهي سر إرسال الرسل قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

٦ ثالثًا: فائدة تخصيص الناس بإضافة تلك الصفات:

خصص الله الربوبية والملك والإلهية للناس مع أن الله رَبُّ كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء

لمميزات وإشارات منها:

- ١- استشعار قرب الله ورعايته لمن هو ربهم وملكهم وإلههم في موقف العياد والاحتماء، وهذا يستلزم الإخلاص والصدق في تلك الاستعاذة.
- ٢- «إشارة إلى كل الناس بدون تخصيص جنس أو لون»^(١)، فلا يخرج شيء عن ربوبيته وملكه ولو كان كافرًا أو شيطانًا ظالمًا.
- ٣- «وكرر لفظ الناس في الثلاث مواضع: لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية إظهار، ولأن التكرار يقتضي مزيد شرف للناس»^(٢).

٦ المطالب الثاني: المستعاذ منه:

قال تعالى: ﴿مَنْ شَرَّ أَلُوسًا أَلِ الْخَنَاسِ ۗ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۗ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۗ﴾.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٣ بتصرف.

(٢) فتح القدير ٥/٥٣١.

وفي هذه الجملة عدة نقاط:

﴿أولاً: يبين لنا الله ﷻ هنا صفة هذا المستعاذ منه وهي:

١- ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ «يعني: من شر الشيطان. والوسوسة: حديث النفس»^(١)

«وهي: الكلام الخفي، وإطلاق ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ يشمل: الشياطين التي تلقي في أنفس الناس الخواطر الشريرة، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠] ويشمل الوسواس: كل من يتكلم كلاماً خفياً من الناس - وهم أصحاب المكائد والمؤامرات - المقصود منها إلحاق الأذى؛ من اغتيال نفوس، أو سرقة أموال، أو إغراء بالضلال والإعراض عن الهدى. لأن شأن مذاكرة هؤلاء بعضهم مع بعض أن تكون سرّاً لئلا يطلع عليها من يريدون الإيقاع به»^(٢).

٢- ﴿الْخَنَاسِ﴾: «مأخوذ من خنس، ومعناه: الاختفاء بعد الظهور، وقيل:

الرجوع للوراء، والخناس مأخوذ من هذين المعنيين. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشیطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس»^(٣) أي: تأخر وأقصر، فسمي بالخناس لأنه جبان يهرب ويتوارى عند ذكر الله، «ثم إذا غفل الإنسان عاوده بالوسوسة»^(٤). والمراد: أن الخنس صار عادة له^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في الصنف ٧/١٣٥ (٣٤٧٧٤) وعبد الرزاق في مصنفه ٧/١٣٥ (٣٤٧٧٤)، والحاكم في المستدرک ٢/٥٩١ (٣٩٩١) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والبيهقي في شعب الإيمان ٢/١٦٩ (٦٦٦) والمقدسي في المختارة ١٠٥/٣٦٧ (٣٩٣)، وذكره البخاري تعليقاً في كتاب التفسير باب سورة الناس.

(٤) وانظر: بدائع الفوائد ٢/٤٧٩، والتفسير القيم ٢/٣١٩.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤.

قال القرطبي: «ووصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يخنس إذا ذكر العبد الله، أي: يتأخر. وقيل: سمي خناساً لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله»^(١). «فهو يتصل بعقل الإنسان وعزمه من غير شعور منه فكأنه خنس فيه، وأهل المكر والكيد والتختل خناسون؛ لأنهم يتحيلون غفلات الناس ويتسترون بأنواع الحيل لكيلا يشعر الناس بهم»^(٢).

﴿ثانياً: حدد الله تعالى عمل هذا المستعاذ منه:

﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾: «ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خفي، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت»^(٣) كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وبيان العمل: «لتقريب تصوير الوسوسة، كي يتقيها المرء إذا اعترته لخبائها، وذلك بأن يبين أن مكان إلقاء الوسوسة هو صدور الناس وبواطنهم، فعبّر بها عن الإحساس النفسي»^(٤) قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّاكِبًا مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال النبي ﷺ «الإثم ما حاك في الصدر وتردد في القلب»^(٥).

﴿في صُدُورٍ﴾ كل ﴿النَّاسِ﴾ بلا استثناء، ولكن من يستمع إليه ويصغي إليه ويعمل بوسوسته يهلك وأما من طرحه وذكر الله فقد نجا.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٢.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٣.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤.

(٥) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣).

فالوسواس الخناس هو: «الشیطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزين له الفواحش»^(١) وقد ثبت في الصحيح أنه: «ما منكم من أحد إلا قد وُكِّل به قرينة»، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه في قصة زيارة صفة صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم وهو معتكف، وخروجه معها ليلا ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرعَا، فقال رسول الله: «عليّ رسلكما، إنها صفة بنت حُيي». فقالا: سبحان الله يا رسول الله!! . فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا، أو قال: شرًا»^(٣).

◉ ثالثاً: حدد شخصية المستعاذ منه:

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾: «مِنَ» هنا بيانية، بينت ﴿الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فهو إما صنف من الجنّة وهو أصله، وصنف من الناس وما هو إلا تبع وولي للصنف الأول»^(٤).

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد، فجلست، فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قلت: لا. قال: «قم فصل». قال: فقامت فصليت، ثم جلست

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٥٣٩.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا (٢٨١٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٢٠٣٥). ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤيا خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٢١٧٤).

(٤) التحرير والتنوير ٢٠ / ٦٣٥.

فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»... الحديث^(١).

وجمع الله هذين الصنفين في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال الحسن: هما شيطانان، أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية، وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن^(٢).

«ووجه الحاجة إلى هذا البيان خفاء ما ينجر من وسوسة نوع الإنسان، لأن الأمم اعتادوا أن يحذرهم المصلحون من وسوسة الشيطان، وربما لا يخطر بالبال أن من الوسواس ما هو شر من وسواس الشياطين، وهو وسوسة أهل نوعهم وهو أشد خطراً، وهم بالتعوذ منهم أجدر؛ لأنهم منهم أقرب، وعليهم أخطر، وأنهم في وسائل الضر أدخل وأقدر.

وقدم ﴿الْحِجَّةَ﴾ على ﴿وَالنَّاسِ﴾ هنا لأنهم أصل الوسواس كما علمت، بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين، لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٤].^(٣)

(١) أخرجه النسائي في السنن، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر شياطين الإنس (٥٥٠٧)، وأحمد ١٧٨/٥ رقم (٢١٥٨٦)، مصنف وعبد الرزاق في مصنفه (٢٥٧٩)، وضعف إسناده: الهيثمي ١/٣٩٥ و٣٨٦/٨ والألباني في ضعيف النسائي (٥٥٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٣.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/٦٣٥.

رابعاً: فائدة تكرار لفظ الناس:

«وتكرير كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في هذه الآيات المرتين الأوليين باعتبار معنى واحد لقصد تأكيد ربوبية الله تعالى وملكوته وإلهيته للناس، وأما تكريره المرة الثالثة بقوله: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فهو إظهار لأجل بُعد المعاد إليه الضمير، وأما تكريره المرة الرابعة بقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فلأنه بيان لأحد صنفَي الذي يوسوس في صدور الناس، وذلك غير ما صدق كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في المرات السابقة»^(١).

خامساً: فائدة هذا التدرج وهذه المقدمات في ذكر شخصية المستعاذ منه:

هذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام؛ ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهباً لدفعه أو مراقبته!

والنفس حين تعرف بعد هذا التشويق والإيقاظ أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً، وأنه من الجنّة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنّة، ويوسوسون وسوسة الشياطين - إن النفس حين تعرف هذا- تتأهب للدفاع، وقد عرفت المكنن والمدخل والطريق!

* * *

(١) التحرير والتنوير ٢٠ / ٦٣٥-٦٣٦.

المبحث الثاني

وقفات حول وسوسة شياطين الإنس والجن

أولاً: طريق معرفة وسوسة الجن:

وسوسة الجنّة لا ندري كيف تتم! ولكننا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة، ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قائمة؛ وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً، فأذن فيها سبحانه لحكمة يراها، فهو مع كل واحد منا كما قال المصطفى ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله!! قال: «وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»^(١).

وقد بين الله ورسوله لنا طرق إغواء الشيطان وفتنته، وحذرنا الشارع الحكيم منه أشد التحذير، ومن سلوك طريقه، وبين لنا ما يعصمنا من ذلك، ووعدنا بالمغفرة والتوبة لو رجعنا إلى الله سبحانه، واستعدنا من ذلك الشيطان وشر أعمالنا التي اتبعنا فيها الشيطان وإغواءه ووسوسته وتزيينه.

ثانياً: طريق معرفة وسوسة الإنس:

أما الناس فنعرف عن وسوستهم الشيء الكثير، فنعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين!

فمن هؤلاء: رفيق السوء فهو يوسوس بالشر إلى رفيقه من حيث لا يحترس، وكذلك أعوان السوء الذين يوسوسون لكل مسؤول حتى تتركه فاسداً مفسداً، وكذلك

(١) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً (٢٨١٤).

النمام الواشي الذي يفسد بين الناس، ومروجي ومشيعي الشهوات والشائعات والأراجيف.. وغيرهم كثير وأمثلتهم في الواقع كثيرة، فهم معروفون في كلامهم وسمتهم ولباسهم، قوم قويضهم الشيطان لخدمته بل هم شر من الشيطان!!.

ثالثاً: وسوسة الجن والإنس باقية إلى قيام الساعة:

وسوسة الجن والإنس معركة قائمة إلى يوم القيامة، يترقبون الغفلة من بني آدم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۗ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْزِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ۗ إِنَّهُ أَقْبَلُ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۗ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَصْطَفَعَتِ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۗ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۗ﴾ [الإسراء].

رابعاً: حكم حديث النفس:

إن حديث النفس من الوسوسة التي يقذفها الشيطان في قلب ابن آدم، ولذا فإن الشارع الحكيم رفع المؤاخذه عن ابن آدم في تلك الخواطر والأفكار التي قد تمر بخاطره، ولكن شرط أن لا تتحول إلى إرادة، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ وَجَّهٌ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ بِهِ»^(١).

خامساً: طريق النجاة من خطر الجن والإنس:

أذن الله لإبليس بالوسوسة، ولكن لم يسلبه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم، فأما من يذكرونه فهم في نجاة من الشر ودواعيه الخفية قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۗ﴾ [النحل]، فالخير إذن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والندور، باب إذا حنث ناسيا (٥٢٦٩) ومسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (١٢٧).

يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، يستند إلى الرب الملك الإله، والشر يستند إلى وسواس خناس، يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام الاستعاذة بالله؛ فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس، وتوحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره، فهو سواء كان من الجنة أم كان من الناس إذا وُجِه خنس، وعاد من حيث أتى، وقبع واختفى، أو كما قال ابن عباس رضي الله عنه في تمثيله الدقيق: «إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَنَسَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسَّوَسَ»^(١).

إنَّ هذا الفهم، يقوي القلب على مواجهة الوسواس، لأنه ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة، فهو يحمي القلب من الهزيمة، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة.

❖ ولم يترك الله الإنسان أمام هذه الوسواس مجرداً من العُدَّة!! بل جعل الله له جَنَّةَ الْإِيمَانِ، إذ جعله للإنسان حصناً حصيناً قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. فالإيمان حصن ومنعة وسلاح، فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده المعلوم.

ومن أهم شعب الإيمان التي يذهب الله بها وسوسة شياطين الإنس والجن:

- ١- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [٢٧] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٢٨﴾ [المؤمنون].
- ٢- ذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقل: تعس

الشیطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشیطان، تعاضم. وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب»^(١).

٣- الصلة الدائمة بالله ﷻ: باللسان والجنان والعمل وهو حقيقة الذكر.. فعن ابن عباس ؓ قال: «الشیطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس»^(٢).

٤- ذكر الله تعالى ودعاؤه والاستعاذة به، فعن خولة بنت حكيم السلمية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»^(٣).

٥- النفث: قال النبي ﷺ «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشیطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشیطان فإنها لا تضره»^(٤).



(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب باب ٨٥ رقم (٤٩٨٢)، وأحمد ٥/ ٥٩ (٢٠٦١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٢٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٨).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في منامه (٦٩٩٥)، ومسلم، كتاب الرؤيا، باب ١ (٢٢٦١).

الخاتمة

الحمد رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، محمد ﷺ وعلى من استن بسنته واقتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

﴿ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَمَا وَصَفَهُ اللَّهُ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى].

﴿ فهو بلا شك منهج كامل شامل لجميع شؤون الحياة، ويقود إلى حياة أخروية فيها السعادة والهناء، والرضا بفضل بديع الأرض والسموات.

﴿ إنه العقيدة والعبادة، والتعامل والأخلاق، وهو العلم والعمل، وفيه الصبر والرضا، وغير ذلك من شؤون الحياة، علمنا ذلك من خلال عرضنا لهذه السور العظيمة، التي خاطبت العقول والقلوب، خاطبت المؤمنين والكافرين، وحاجت المنكرين المستكبرين، وربت العقلاء المتفكرين في آيات رب العالمين.

﴿ نخرج من هذه السور بعد عرض جوانب منها، بفوائد جممة، وأخلاق متعددة، وحجج مقنعة، وآيات باهرة، وحكم متميزة.

وقد تبين من خلال عرض آيات هذه السور النتائج والتوصيات الإجمالية التالية:

النتائج:

١- نبه الله تعالى في هذه السور على أخلاق هي عماد الأخلاق، ومنها تبنثق وتترتب عليها جميع الفضائل والمحامد، فلتأمل في هذه الأخلاق: خلُق

الشكر، وحماية حمى التوحيد، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، وبذل المعروف، وكف الأذى، وإتباع الهدى.

٢- هذه الأخلاق هي من لوازم «لا إله إلا الله» فهي أخلاق التوحيد، وهي أخلاق العبادة، فإن الله تعالى ضمّن آياتها: الأمر بالتوحيد وهو عقيدة، والشكر والصلاة وهما عبادة، ليبين لنا أن هذه أخلاق أيضًا، ولا تتم على أكمل وجه إلا إذا تمت الأخلاق، فلنتأمل هذه الأخلاق وتناسقها في الآيات لنرى ترابطها وشمولها وأهميتها.

٣- بين الله تعالى في هذه السور أسس التوحيد، بحجة ظاهرة، يخاطب فيها العقول والقلوب، وبيّن قدرته وعظمته ونعمته واستحقاقه بذلك للعبادة وحده لا شريك له.

٤- ربط الخالق عباده بالإيمان بالغيب الذي يجعلهم يطبقون ما تعلموه من هذه الآيات، فالجزاء والحساب هو الحافز على العمل والاجتهاد، والخسران والبوار في ترك ما شرعه.

٥- أظهر الربُّ للمكلفين أنّ الجزاء والحساب غيب، ينبهنا عليه ربنا ولا نعلم كنهه وكيفيته إلا بما أخبرنا الله به وأخبرنا به رسوله ﷺ، لأن عقولنا الضعيفة الضيقة لا تستطيع الإلمام بهذا الغيب وكنهه، ولكن نحن مطالبون بالعمل، ولسنا مطالبون بمعرفة الغيب.

٦- أن من خلق الله من يتأثر بآيات الله فيكون التأثر واضحًا على جميع تصرفاته، وشخصيته الإسلامية متميزة عن أي شخصية أخرى، وتجعل لهم قيمة عند الخلق وقبل ذلك عند الخالق ﷻ.

٧- أن الذين لا يتأثرون بآيات الله، ولا يقيمون لها اعتبارًا، ويستبدلونها بكل

ما يبعدهم عن هديها، فأولئك ليس لهم قيمة نافعة في مجتمع الحياة، ولا في آخرتهم.

٨- عظم إعجاز القرآن في أسلوبه وترتيبه ومضمونه، يتضح ذلك من أوجه التناسب بين قصار السور. وأن كتاب الله قد حوى على إيجاز ألفاظه سعادة الدنيا وراحتها، وسعادة الآخرة ونعيمها.

٩- أن النبي ﷺ هو القدوة العملية في كل شؤون الحياة، وهذا يتضح بجلاء في معاني تلك السور وألفاظها. وأن أعظم أسباب الثبات في الملمات والمهام الجسم هو حسن الاقتداء والسير على أثر الحبيب ﷺ فهو القائد لمصلحة الدنيا والدين.

التوصيات:

١- الاهتمام والعناية بكتاب الله تعالى وفق سنة النبي ﷺ وفهم صحابته الكرام ﷺ ففيه الغنية عما أحدثه الناس من الكلام والفلسفة، إذ تضمن خير الدنيا والآخرة، فجمع أسباب السعادة المادية والمعنوية، وصدق الله ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء] ولكننا نخاف ممّا في قوله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٢٤] [محمد].

٢- من أراد أن يوجه الناس ويرشدهم إلى دين الله تعالى؛ فعليه أن يبدأ بإصلاح القلوب، وإزالة ما فيها من شوائب الاعتقادات، وتعليق تلك القلوب بخالقها ﷻ، لكي يسهل بعد ذلك عليها تقبل الأوامر والنواهي، والالتزام بذلك.

هذا باختصار شديد أهم ما وصلت إليه فيما تحدثت عنه الآيات وركزت عليه وعلى بيانه، فما كان في عملي هذا من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان.

﴿ وأسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجبر تقصيرنا ويعفو عن خطأنا. وأن يجزي خيراً كل من ساعدني في هذا البحث أو أسدئ إلي نصيحة، أو صحح لي معلومة، أو ساعدني على استخراجها. وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويبارك في صوابه، وينفع به كل طالب للحق وللطريق المستقيم.﴾

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.



ثبت العراجع

- ١- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان- تأليف الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد- دار العاصمة الرياض- ط١ (١٤٢١هـ).
- ٢- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي- دار التراث- القاهرة.
- ٣- الأحاديث المختارة- الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي المشهور بالضيء المقدسي-تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش- مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة ط ١ - (١٤١٠هـ).
- ٤- أحكام الجنائز وبدعها - للمحدث محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة (٤ت)، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٦هـ.
- ٥- أحكام القرآن - محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي - تحقيق: علي بن محمد البجاوي - دار المعرفة - بيروت.
- ٦- أحكام القرآن- أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر- دار إحياء التراث العربي - بيروت، (١٤٠٥هـ)- محمد الصادق قمحاوي.
- ٧- إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - دار المعرفة - بيروت.
- ٨- أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي تحقيق مصطفى السقا - الطبعة الرابعة - بيروت: دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ٩- الأدب المفرد - محمد بن إسماعيل البخاري- دار الصديق- الطبعة: ط١: ١٤٢١هـ.
- ١٠- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم- محمد بن محمد العمادي أبو السعود- دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١١- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل- محمد ناصر الدين الألباني- نشر:

- المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٢ (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).
- ١٢- أسباب نزول القرآن - علي بن أحمد الواحدي - دار القبلة - ط ٢ (١٤٠٤ هـ).
- ١٣- الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشال سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤ / ١٩٨٣.
- ١٤- أسرار ترتيب القرآن- عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل - تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا دار الاعتصام - القاهرة
- ١٥- الأصول الثلاثة وأدلتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، بدون رقم طبعة، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
- ١٦- إعراب القرآن: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق: الدكتور زهير غازي زاهد، طبعة عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ.
- ١٧- إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله- تحقيق: محمد حامد الفقي - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية (١٣٩٥ هـ).
- ١٨- الإقناع في القراءات السبع - أحمد بن علي بن الباذش - تحقيق: د. عبدالمجيد قطامش - مكة المكرمة - مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى - ١٤٠٣ هـ.
- ١٩- أمثال القرآن - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - دراسة وتحقيق: ناصر بن سعد الرشيد، مطابع الصفا، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الثانية، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م
- ٢٠- إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن- أبوالبقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري- تصحيح وتحقيق: إبراهيم عطوة عوض- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - الطبعة الثانية - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.
- ٢١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - المشهور ب(تفسير البيضاوي)، لأبي الخير عبدالله بن عمر البيضاوي- دار الفكر، ١٤٠٢ هـ.
- ٢٢- الأوائل - للعسكري الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ت ٣٩٥ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

- ٢٣- إيجاز البيان في سور القرآن- محمد بن علي الصابوني- مكتبة الغزالي - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- ٢٤- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الجزائري: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر - مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية- ط٥- (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- ٢٥- الإيمان - شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ط الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ٢٦- الإيمان أولاً لو كانوا يعلمون- مقالة من إعداد: أبي عبد الرحمن هشام بن فهمي العارف المقدسي - نشرتها جريدة القدس العدد ١١٧٧٢ تاريخ ١٩/٣/١٤٢٣ الموافق ٣١/٥/٢٠٠٢م، ونشرها في كتاب كلمات في الدعوة والمنهاج (نور على الدرب) - سلسلة اقرأ (١) - منشورات الدعوة السلفية كتاب رقم (٧٧).
- ٢٧- الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة- عبدالله بن عبد الحميد الأثري- تقديم: د. عبد الرحمن بن صالح المحمود. ط. دار الغرباء - استانبول.
- ٢٨- بحر العلوم - أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي - تحقيق: د. محمود مطرجي - نشر دار الفكر - بيروت.
- ٢٩- البحر المحيط - محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي - دار الفكر - بيروت ط٢ (١٤٠٣هـ).
- ٣٠- بدائع التفسير- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - جمع وتحقيق: يسري محمد- دار ابن الجوزي- الدمام - ط١ (١٤١٤).
- ٣١- بدائع الفوائد- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد الحجج - مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة- ط١ (١٤١٦هـ-١٩٩٦م).
- ٣٢- بداية الهداية وتهذيب النفوس بالأداب الشرعية- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي - مطبعة محمد شاهين - القاهرة.

- ٣٣- البداية والنهاية - الحافظ ابن كثير الدمشقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٣ (١٤٠٧هـ).
- ٣٤- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية - بيروت.
- ٣٥- بغية الطلاب من موضوعات سورة الأحزاب -دراسة موضوعية- د.محمد بن عبدالعزيز العواجي- دار طيبة الخضراء - مكة المكرمة ط ١ (١٤٣٠هـ).
- ٣٦- بينات الرسول ومعجزاته - عبدالمجيد بن عزيز الزنداني - مركز البحوث بجامعة الإيمان باليمن- صنعاء - الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.
- ٣٧- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية القاهرة سنة ١٣٠٦هـ.
- ٣٨- تاريخ أبي سعيد هاشم بن مرثد الطبراني عن أبي زكريا يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ، تحقيق: نظر محمد الفاريابي - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ٣٩- التاريخ الإسلامي مواقف وعبر- د.عبدالعزیز بن عبدالله الحميدي- دار الدعوة- الإسكندرية- ط ١ (١٤١٨هـ).
- ٤٠- تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م.
- ٤١- تاريخ دمشق - على بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر - دار الفكر بيروت- ط (١٤١٥هـ).
- ٤٢- التبيان في إعراب القرآن - لأبي البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: عيسى الحلبي - القاهرة - ١٣٩٦هـ.
- ٤٣- التحرير والتنوير - ابن عاشور - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤م.
- ٤٤- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا- دار الكتب العلمية - بيروت.

- ٤٥- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم - بدر الدين محمود إبراهيم ابن جماعة الكناني الحموي المصري، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٤٦- الترغيب والترهيب- لزكي الدين عبدالعزيز بن عبدالقوي المنذري- - مكتبة دار التراث- القاهرة.
- ٤٧- التعريفات - للشريف الجرجاني مكتبة لبنان - بيروت سنة ١٩٧٨ م.
- ٤٨- تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) - الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي - دار الفكر - بيروت - لبنان - (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م).
- ٤٩- تفسير السراج المنير - المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٥٠- تفسير السور القصار - جمال الهيملي - مذكرة مرقومة بالحاسب.
- ٥١- تفسير الفخر الرازي - المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - دار الفكر - بيروت - ط ٣ (١٤٠٥ هـ).
- ٥٢- تفسير القرآن العزيز- ابن أبي زمنين: محمد بن عبدالله - تحقيق: أبو عبدالله حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز - الفاروق الحديثة للنشر - القاهرة - ط ١ - ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.
- ٥٣- تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - تحقيق سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط ١ (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).
- ٥٤- تفسير القرآن العظيم- عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي- تحقيق: أسعد محمد الطيب- مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة- ط ١ (١٤١٧ هـ).
- ٥٥- التفسير القرآني للقرآن - تأليف: د. عبدالكريم الخطيب - نشر: دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٧٠ م.
- ٥٦- التفسير القيم، محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية- جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨ هـ.

- ٥٧- التفسير الميسر - عدد من أساتذة التفسير تحت إشراف الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي - موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- ٥٨- التفسير الوسيط - د. محمد سيد طنطاوي - نشر مطبعة السعادة - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- ٥٩- تفسير جزء عم (تفسير القرآن الكريم) - محمد بن صالح العثيمين - اعتنى به: فهد بن ناصر السليمان - دار الثريا للنشر - الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٦٠- تفسير سورة العصر - عبدالعزيز بن عبدالفتاح القارئ - مكتبة الدار - المدينة المنورة - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- ٦١- تفسير سورة الناس - محمد بن عبدالوهاب - تحقيق: د. فهد بن عبدالرحمن الرومي - نشر مجلة البحوث الإسلامية - دار الإفتاء بالرياض.
- ٦٢- تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني - تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني - المدينة المنورة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).
- ٦٣- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، (١٣٨٧هـ) - تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري.
- ٦٤- تهذيب الأسماء واللغات - أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦٥- تهذيب اللغة - أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري - مطبعة الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة - القاهرة - سنة ١٩٦٦م.
- ٦٦- تهذيب تاريخ دمشق: علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر، هذبه ورتبه: عبد القادر بدران، الطبعة الثانية، دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٦٧- تيسير العزيز الحميد - سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب.
- ٦٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبدالرحمن بن ناصر السعدي - تحقيق: د.

- عبدالرحمن بن معلل اللولحق - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- ٦٩- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية - ط ١ - ١٤٢٢هـ.
- ٧٠- جامع الأصول جامع الأصول في أحاديث الرسول: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، (الطبعة بدون)، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- ٧١- جامع البيان عن تفسير آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - القاهرة - ط ١ (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- ٧٢- جامع الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- ٧٣- الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي.
- ٧٤- الجواب الكافي - ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي بيروت - ط ٢ - ١٤١٤هـ.
- ٧٥- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٧٦- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) - لابن مخلوف الثعالبي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
- ٧٧- حاشية ابن القيم على سنن أبي داود - محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- ٧٨- حاشية الأصول الثلاثة - تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي - نشر: دار الزاحم - الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٧٩- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير - محمد عرفة الدسوقي - نشر: دار الفكر للطباعة والنشر.

- ٨٠- حاشية العدوي على الرسالة- علي العدوي- مطبوع مع شرح الخرشي - نشر: دار الكتاب الإسلامي لإحياء ونشر التراث الإسلامي - القاهرة - مصر.
- ٨١- الحجة للقراء السبعة - أبو علي الحسن بن عبدالغفار الفارسي - تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي - دمشق - دار المأمون.
- ٨٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت- ط ٤ (١٤٠٥هـ).
- ٨٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - لجلال الدين السيوطي - تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي - مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية - القاهرة - ط ١ (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).
- ٨٤- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د.محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
- ٨٥- دراسات قرآنية - محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - ط ٨ (١٤٢٥).
- ٨٦- الدرر السننية في الأجوبة النجدية - جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - ط المكتب الإسلامي بيروت من مطبوعات دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية وقد طبع بأمر جلالة الملك فيصل - ط الثانية عام ١٣٨٥هـ.
- ٨٧- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت - ط ١، (١٤٠٥هـ).
- ٨٨- دلائل النبوة، أبو نعيم الأصفهاني، تحقيق: محمد رواس قلعجي، وعبد البر عباس، ط ٢، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ٨٩- الديباج على مسلم- الحافظ عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - حقق أصله وعلق عليه: أبو اسحق الحويني الاثري- دار ابن عفان للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية الخبر- ط ١ (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م)
- ٩٠- ديوان الشافعي، صححه وقدم له الدكتور إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

- ٩١- الرحيق المختوم: صفى الرحمن المباركفوري - الجامعة السلفية - مكتبة دار السلام - الرياض ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.
- ٩٢- روح البيان- (تفسير حقي) - للبروسوى إسماعيل حقى البروسوى - ط دار الفكر بدون تاريخ.
- ٩٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي- دار الفكر- بيروت - ط ١٤٠٣.
- ٩٤- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام- السهيلي- دار الكتب الحديثة- (ط ١٣٨٧هـ).
- ٩٥- رياض الصالحين- الإمام النووي- المكتب الإسلامي - بيروت- تحقيق: تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
- ٩٦- زاد المسير في علم التفسير - عبد الرحمن بن على الجوزي- المكتب الإسلامي - بيروت- ط ٤ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ٩٧- زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبدالقادر الأرنؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية - الكويت- ط ١٤ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).
- ٩٨- زوائد عبدالله بن احمد بن حنبل في المسند مع دراسة عن الإمام عبدالله وجهوده في خدمه السنة - د. عامر حسن صبري- دار البشائر الإسلامية- بيروت - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٩٩- الزواجر عن اقتراف الكبائر - ابن حجر الهيتمي - تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز - نشر المكتبة العصرية - لبنان - صيدا - بيروت - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م
- ١٠٠- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (السيرة الشامية) - محمد بن يوسف الصالحي الشامي- تحقيق: مصطفى عبدالواحد - نشر وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي- القاهرة (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

- ١٠١- سلسلة أعمال القلوب - محمد المنجد - دار الضياء - القاهرة - ط١ (١٤٢٤هـ).
- ١٠٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي - بيروت - ط٤ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).
- ١٠٣- سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- ١٠٤- سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث السجستاني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- ١٠٥- سنن الدارمي: عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، (الطبعة بدون)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (التاريخ بدون).
- ١٠٦- السنن الكبرى - النسائي: أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي - تحقيق: د. عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ (١٤١١هـ-١٩٩١م).
- ١٠٧- السنن الكبرى- البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي - تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - (١٤١٤هـ-١٩٩٤م).
- ١٠٨- السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ. سنن البيهقي
- ١٠٩- سنن النسائي - أحمد بن شعيب النسائي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- ١١٠- السيرة النبوية - ابن كثير: الإمام أبي الفداء إسماعيل - تحقيق مصطفى عبدالواحد - دار الفكر - بيروت، لبنان - ط٢ (١٣٩٨هـ).
- ١١١- السيرة النبوية - ابن هشام - تحقيق مصطفى السقا - مؤسسة علوم القرآن (دمشق بيروت) - دار القبليتين للثقافة الإسلامية - جدة.
- ١١٢- السيرة النبوية - ابن هشام: عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو

- محمد- تحقيق طه عبد الرؤوف سعد- نشر دار الجيل- بيروت - (١٤١١هـ)
- ١١٣- السيرة النبوية - الذهبي: محمد بن أحمد - تحقيق: حسام الدين القدسي - مكتبة الهلال- بيروت.
- ١١٤- السيرة النبوية - الندوي: أبو الحسن علي الحسن الندوي - دار الشروق - جدة- ط٣ (١٤٠١هـ).
- ١١٥- السيرة النبوية الصحيحة - أكرم ضياء العمري - مكتبة العبيكان- الرياض- ط٣ (١٤١٨هـ).
- ١١٦- السيرة النبوية - لابن كثير - أبي الفداء إسماعيل بن كثير - تحقيق مصطفى عبد الواحد - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- ١١٧- السيرة النبوية لأبي حاتم البستي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ١١٨- السيرة النبوية لأبي محمد عبدالملك بن هشام الحميري النحوي. مع شرح أبي ذر الخشني. تحقيق: د.همام عبدالرحيم سعيد ومحمد عبدالله أبو صعيك - مكتبة المنار- ط١ (١٤٠٩هـ).
- ١١٩- السيرة النبوية، دراسة تحليلية، محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- ١٢٠- سيرة خاتم النبيين للأطفال-الندوي: أبو الحسن علي الحسن الندوي- القاهرة- دار الكلمة ١٩٩٨،
- ١٢١- شرح البخاري لابن بطلال - أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك بن بطلال البكري القرطبي - مكتبة الرشد السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م- الطبعة: الثانية.
- ١٢٢- شرح القواعد الفقهية - الشيخ أحمد بن محمد الزرقاء - دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.
- ١٢٣- الشرح الممتع على زاد المستقنع - محمد بن صالح العثيمين - بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - دار ابن الجوزي للنشر- السعودية

- الدمام- الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٢٤- شرح زاد المستقنع - محمد المختار الشنقيطي - مذكرة.
- ١٢٥- شرح سنن ابن ماجه - السيوطي، عبدالغني فخر الحسن الدهلوي - قديمي كتب خانة - كراتشي.
- ١٢٦- شرح نونية ابن القيم (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم) - أحمد بن إبراهيم بن عيسى - تحقيق: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
- ١٢٧- شعب الإيمان - أبو بكر أحمد بن الحسيني البيهقي - تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ (١٤١٠هـ).
- ١٢٨- شعب الإيمان - البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجْردي الخراساني البيهقي - حققه وخرجه: د. عبدالعلي عبدالحميد حامد- نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بومباي بالهند- ط١ (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م).
- ١٢٩- الصبر - أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي - تحقيق محمد خير يوسف - دار ابن حزم - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- ١٣٠- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) - إسماعيل بن حماد الجوهري - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الرابعة - يناير ١٩٩٠.
- ١٣١- صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان - محمد بن حبان بن أحمد البستي - تحقيق شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ (١٤١٤هـ).
- ١٣٢- صحيح ابن خزيمة - محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري - تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي - نشر: المكتب الإسلامي - بيروت - (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).
- ١٣٣- صحيح الأدب المفرد - محمد ناصر الدين الألباني - دار الصديق للنشر والتوزيع - الجليل - ط٢ (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

- ١٣٤- صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ.
- ١٣٥- صحيح الترغيب والترهيب - محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض - ط ٥.
- ١٣٦- صحيح الجامع الصغير وزياداته - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتبة الإسلامية - بيروت - ط ١ (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
- ١٣٧- صحيح السيرة النبوية - (ما صح من سيرة رسول الله ﷺ وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه) - محمد ناصر الدين الألباني - الطبعة الأولى - المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن.
- ١٣٨- صحيح سنن ابن ماجه: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٣٩- صحيح سنن أبي داود: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٤٠- صحيح سنن الترمذي: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٤١- صحيح سنن النسائي: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٤٢- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، ت ٢٦١ هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥.
- ١٤٣- صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة - د. محمد فوزي فيض الله - دار القلم - دمشق - الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ١٤٤- صيد الخاطر - ابن الجوزي - تحقيق: محمد محي الدين الأصغر - دار الإشراف - ط ١ (١٤١١ هـ).
- ١٤٥- ضعيف الترغيب والترهيب - محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض.

- ١٤٦- ضعيف سنن ابن ماجة - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- ١٤٧- ضعيف سنن الترمذي - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- ١٤٨- الضوء المنير على التفسير - أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية -، جمع: علي الحمد الصالحي - نشر: مؤسسة النور بالرياض.
- ١٤٩- الطبقات الكبرى - ابن سعد: محمد بن سعد الزهري، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
- ١٥٠- طريق النبوة والرسالة - د. حسين مؤنس - دار الرشد - ط٢ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).
- ١٥١- طوق النجاة - فيصل بن محمد البعداني - مطبوعات مجلة البيان - الرياض - السعودية.
- ١٥٢- عالم السحر والشعوذة - د. عمر سليمان الأشقر. ط الأولى ١٤١٠هـ مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، دار النفائس الكويت.
- ١٥٣- العبودية - شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحيم بن تيمية - المكتب الإسلامي.
- ١٥٤- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - للإمام محمد بن أبي بكر بن القيم - تحقيق: محمد عثمان الخشت - دار الكتاب العربي - الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ.
- ١٥٥- العدة شرح العمدة - بهاء الدين المقدسي - قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب - الطبعة الثانية - مصر - المكتبة السلفية.
- ١٥٦- العدة في شرح العمدة - بهاء الدين المقدسي - تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤٢١هـ).
- ١٥٧- عمدة القاري شرح صحيح البخاري - بدر الدين العيني - دار الفكر - بيروت (١٣٩٩هـ).
- ١٥٨- عون المعبود شرح سنن أبي داود - محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب - دار

- الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).
- ١٥٩- غرائب القرآن ورغائب الفرقان- (تفسير النيسابوري)- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري- نشر دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ط ١
- ١٦٠- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، مكتبة ومطبعة الحلبي، ١٩٦٢ م.
- ١٦١- غريب الحديث - القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١ (١٣٩٦) - تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان.
- ١٦٢- غريب الحديث - حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ط (١٤٠٢هـ) - تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي.
- ١٦٣- غريب الحديث- أبو إسحاق إبراهيم الحربي - تحقيق: د. سليمان بن إبراهيم العايد- جامعة أم القرى- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥ م.
- ١٦٤- الفتاوى الكبرى- أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس- دار المعرفة - بيروت- ط ١ (١٣٨٦هـ).
- ١٦٥- فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ- جمع وترتيب محمد بن عبدالرحمن بن قاسم - مطبعة الحكومة بمكة المكرمة- ط الأولى ١٣٩٩هـ.
- ١٦٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ.
- ١٦٧- فتح الرحيم الملك العلام - عبدالرحمن بن ناصر السعدي - اعتنى به: د. عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر- دار ابن الجوزي - الدمام - السعودية - ط ٣ - ١٤٢٤هـ.
- ١٦٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - محمد بن علي الشوكاني - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ط ١ (١٤١٥هـ).
- ١٦٩- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد- الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن عبدالوهاب- طبعة دار البيان - دمشق.

- ١٧٠- فضائل الأوقات - أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي - دراسة وتحقيق سلطان بن عبدالمحسن بن عبدالعزيز الخميس؛ ١٤١٠هـ.
- ١٧١- فقه الأدعية والأذكار- عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر- دار ابن عفان للنشر والتوزيع - الرياض ١٤١٩هـ.
- ١٧٢- فقه السنة - السيد سابق - شركة منار الدولية - القاهرة - (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).
- ١٧٣- الفوائد - ابن القيم الجوزية - تحقيق محمد عثمان - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٣ - ١٤١٥هـ.
- ١٧٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير- المكتبة التجارية الكبرى - مصر- الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- ١٧٥- القاموس المحيط - الفيروز آبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ (١٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ١٧٦- القيامة الكبرى- د. عمر بن سليمان الأشقر- دار النفائس - الأردن- ط الثامنة- ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- ١٧٧- الكبائر- محمد بن عثمان الذهبي- دار الندوة الجديدة - بيروت.
- ١٧٨- كتاب الزهد - أحمد بن حنبل.
- ١٧٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - جار اله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار المعارف - بيروت.
- ١٨٠- كشف الستور في نهي النساء عن زيارة القبور - للشيخ حماد الأنصاري - مجلة الجامعة الإسلامية عدد(٥٢)- المدينة المنورة - السعودية.
- ١٨١- الكشاف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها - مكّي بن أبي طالب القيسي - تحقيق: د. محيي الدين رمضان - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.
- ١٨٢- الكشاف والبيان عن تفسير القرآن- الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري- دار إحياء التراث العربي- بيروت (١٤٢٢هـ).

- ١٨٣- الكلام على مسألة السماع- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية - تحقيق: راشد بن عبدالعزيز الحمد - نشر دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
- ١٨٤- الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣ م.
- ١٨٥- اللباب في علوم الكتاب- أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي - تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان - ط١ (١٤١٩هـ-١٩٩٨ م).
- ١٨٦- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري - دار صادر - بيروت - ط١.
- ١٨٧- لطائف الإشارات- (تفسير القشيري) - عبدالكريم القشيري - ط دار الكتاب العربي بالقاهرة.
- ١٨٨- لقاء الباب المفتوح - (لقاءات الباب المفتوح سلسلة لقاءات كان يعقدها فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - طيب الله ثراه - بمنزله كل خميس من شوال ١٤١٢هـ حتى صفر ١٤٢١هـ)- دار الوطن للنشر والتوزيع - الرياض- السعودية.
- ١٨٩- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل- د. فاضل صالح السامرائي - جامعة الشارقة- بحث منشور على الشبكة في موقع صيد الفوائد - والمكتبة الشاملة.
- ١٩٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- علي بن أبي بكر الهيثمي - دار السعادة- القاهرة- ودار الكتاب العربي- بيروت- ط٣ (١٤٠٢ هـ).
- ١٩١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - جمع وترتيب / عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ومساعدته ابنه محمد - الرئاسة العامة لشؤون الحرمين - المملكة العربية السعودية. (١٤٠٤هـ).
- ١٩٢- مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - محمد بن صالح العثيمين - جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان - دار الهداية للنشر - الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

- ١٩٣- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة - عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - جمع وترتيب: د. محمد بن سعد الشويعر - نشر مؤسسة الحرمين الخيرية - الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ.
- ١٩٤- محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل ليون السود، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤١٨هـ.
- ١٩٥- المحرر الوجيز في الكتاب العزيز - عبد الحق بن عطية الأندلسي - مؤسسة دار العلوم - الدوحة - ط ١ (١٣٩٨هـ - ١٩٧٧م).
- ١٩٦- محمد رسول الله - محمد صادق عرجون - دار القلم - ط ٢ (١٤١٥هـ).
- ١٩٧- مختصر معارج القبول - حافظ بن أحمد آل حَكَمِي - اختصار الشيخ هشام بن عبدالقادر آل عَفْدَة - دار طيبة الخُضراء ١٤٢١هـ
- ١٩٨- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.
- ١٩٩- مدارك التنزيل وحقائق التأويل - (تفسير النسفي) - أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده - ميدان الأزهر - القاهرة.
- ٢٠٠- المستدرك على الصحيحين - محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري - تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ (١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- ٢٠١- مسند أبي داود الطيالسي - سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي - دار المعرفة - بيروت.
- ٢٠٢- مسند الإمام أحمد - أحمد بن حنبل الشيباني - مؤسسة قرطبة - القاهرة - مذيّل بأحكام شعيب الأرناؤوط عليها.
- ٢٠٣- مسند الإمام أحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) - بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرناؤوط.
- ٢٠٤- مسند الحميدى، لأبى بكر عبد الله بن الزبير الحميدى، مراجعة حبيب الرحمن الأعظمى، طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٨١هـ.
- ٢٠٥- مشكاة المصابيح - محمد بن عبد الله الخطيب - المكتب الإسلامى - بيروت -

- ط ٣- ١٤٠٥هـ- تحقيق: الشيخ الألباني.
- ٢٠٦- المصنف في الأحاديث والآثار- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي - مكتبة الرشد - الرياض - الطبعة الأولى، ١٤٠٩ - تحقيق: كمال يوسف الحوت.
- ٢٠٧- المصنف- لأبي بكر عبدالرزاق الصنعائي- تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي- المكتب الإسلامي- بيروت (١٩٨٣م).
- ٢٠٨- معارج القبول بشرح سلم الوصول - حافظ حكيمي - دار ابن القيم - الدمام - ط١ (١٤١٠هـ).
- ٢٠٩- معالم التنزيل معالم التنزيل- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي - حققه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش - دار طيبة - الرياض - ط٤ (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- ٢١٠- معالم في طريق طلب العلم - عبدالعزيز بن محمد السدحان - دار العاصمة - الرياض السعودية- ط٣ - ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- ٢١١- المعجم الأوسط- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: طارق بن عوض الله الحسيني - دار الحرمين - القاهرة- ط١٤١٥هـ.
- ٢١٢- المعجم الصغير- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمير- المكتب الإسلامي- بيروت- ودار عمار بعمان- الأولى ١٤٠٥هـ.
- ٢١٣- المعجم الكبير - سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم- الموصل - ط٢ (١٤٠٤هـ).
- ٢١٤- معجم لغة الفقهاء عربي إنجليزي فرنسي- محمد رواس - دار النفائس - ط (١٤١٦هـ).
- ٢١٥- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- ٢١٦- المغني - ابن قدامه - تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي ود/ عبد الفتاح محمد الحلو- هجر للنشر والتوزيع - القاهرة - ط٢ (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

- ٢١٧- مفتاح دار السعادة، ابن القيم، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٢١٨- مفردات ألفاظ القرآن- الراغب الأصفهاني- تحقيق: صفوان عدنان داوودي- دار القلم- دمشق- ودار الشامية- بيروت- ط١ (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- ٢١٩- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- د. جواد علي- دار العلم للملايين، بيروت- ومكتبة النهضة، بغداد- الطبعة الثانية عام ١٩٧٦م.
- ٢٢٠- من موضوعات سور القرآن - سورة النور - عبد الحميد محمود طهماز - دار القلم دمشق - الدار الشامية بيروت - ط١ (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- ٢٢١- منامات الرسول ﷺ - عبد القادر الشيخ إبراهيم- دار القلم العربي- حلب- ط١ (١٤١٩هـ).
- ٢٢٢- المنمق في أخبار قريش- ابن حبيب: محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ)- تحقيق خورشيد أحمد - ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٥ هـ.
- ٢٢٣- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي- دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية، (١٣٩٢هـ).
- ٢٢٤- المهذب من إحياء علوم الدين - صالح احمد الشامي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت- ط٢ (١٤١٩هـ-١٩٩٨م).
- ٢٢٥- الموافقات في أصول الشريعة- لأبي إسحاق الشاطبي- مكتبة الرياض الحديثة- الرياض.
- ٢٢٦- الموسوعة الحديثية - مسند الإمام أحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م)- بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط.
- ٢٢٧- الموسوعة الفقهية الكويتية- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت- الطبعة: ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ.
- ٢٢٨- موسوعة شروح الموطأ - تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي - مركز هجر - القاهرة - ط١ (١٤٢٦هـ).
- ٢٢٩- موسوعة فقه القلوب - محمد بن إبراهيم بن عبدالله التويجري نشر: بيت الأفكار الدولية.

- ٢٣٠- موطأ الإمام مالك - مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي - دار إحياء التراث العربي - مصر - محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٢٣١- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز: لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
- ٢٣٢- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله ﷺ واختلاف العلماء في ذلك - أحمد بن محمد النحاس - تحقيق ودراسة د. سليمان بن إبراهيم اللاحم - مؤسسة الرسالة - ط١ (١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م).
- ٢٣٣- نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم - إعداد مجموعة من المتخصصين - دار الوسيلة - جدة - ط١ (١٤١٨ هـ).
- ٢٣٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - بهاء الدين إبراهيم بن عمر البقاعي - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - ط٢ (١٤١٣ هـ).
- ٢٣٥- النكت والعيون - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي - تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالحكيم - دار الكتب الثقافية - بيروت ط١ (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).
- ٢٣٦- نهاية الإقدام في علم الكلام، لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق ألفرد جيوم، طبعة اكسفورد سنة ١٩٣٤ م.
- ٢٣٧- النهاية في غريب الحديث - ابن الأثير - تحقيق طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطانحي - المكتبة العلمية - بيروت.
- ٢٣٨- النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسني - محمد الحمود النجدي - مكتبة الإمام الذهبي بالكويت - الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ.
- ٢٣٩- هكذا كان النبي ﷺ في رمضان - فيصل بن محمد البعداني - مطبوعات مجلة البيان - الرياض - السعودية.
- ٢٤٠- الوحي وتبليغ الرسالة - د. يحيى بن إبراهيم يحيى - دار الخضير للنشر والتوزيع - المدينة النبوية - ط١ (١٤٢٠ هـ).
- ٢٤١- وقفات تربوية مع السيرة النبوية - عبدالحميد البلالي - ط٣ (١٤١١ هـ).



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

المقدمة

- أولاً: أسباب اختيار المشروع ٥
- أ) أهداف المشروع ٥
- ب) أسباب ومناسبات ٦
- ثانياً: خطة البحث ٧
- ثالثاً: منهجية البحث ١٠

تمهيد

في مقدمات عن المفصل

- أولاً: فضل قراءة وتعلم المفصل ١٣
- (١) تقسيم سور القرآن ١٣
- (٢) البدء بالمفصل في العلم والحفظ ١٤
- (٣) كثرة قراءة النبي ﷺ لها في الصلاة الجهرية ١٦
- (٤) التقسيم للتسهيل والتنوع ١٨
- (٥) الحكمة من التدرج ١٩
- (٦) صفة قراءته للمفصل في الصلاة ٢٠
- ثانياً: أوجه التناسب بين قصار السور عموماً ٢٠

القسم الأول

تفسير سورة الفاتحة

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة ٢٥
- المطلب الأول: تسميتها ٢٥
- أولاً: فاتحة الكتاب ٢٦
- ثانياً: أم الكتاب ٢٦

- ٢٦ ٦ ثالثاً: أم القرآن
- ٢٧ ٦ رابعاً: السبع المثاني
- ٢٧ ٦ خامساً: الصلاة
- ٢٨ ٦ **المطلب الثاني: نزولها وعدّها ومناسبتها**
- ٢٨ ٦ أولاً: نزولها
- ٢٨ ٦ ثانياً: آياتها وكلماتها وحروفها
- ٢٩ ٦ ثالثاً: مناسبتها
- ٣٠ ٦ **المطلب الثالث: فضلها**
- ٣٠ ١) امتنّ الله على نبيه ﷺ بنزولها عليه
- ٣٠ ٢) سورة الفاتحة أعظم سور القرآن
- ٣١ ٣) سورة الفاتحة لم ينزل مثلها
- ٣١ ٤) سورة الفاتحة أفضل سور القرآن
- ٣٢ ٥) سورة الفاتحة مقسومة بين الله وعباده
- ٣٢ ٦) شمولية السورة ونفعها العظيم
- ٣٣ ٧) لا تقوم صلاة بغير هذه السورة
- ٣٤ ٨) التأمين بعد الفاتحة سبب لمغفرة الذنوب
- ٣٤ ٦ **المطلب الرابع: تعدد مواضع قراءتها**
- ٣٤ ٦ أولاً: في الصلوات
- ٣٦ ٦ ثانياً: في الرقية على الممسوس
- ٣٦ ٦ ثالثاً: في الرقية الشرعية على المريض
- ٣٧ ٦ رابعاً: الفاتحة علاج لأمهات الأخلاق الذميمة
- ٣٧ ٦ **المطلب الخامس: المعنى الإجمالي وموضوع السورة**
- ٣٧ ٦ أولاً: المعنى الإجمالي
- ٣٨ ٦ ثانياً: موضوع السورة
- ٤٠ **المبحث الثاني: البسملة أحكام وفوائد تربوية**
- ٤٠ ٦ **المطلب الأول: مفهوم البسملة والتسمية**

- ٤١ ○ **المطلب الثاني:** فضائل البسمة ٤١
- ٤١ (١) البسمة أدب مع الله تعالى ٤١
- ٤١ (٢) البسمة سنة الأنبياء ٤١
- ٤١ (٣) البسمة سنة نبوية ٤١
- ٤٢ (٤) البسمة حصن منيع يحفظ من شياطين الجن والإنس ٤٢
- ٤٢ (٥) البسمة من الرقى الشرعية ٤٢
- ٤٢ (٦) البسمة سنة السلف في بداية مؤلفاتهم ٤٢
- ٤٣ ○ **المطلب الثالث:** أحكام البسمة ٤٣
- ٤٣ ○ **المسألة الأولى:** أحكام البسمة في الصلاة ٤٣
- ٤٣ ○ **المسألة الثانية:** أحكام البسمة في قراءة القرآن وكيفية ٤٣
- ٤٤ ○ **المسألة الثالثة:** حكم البسمة في جميع أعمال المسلم ٤٤
- ٤٧ **المبحث الثالث: حمد الله هو لب العبادة** ٤٧
- ٤٧ ○ **المطلب الأول:** مفهوم الحمد ٤٧
- ٤٧ ○ **أولاً:** تعريف الحمد ٤٧
- ٤٨ ○ **ثانياً:** الفرق بين الحمد والشكر ٤٨
- ٤٨ ○ **ثالثاً:** الفرق بين الحمد والمدح ٤٨
- ٤٩ ○ **رابعاً:** فائدة قوله: «الحمد لله» بدلاً من: أحمد الله ٤٩
- ٥٠ ○ **المطلب الثاني:** فضل وأهمية الحمد ٥٠
- ٥٠ ○ **أولاً:** افتتح بالحمد خمسٌ من سور القرآن ٥٠
- ٥١ ○ **ثانياً:** الحمد سنة الأنبياء ﷺ ٥١
- ٥١ ○ **ثالثاً:** من صفات أهل الجنة أنهم يحمدون الله تعالى ٥١
- ٥٢ ○ **رابعاً:** شمولية الحمد لله في سورة الفاتحة ٥٢
- ٥٢ ○ **المطلب الثالث:** لماذا نحمد الله تعالى ٥٢
- ٥٣ ○ **المطلب الرابع:** مواضع الحمد وصيغته ٥٣
- ٥٤ (١) بعد الفراغ من الأكل والشرب ٥٤
- ٥٤ (٢) عند استحداث ثوب جديد ٥٤

٥٤	٣) عند النوم والاستيقاظ منه.....
٥٥	٤) عند ركوب الدابة.....
٥٥	٥) عند رؤية مبتلى.....
٥٦	٦) عند العطاس.....
٥٦	٧) عند رؤية ما يحب أو يكره.....
٥٦	٨) عند التَّعَرِّي من الليل.....
٥٦	٩) في افتتاح الصلاة.....
٥٧	١٠) من أذكار ختام الصلاة.....
٥٧	١١) بعد الرفع من الركوع.....
٥٧	١٢) عند التهجد.....
٥٨	١٣) حمد الله المطلق.....

٦٠.....المبحث الرابع: أسماء الله وصفاته الله في سورة الفاتحة

٦٠	○ أولاً: معنى لفظ الجلالة (الله).....
٦١	○ ثانياً: معنى اسم الرب.....
٦١	○ ثالثاً: معنى اسم الله الرحمن.....
٦٢	○ رابعاً: معنى اسم الله الرحيم.....
٦٣	○ خامساً: معنى اسم الله الملك.....

٦٤.....المبحث الخامس: ربوبية الله تعالى ودلالاتها ومقتضياتها

٦٩.....المبحث السادس: رحمة الله تعالى

٦٩	○ المطلب الأول: أثر رحمة الله تعالى على عباده.....
٧٠	○ المطلب الثاني: مقتضيات العلم برحمة الله تعالى.....
٧٠	○ أولاً: الإيمان بالله ﷻ والعمل على طاعته.....
٧١	○ ثانياً: طلب رحمة الله تعالى.....
٧٢	○ ثالثاً: الاتصاف بصفة الرحمة مع الخلق.....

٧٣.....المبحث السابع: الإيمان بالبعث وأثره التربوي

٧٦.....المبحث الثامن: العبودية والاستعانة بالله تعالى وحده

- ٧٧ ○ **المطلب الأول:** العبادة لله وحده
- ٧٧ ○ المحور الأول: العبودية لله تعالى هي الغاية من الخلق
- ٧٨ ○ المحور الثاني: معنى العبادة
- ٧٨ ○ المحور الثالث: أركان العبادة
- ٨٤ ○ المحور الرابع: شروط العبادة
- ٨٦ ○ المحور الخامس: شمولية العبادة في الإسلام
- ٨٨ ○ **المطلب الثاني:** الاستعانة لله وحده
- ٨٨ ○ أولاً: معنى الاستعانة
- ٨٨ ○ ثانياً: فضل الاستعانة وأهميتها
- ٨٩ ○ ثالثاً: الاستعانة بالأعمال الصالحة
- ٩٠ ○ رابعاً: حاجة الإنسان إلى إعانة الله تعالى
- ٩١ ○ خامساً: أوجه الاستعانة بالله تعالى
- ٩٢ ○ سادساً: أحوال الناس في الاستعانة
- ٩٢ ○ **المطلب الثالث:** تقديم العبادة على الاستعانة
- ٩٤ ○ **المطلب الرابع:** وقفات تربوية منهجية مع العبادة والاستعانة
- ٩٤ ○ الوقفة الأولى: السعادة تأتي من العبادة والاستعانة
- ٩٤ ○ الوقفة الثانية: العبادة والاستعانة وفاء بالعهد الذي يقطعه المسلم في كل ركعة
- ٩٥ ○ الوقفة الثالثة: أهمية العمل الجماعي في الطريق إلى الله
- ٩٥ ○ الوقفة الرابعة: إعلان كرامة الإنسان وتحرره من كل ما يزلله
- ٩٦ ○ **المبحث التاسع: طلب الهداية إلى الطريق المستقيم**
- ٩٦ ○ **المحور الأول:** أنواع الهداية ومعانيها
- ٩٦ ○ النوع الأول: الهداية العامة المشتركة بين الخلق
- ٩٧ ○ النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر
- ٩٨ ○ النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام
- ٩٨ ○ النوع الرابع: الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما
- ٩٨ ○ **المحور الثاني:** شروط تحقق هداية التوفيق

- ٩٩ المحور الثالث: أقسام الهداية من حيث تحققها وكيفية تكميلها
- ٩٩ المحور الرابع: الهداية المقصودة في الآية
- ١٠٠ المحور الخامس: أهمية طلب الهداية
- ١٠٢ المبحث العاشر: بيان الهداية المطلوبة في السورة
- ١٠٢ المحور الأول: الهداية إلى الطريق الحق
- ١٠٣ المحور الثاني: وصف الصراط المستقيم
- ١٠٥ المحور الثالث: لمسة بيانية تربوية في بيان الصنفين

القسم الثاني

تفسير قصار المفصل

تفسير سورة الضحى

- ١٠٩ المبحث الأول: مقدمات حول السورة
- ١٠٩ أولاً: نزولها ومناسبتها
- ١١٠ ثانياً: موضوعها
- ١١١ ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة
- ١١٢ المبحث الثاني: وقفات حول السورة
- ١١٢ ○ المطلب الأول: وقفات مع المقسم به والمقسم عليه
- ١١٢ ○ أولاً: المقسم به: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾
- ١١٣ ○ ثانياً: المقسم عليه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾
- ١١٤ ○ ثالثاً: الحكمة من فتور الوحي
- ١١٥ ○ المطلب الثاني: بشرى ووعد من الله لنبيه محمد ﷺ
- ١١٦ ○ المطلب الثالث: صور رحمة الله تعالى ورعايته لنبيه ﷺ
- ١٢٠ ○ المطلب الرابع: واجب النبي ﷺ تجاه هذه النعم

تفسير سورة الشرح

- ١٢٥ المبحث الأول: مقدمات حول السورة
- ١٢٥ ○ أولاً: تسميتها ونزولها ومناسبتها
- ١٢٦ ○ ثانياً: موضوعها

- ١٢٦ ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة. ﴿٦﴾
- ١٢٧ المبحث الثاني: وقفات مع السورة. ﴿٧﴾
- ١٢٧ المطلب الأول: تعدد نعم الله تعالى على نبينا محمد ورفع مكانته في العالمين. ﴿٧﴾
- ١٣٤ المطلب الثاني: بشرى من الله تعالى. ﴿٧﴾
- ١٣٥ وقفة مع مبدأ التيسير في الإسلام. ﴿٧﴾
- ١٣٨ المطلب الثالث: ذكر مواقع التيسير وأسباب الانشراح. ﴿٧﴾
- ١٤٠ المطلب الرابع: ماذا بعد العبادة. ﴿٧﴾
- ١٤٠ المسألة الأولى: الذكر بعد العبادة. ﴿٧﴾
- ١٤١ المسألة الثانية: الفرح بعد العبادة. ﴿٧﴾
- ١٤٢ المطلب الخامس: حسن الختام للسورة. ﴿٧﴾

تفسير سورة التين

- ١٤٤ المبحث الأول: مقدمات حول السورة. ﴿٤٤﴾
- ١٤٤ أولاً: تسميتها. ﴿٤٤﴾
- ١٤٤ ثانياً: نزولها ومناسبتها. ﴿٤٤﴾
- ١٤٥ ثالثاً: فضلها. ﴿٤٥﴾
- ١٤٥ رابعاً: موضوعها. ﴿٤٥﴾
- ١٤٦ خامساً: المعنى الإجمالي للسورة. ﴿٤٦﴾
- ١٤٧ المبحث الثاني: وقفات مع السورة. ﴿٤٧﴾
- ١٤٧ المطلب الأول: وقفات مع المقسم به. ﴿٤٧﴾
- ١٤٧ الوقفة الأولى: رفع شأن التين والزيتون. ﴿٤٧﴾
- ١٤٨ الوقفة الثانية: رفع شأن الأماكن المشرفة. ﴿٤٨﴾
- ١٥٠ المطلب الثاني: وقفات مع المقسم عليه. ﴿٥٠﴾
- ١٥٠ الوقفة الأولى: تكريم الله تعالى للنوع البشري. ﴿٥٠﴾
- ١٥٢ الوقفة الثانية: بيان جزاء من كفر نعمة التكريم وجزاء من شكرها. ﴿٥٢﴾
- ١٥٥ المطلب الثالث: تذكير بموضوع الإيمان بالجزاء والحساب. ﴿٥٥﴾
- ١٥٦ المطلب الرابع: الشهادة لله بالحكمة والحكم والإحكام. ﴿٥٦﴾

تفسیر سورة العلق

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة..... ١٥٩
- أولاً: تسميتها..... ١٥٩
- ثانياً: نزولها..... ١٦٠
- ثالثاً: فضلها ومناسبتها..... ١٦٢
- رابعاً: موضوعها..... ١٦٢
- خامساً: المعنى الإجمالي للسورة..... ١٦٣
- المبحث الثاني: وقفات حول سورة العلق..... ١٦٥
- المطلب الأول: حدث عظيم في تاريخ البشرية..... ١٦٥
- المطلب الثاني: آيات التوجيه الأولى للأمة..... ١٦٧
- المحور الأول: أسرار التوجيه في الآيات..... ١٦٨
- المحور الثاني: أثر الوحي على الدعوة..... ١٧٤
- المطلب الثالث: صفة الطغيان عند الإنسان وعلاجها..... ١٨١
- أولاً: الصفة الذميمة: الطغيان عند الاستغناء..... ١٨١
- ثانياً: العلاج بالتذكر بالرجوع إلى الله..... ١٨٣
- المطلب الرابع: صورة من طغيان الإنسان وعاقبتها..... ١٨٣
- أولاً: طغيان من يحارب الهدى ويكذب به ويؤذي أهله..... ١٨٣
- ثانياً: جزاء هذا الطغيان..... ١٨٥
- ثالثاً: واجب الدعاة أمام هذا الطغيان..... ١٩٠

تفسیر سورة القدر

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة..... ١٩٣
- أولاً: تسميتها..... ١٩٣
- ثانياً: نزولها، ومناسبتها..... ١٩٣
- ثالثاً: موضوعها..... ١٩٥
- رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة..... ١٩٥
- المبحث الثاني: وقفات حول السورة..... ١٩٧

- **المطلب الأول:** أنزل الله القرآن في ليلة القدر ١٩٧
- **المطلب الثاني:** لماذا سميت بليلة القدر ١٩٩
- **المطلب الثالث:** عظم أمر ليلة القدر ٢٠٠
- (١) نزول القرآن في ليلة القدر ٢٠١
- (٢) ليلة مباركة ٢٠١
- (٣) نزل فيها القرآن هداية للناس وبياناً وفرقانا ٢٠٢
- (٤) ليلة القدر خير من ألف شهر ٢٠٢
- (٥) الملائكة تنزل في هذه الليلة ٢٠٣
- (٦) ليلة فُرِق فيها من كل أمر حكيم ٢٠٤
- (٧) هذه الليلة فيها أذن الله تعالى لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود ٢٠٤
- (٨) هذه الليلة سالمة من كل شر: ﴿مِن كُلِّ أَمْرٍ ۖ سَأَلْتُمُوهَا﴾ ٢٠٥
- (٩) تسلم الملائكة على أهل المساجد ٢٠٦
- (١٠) غفران ما تقدم من الذنوب ٢٠٦
- **المطلب الرابع:** تعيين ليلة القدر ٢٠٦
- **أولاً:** ما ورد في تعيين ليلة القدر ٢٠٦
- **ثانياً:** الحكمة من إخفاء الله عين هذه الليلة ٢٠٩
- **ثالثاً:** علامات ليلة القدر ٢١١
- **المطلب الخامس:** ماذا يستحب في هذه الليلة ٢١٢

تفسير سورة البينة

- **المبحث الأول:** مقدمات حول السورة ٢١٤
- **أولاً:** تسميتها ٢١٤
- **ثانياً:** نزولها ومناسبتها ٢١٥
- **ثالثاً:** موضوعها ٢١٧
- **رابعاً:** المعنى الإجمالي للسورة ٢١٨
- **المبحث الثاني:** وقفات مع السورة ٢١٩
- **المطلب الأول:** إصرار الكفار مع احتياجهم إلى رسالة جديدة ٢١٩

- المطلب الثاني: صفات البيئة ٢٢٢
- المطلب الثالث: تفرق أهل الكتاب مع وجود البيئة عندهم ٢٢٤
- المطلب الرابع: من صفة البيئة جمعها أصول الشرائع ٢٢٦
- المطلب الخامس: جزاء أهل الإيمان وجزاء أهل الكفر ٢٣٣
- أولاً: جزاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين ٢٣٣
- ثانياً: جزاء المؤمنين بالنبي ﷺ وبما جاء به ٢٣٤
- الوقفة السادسة: سبب حصول الخير للمؤمنين ٢٣٥

تفسير سورة الزلزلة

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة ٢٣٨
- أولاً: نزولها ومناسبتها ٢٣٨
- ثانياً: موضوعها ٢٣٩
- ثالثاً: فضلها ٢٤٠
- رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة ٢٤٠
- المبحث الثاني: وقفات مع السورة حول مشهد وأحوال يوم القيامة ٢٤١
- المطلب الأول: زلزال يوم القيامة ٢٤١
- المطلب الثاني: حال الناس في ذلك الهول ٢٤٢
- المطلب الثالث: الأرض تشهد بأمر الله، والناس ينصرفون للحساب ٢٤٣
- المطلب الرابع: لا تحقرن شيئاً ٢٤٥

تفسير سورة العاديات

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة ٢٤٨
- أولاً: نزولها ومناسبتها ٢٤٨
- ثانياً: موضوعها ٢٥٠
- ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة ٢٥٠
- المبحث الثاني: وقفات مع السورة ٢٥١
- المطلب الأول: وقفات مع المقسم به ٢٥١
- أولاً: المقسم به ٢٥١

- ٢٥٢..... ٦ ثانيًا: المراد من هذا القسم
- ٢٥٣..... ٦ ثالثًا: فائدة ذكر وصف العاديات
- ٢٥٣..... ٦ رابعًا: الخيل في الإسلام.....
- ٢٥٥..... ٦ **المطلب الثاني:** وقفات مع المقسم عليه.....
- ٢٥٥..... ٦ **المحور الأول:** الصفات الإنسانية في السورة
- ٢٥٨..... ٦ **المحور الثاني:** تقويم وعلاج تلك الصفات
- ٢٦٦..... ٦ **المطلب الثالث:** وقفات إيمانية مع السورة.....
- ٢٦٦..... ٦ **أولًا:** أثر الإيمان بالغيب عمومًا وبالآخرة خصوصًا في تهذيب النفس المسلمة.....
- ٢٦٧..... ٦ **ثانيًا:** الوعظ أسلوب تربوي مهم في تهذيب النفس المسلمة

تفسير سورة القارعة

- ٢٦٩..... **المبحث الأول: مقدمات حول السورة.....**
- ٢٦٩..... ٦ **أولًا:** اسمها
- ٢٦٩..... ٦ **ثانيًا:** نزولها ومناسبتها
- ٢٧٠..... ٦ **ثالثًا:** موضوعها
- ٢٧٠..... ٦ **رابعًا:** المعنى الإجمالي للسورة
- ٢٧٢..... **المبحث الثاني: وقفات حول السورة.....**
- ٢٧٢..... ٦ **المطلب الأول:** وصف يوم القيامة.....
- ٢٧٢..... ٦ **المحور الأول:** يوم القيامة هو يوم القارعة.....
- ٢٧٣..... ٦ **المحور الثاني:** من أهوال يوم القيامة
- ٢٧٥..... ٦ **المطلب الثاني:** أقسام الناس يوم القارعة وجزائهم
- ٢٧٦..... ٦ **القسم الأول:** من ثقلت موازينه
- ٢٨٢..... ٦ **القسم الثاني:** من خفت موازينه.....

تفسير سورة التكاثر

- ٢٨٧..... **المبحث الأول: مقدمات حول السورة.....**
- ٢٨٧..... ٦ **أولًا:** تسميتها.....
- ٢٨٨..... ٦ **ثانيًا:** نزولها ومناسبتها

- ثالثاً: موضوعها ٢٨٩
- رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة..... ٢٩٠
- المبحث الثاني: وقفات مع السورة..... ٢٩٤
- المطلب الأول: التحذير من الغفلة والانهماك في الدنيا ٢٩٤
- المطلب الثاني: تذكر الآخرة وأول دار فيها ٢٩٥
- المسألة الأولى: أهمية زيارة المقابر ٢٩٥
- المسألة الثانية: حكم زيارة القبور للنساء ٢٩٧
- المسألة الثالثة: آداب زيارة القبور ٣٠٠
- المطلب الثالث: تعدد نعم الله على الإنسان ٣٠٢
- أولاً: من المسؤول يوم القيامة ٣٠٢
- ثانياً: تذكر النبي ﷺ نعم الله تعالى ٣٠٢
- ثالثاً: النعيم الذي سُأل عنه يوم القيامة ٣٠٣
- المطلب الرابع: كيف نقوم بواجب نعم الله علينا ٣٠٦

تفسير سورة العصر

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة..... ٣١٠
- أولاً: تسميتها..... ٣١٠
- ثانياً: نزولها ومناسبتها ٣١٠
- ثالثاً: موضوعها ٣١١
- رابعاً: فضلها وأهميتها ٣١١
- الأمر الأول: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتخذونها شعاراً لهم في ملتقاهم ٣١١
- الأمر الثاني: شمولها لجميع أسس الحياة ٣١٢
- خامساً: المعنى الإجمالي للسورة..... ٣١٣
- المبحث الثاني: وقفات مع المقسم به والمقسم عليه..... ٣١٤
- المطلب الأول: وقفات مع المقسم به..... ٣١٤
- المطلب الثاني: وقفات مع المقسم عليه..... ٣١٧
- المبحث الثالث: صفات الناجين من الخسران..... ٣١٩

- **المطلب الأول:** الإيمان بالله تعالى ٣١٩
- **المحور الأول:** الإيمان وحقيقته ٣١٩
- **المحور الثاني:** مراتب الإيمان ٣٢٠
- **المحور الثالث:** أثر الإيمان في عدم الخسران ٣٢٢
- **المحور الرابع:** علاقة الإيمان بصفة الإنسانية ٣٢٣
- **المطلب الثاني:** عمل الصالحات ٣٢٥
- **المحور الأول:** ربط الفوز بالإيمان والعمل الصالح ٣٢٥
- **المحور الثاني:** أهمية العمل لتحقيق الإيمان ٣٢٦
- **المحور الثالث:** الربط بين العمل وصلاح العمل ٣٢٦
- **المحور الرابع:** الأعمال الصالحة التي تقي الإنسان من الخسران ٣٢٩
- **المطلب الثالث:** التواصي على الحق ٣٣٠
- **المحور الأول:** معنى التواصي بالحق ٣٣٠
- **المحور الثاني:** أهمية التواصي بالحق ٣٣١
- **المحور الثالث:** من صور التواصي بالحق ٣٣٢
- **المحور الرابع:** التجرد في التواصي بالحق ٣٣٨
- **المطلب الرابع:** التواصي بالصبر ٣٣٩
- **المحور الأول:** معنى التواصي بالصبر ٣٣٩
- **المحور الثاني:** أهمية التواصي بالصبر ٣٣٩
- **المحور الثالث:** نموذج من التواصي بالصبر في القرآن ٣٤٠
- **المحور الرابع:** الصبر ثلاثة أنواع ٣٤٢
- **خاتمة:** لمسة بيانية في السورة ٣٤٣

تفسير سورة الهمزة

- **المبحث الأول:** مقدمات حول السورة ٣٤٥
- **أولاً:** تسميتها ٣٤٥
- **ثانياً:** نزولها ومناسبتها ٣٤٥
- **ثالثاً:** موضوعاتها ٣٤٦
- **رابعاً:** المعنى الإجمالي للسورة ٣٤٧

- المبحث الثاني: وقفات حول السورة..... ٣٤٨
- المطلب الأول: خطر الغيبة والاستهزاء والانتقاص من الآخرين ٣٤٨
- المطلب الثاني: حوارم العلاقات بين الناس عامة..... ٣٥١
- أولاً: الغيبة ٣٥١
- ثانيًا: البهتان ٣٥٣
- ثالثًا: النميمة..... ٣٥٤
- رابعًا: احتقار المسلمين والسخرية منهم ٣٥٥
- خامسًا: التعبير وإظهار الشماتة لهم ٣٥٦
- سادسًا: التناجي بين اثنين بحضور ثالث..... ٣٥٧
- المطلب الثالث: ذم من يجمع المال ويخل به ٣٥٨
- المطلب الرابع: ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة ٣٥٩
- المطلب الخامس: عقاب من هذه صفاتهم وصفة ذلك العقاب ٣٦١
- أولاً: عقاب من هذه صفاتهم..... ٣٦١
- ثانيًا: من صفات النار ٣٦٢

تفسير سورة الفيل

- المطلب الأول: مقدمات حول السورة..... ٣٦٥
- أولاً: تسميتها ٣٦٥
- ثانيًا: نزولها ومناسبتها ٣٦٥
- ثالثًا: موضوعها..... ٣٦٦
- رابعًا: المعنى الإجمالي للسورة..... ٣٦٧
- المبحث الأول: قصة أصحاب الفيل ٣٦٨
- المبحث الثاني: وقفات مع الآيات..... ٣٧١
- المطلب الأول: حادثة الفيل من نعم الله على قريش ٣٧١
- المطلب الثاني: الكيد عاقبته التضليل ٣٧٢
- المطلب الثالث: عذاب أصحاب الفيل ٣٧٣
- المطلب الرابع: فوائد تربوية من سورة الفيل ٣٧٤

- ٣٧٤ أولًا: بيان حرمة الكعبة ووجوب تعظيم حرمت الله تعالى.
- ٣٧٥ ثانيًا: حكم من أراد الإلحاد في البيت.
- ٣٧٧ ثالثًا: عظم حسد النصارى وحقدهم على البيت ومن يعظمون البيت.
- ٣٧٧ رابعًا: أن خونة الأمة مخذولون.
- ٣٧٧ خامسًا: حقيقة المعركة مع أعداء الله.

تفسير سورة قريش

- ٣٧٨ المبحث الأول: مقدمات حول السورة.
- ٣٧٨ أولًا: تسميتها.
- ٣٧٨ ثانيًا: نزولها ومناسبتها.
- ٣٧٩ ثالثًا: موضوعها.
- ٣٨٠ رابعًا: المعنى الإجمالي للسورة.
- ٣٨١ المبحث الثاني: وقفات حول السورة.
- ٣٨١ المطلب الأول: نعم الله تعالى على قريش.
- ٣٨٢ المطلب الثاني: إلف نعم الله تعالى.
- ٣٨٤ المطلب الثالث: قصة الرحلة.
- ٣٨٥ المطلب الرابع: وجوب شكر الله تعالى على نعمه بإخلاص العبادة له.

تفسير سورة الماعون

- ٣٨٨ المبحث الأول: مقدمات حول السورة.
- ٣٨٨ أولًا: تسميتها ونزولها ومناسبتها.
- ٣٨٩ ثانيًا: موضوعها.
- ٣٨٩ ثالثًا: المعنى الإجمالي للسورة.
- ٣٩١ المبحث الثاني: وقفات مع الصفات المذمومة في السورة.
- ٣٩١ المطلب الأول: التكذيب بالدين.
- ٣٩٢ المطلب الثاني: قهر اليتيم ومنعه الطعام وعدم الإحسان إليه.
- ٣٩٣ فضل رعاية اليتيم والمسكين.
- ٣٩٤ المطلب الثالث: السهو عن الصلاة.
- ٣٩٤ أولًا: خطورة تأخير الصلاة والغفلة عنها.

- ٣٩٥..... ٦ ثانيًا: الواجب علينا تجاه الصلاة
- ٣٩٨..... ٦ ثالثًا: ومما يعين على إقامة الصلاة وعدم السهو عنها
- ٣٩٩..... ٥ المطلب الرابع: الرياء
- ٤٠٢..... ٥ المطلب الخامس: منع الخير عن الغير

تفسير سورة الكوثر

- ٤٠٥..... المبحث الأول: مقدمات حول السور
- ٤٠٥..... ٦ أولًا: تسميتها
- ٤٠٥..... ٦ ثانيًا: نزولها ومناسبتها
- ٤٠٧..... ٦ ثالثًا: فضلها
- ٤٠٧..... ٦ رابعًا: موضوعها
- ٤٠٨..... ٦ خامسًا: المعنى الإجمالي للسورة
- ٤٠٩..... المبحث الثاني: وقفات مع الآيات
- ٤٠٩..... ٥ المطلب الأول: نعمة الله وعطائه
- ٤٠٩..... ٦ المسألة الأولى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾
- ٤٠٩..... ٥ المسألة الثانية: ما هو الكوثر؟
- ٤١١..... ٥ المطلب الثاني: شكر الله على نعمه
- ٤١٢..... ٥ المطلب الثالث: دفاع عن النبي ﷺ
- ٤١٤..... المبحث الثالث: إعجاز سورة الكوثر
- ٤١٤..... (١) اللغة التي اختارها الله لكتابه
- ٤١٤..... (٢) من لطائف السورة
- ٤١٥..... (٣) فائدتان مستنبطتان من السورة
- ٤١٥..... (٤) في سورة الكوثر حديثان عن الغيب
- ٤١٦..... (٥) إجمال الألفاظ وثراء المعاني
- ٤١٨..... (٥) وخلاصة ما ذكره المفسرون في السورة

تفسير سورة الكافرون

- ٤٢٠..... المبحث الأول: مقدمات حول السورة

- أولاً: تسميتها..... ٤٢٠
- ثانياً: نزولها ومناسبتها ٤٢١
- ثالثاً: فضلها ٤٢٢
- رابعاً: موضوعها..... ٤٢٤
- خامساً: المعنى الإجمالي للسورة..... ٤٢٤
- المبحث الثاني: وقفات مع السورة..... ٤٢٦
- المطلب الأول: إعلان الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال البراءة ٤٢٦
- المطلب الثاني: لا يجتمع دين إسلام ودين الكافرين ٤٢٧
- المحور الأول: لا نرضي الكافرين ولو مرة على حساب ديننا ٤٢٧
- المحور الثاني: العبادة المقترنة بالشرك ليست عبادة ٤٢٨
- المحور الثالث: توكيد مفهوم التوحيد والبراءة من الشرك ٤٢٨
- المحور الرابع: التمييز لا التميع ٤٣١

تفسير سورة النصر

- المبحث الأول: مقدمات حول السور..... ٤٣٣
- أولاً: تسميتها..... ٤٣٣
- ثانياً: نزولها ومناسبتها ٤٣٤
- ثالثاً: موضوعها ٤٣٦
- رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة..... ٤٣٦
- المبحث الثاني: وقفات مع السورة..... ٤٣٨
- المطلب الأول: النصر والفتح ٤٣٨
- أولاً: معنى النصر والفتح ٤٣٨
- ثانياً: النصر من الله وحده ٤٣٩
- ثالثاً: من علامات النصر أن يدخل الناس في دين الله أفواجا ٤٣٩
- المطلب الثاني: الواجب عند النصر وأثره التربوية ٤٤٠
- المحور الأول: الواجب عند النصر ٤٤٠
- المحور الثاني: قبول الله توبة عباده ٤٤٤
- المحور الثالث: العناية بإصلاح القلب ٤٤٥

تفسير سورة المد

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة..... ٤٤٦
- أولاً: أسمائها..... ٤٤٦
- ثانياً: نزولها ومناسبتها..... ٤٤٧
- ثالثاً: موضوعها..... ٤٤٨
- رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة..... ٤٤٨
- المبحث الثاني: وقفات مع الآيات..... ٤٤٩
- المطلب الأول: دعاء القرآن على المؤذنين للرسول ﷺ..... ٤٤٩
- المطلب الثاني: المستهزئين بالرسول ومن يعاونهم وجزائهم..... ٤٥١
- أولاً: لن ينفع المستهزئين بالرسول ودعوته أموالهم ولا كسبهم..... ٤٥١
- ثانياً: مصير المستهزئين المحاربين لرسول الله ﷺ والصالحين من عباد الله..... ٤٥٢
- ثالثاً: جزاء من أعان الذين يؤذون الرسول ﷺ والذين آمنوا..... ٤٥٢
- رابعاً: الجزاء من جنس العمل..... ٤٥٣
- خامساً: معجزة ظاهرة على النبوة وصدق الرسالة..... ٤٥٣
- المطلب الثالث: قصة هلاك أبي لهب..... ٤٥٣

تفسير سورة الإخلاء

- المبحث الأول: مقدمات حول السورة..... ٤٥٦
- أولاً: تسميتها..... ٤٥٦
- ثانياً: سبب نزولها ومناسبتها..... ٤٥٧
- ثالثاً: موضوعها..... ٤٥٨
- رابعاً: فضلها..... ٤٥٨
- خامساً: معنى أنها تعدل ثلث القرآن..... ٤٥٩
- سادساً: مواضع قراءتها..... ٤٦١
- سابعاً: المعنى الإجمالي للسورة..... ٤٦٢
- المبحث الثاني: وقفات مع السورة..... ٤٦٣
- المطلب الأول: وجوب معرفة الله..... ٤٦٣

- المطلب الثاني: تنزيهه سبحانه عن كل نقص ٤٦٦
- المطلب الثالث: تحقيق التوحيد لله ٤٦٨

تفسير المعوذتين أولاً: المعوذتين وأحكام الاستعاذة

- المطلب الأول: مقدمات حول المعوذتين ٤٦٩
- أولاً: أسماءهما ٤٦٩
- ثانياً: نزولهما ومناسبتهما ٤٧٠
- ثالثاً: موضوعهما ٤٧٣
- رابعاً: فضلها ٤٧٣
- خامساً: مواضع الاستعاذة هما ٤٧٤
- سادساً: المعنى الإجمالي للسورتين ٤٧٦
- المطلب الثاني: أحكام الاستعاذة ٤٧٧
- المسألة الأولى: تعريف الاستعاذة ٤٧٧
- المسألة الثانية: أركان الاستعاذة ٤٧٨
- المسألة الثالثة: حكم الاستعاذة وصيغتها ٤٧٩
- المسألة الرابعة: مواضع الاستعاذة في القرآن ٤٨١
- المسألة الخامسة: مواضع الاستعاذة في السنة ٤٨٢
- المسألة السادسة: من فوائد الاستعاذة ٤٨٤
- المطلب الثالث: الرقية وأحكامها ٤٨٥
- أولاً: حكم الرقية ٤٨٥
- ثالثاً: شروط جواز الرقية ٤٨٦
- ثالثاً: شروط الشفاء من الرقية ٤٨٧

ثانياً: تفسير سورة الفلق

- المبحث الأول: وقفات مع المستعاذ به والمستعاذ منه ٤٨٨
- المطلب الأول: المستعاذ به ٤٨٨
- المطلب الثاني: المستعاذ منه ٤٨٩

- المبحث الثاني: خطر السحر والحسد وطرق الوقاية منهما ٤٩٤
- المطلب الأول: خطورة السحر وطرق الوقاية منه ٤٩٤
- أولاً: خطورة السحر: تتمثل خطورة السحر في حرمة إجمالاً ومن الحكم في تحريمه ٤٩٤
- ثانياً: من مضار السحر ٤٩٥
- ثانياً: كيفية العلاج من السحر والوقاية منه ٤٩٥
- المطلب الثاني: خطورة الحسد وطرق الوقاية منه ٤٩٦
- أولاً: خطورة الحسد ٤٩٦
- ثانياً: دواعي الحسد ٤٩٧
- ثالثاً: مضار الحسد ٤٩٨
- رابعاً: دواء الحسد ٤٩٨

ثالثاً: تفسير سورة الناس

- المبحث الأول: وقفات مع المستعاذ به والمستعاذ منه ٥٠١
- المطلب الأول: المستعاذ به ٥٠١
- أولاً: ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ ٥٠١
- ثانياً: يبين سبحانه الاستعاذة به بصفات ٥٠٢
- ثالثاً: فائدة تخصيص الناس بإضافة تلك الصفات ٥٠٤
- المطلب الثاني: المستعاذ منه ٥٠٤
- أولاً: يبين لنا الله ﷻ هنا صفة هذا المستعاذ منه وهي ٥٠٥
- ثانياً: حدد الله تعالى عمل هذا المستعاذ منه ٥٠٦
- ثالثاً: حدد شخصية المستعاذ منه ٥٠٧
- رابعاً: فائدة تكرار لفظ الناس ٥٠٩
- خامساً: فائدة هذا التدرج وهذه المقدمات في ذكر شخصية المستعاذ منه ٥٠٩
- المبحث الثاني: وقفات حول وسوسة شياطين الإنس والجن ٥١٠
- أولاً: طريق معرفة وسوسة الجن ٥١٠
- ثانياً: طريق معرفة وسوسة الإنس ٥١٠

- ٥١١ ثالثاً: وسوسة الجن والإنس باقية إلى قيام الساعة
- ٥١١ رابعاً: حكم حديث النفس
- ٥١١ خامساً: طريق النجاة من خطر الجن والإنس
- ٥١٤ الخاتمة
- ٥١٤ التناج
- ٥١٦ التوصيات
- ٥١٨ ثبت المراجع

